





2272.6259.3656
al-Mawdūdī
Nahnu wa-al-hadārah al-
gharbiyah

DATE _____

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
-------------	----------	-------------	----------

OCT 28 JUN 15 78

OCT 16 NOV 13 '80

RETURN JUN 10 '81

DUE MAR 24 1992

DUE ~~DATE~~ 3/19/96

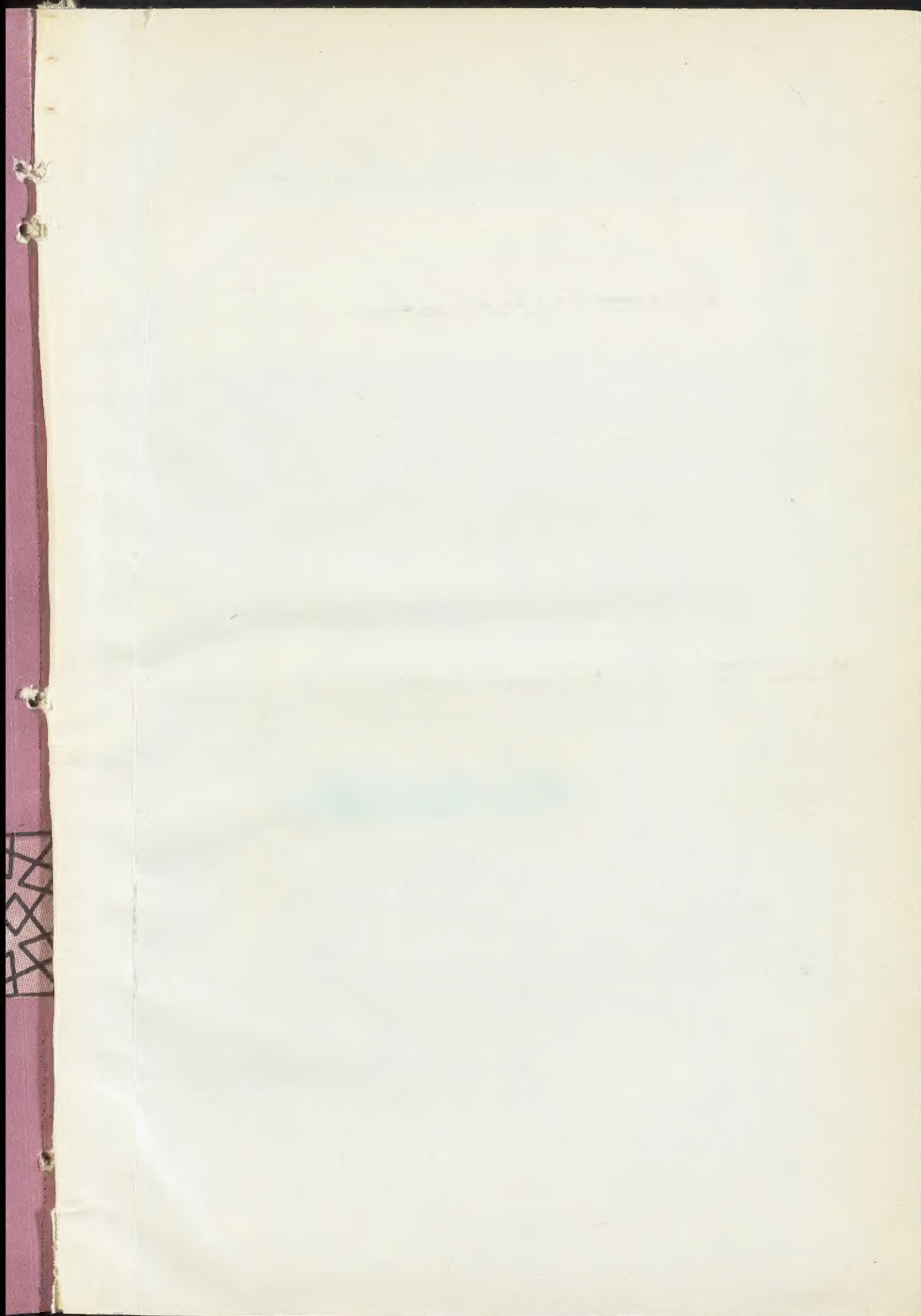
PRINCETON U.



a32101



006862518b

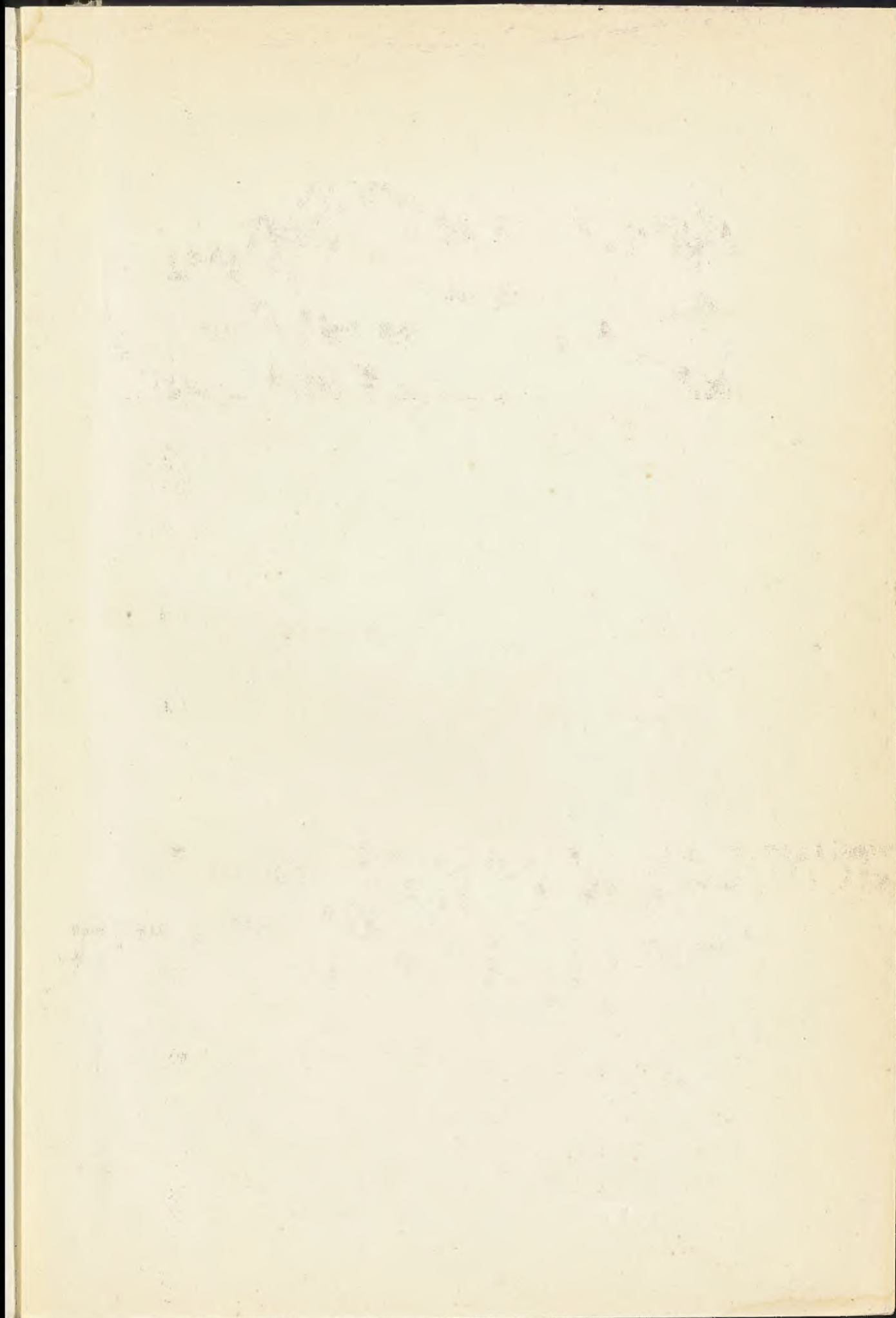


أبو الأُعلى المودودي

نَحْرُ الْحَضْرَةِ الْغَيْبِيَّةِ

دار الفكر بدمشق

١٩٥٥



al-Mawdūdī, Abū al-Aʿlā

أبو الأعلی المودودي

Nahnu wa-al-hadārah
al-gharbiyah

نَحْنُ وَالْحَضَارَةُ الْغَرْبِيَّةُ

دار الفكر بدمشق

2272
.6259
.3656

14/10/1922

14/10/1922

14/10/1922

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ليس موضوع الصراع بين الفكرة الإسلامية والحضارة الغربية موضوعاً قليل الأهمية بالنسبة للعالم الإسلامي ، فعلى مدى وعي المسلمين لطبيعة المعركة الفكرية التي يخوضونها مع الحضارة الغربية يتوقف مستقبل فكرتهم ورسالتهم الإسلامية . . هل ستصمد هذه الفكرة في وجه الثقافة الغازية مستمدة من مبادئها ما يلي كل حاجات العصر ويحل مشكلاته؟ أم ستتلاشى أمام نفوذ الحضارة الغربية وسيطرة ثقافتها وقيمها على مفاهيم العصر؟! ٧-١-٢٥ ١٩٨٥

وعلى الرغم مما لهذا الموضوع من أهمية بالغة ، فإن الذين تناولوه بالبحث هم قلة نادرة جداً من كتاب العالم الإسلامي ، كما أن الذين يتلقفون هذا النوع من الأبحاث بالعناية والدراسة هم أيضاً قلة من القراء ... هذه الظاهرة إنما تدلنا على مدى « فقر المسلمين بالأفكار » في عالم أصبحت فيه « ثروة الأفكار » هي مقياس تقدم الأمم ورفقها .

إن الأستاذ الكبير « أبو الأعلى المودودي » هو من هذه القلة النادرة التي تكتب للمسلمين ما يكشف لهم أسباب تخلفهم وانحطاطهم ، وينير لهم سبيل نهوضهم وارتقايتهم .

وكتابه «نحن والحضارة الغربية» موضوعات كتبت في مناسبات مختلفة ، وفي أزمنة متباعدة ، بعضها يمتد إلى ما قبل ربع قرن من الزمان... ظاهرة أخرى - إلى جانب الفقر بالأفكار - تدل على قوة العلاقات والروابط الفكرية بين المسلمين كم هي ضعيفة واهية !!

ولقد كنا نتمنى أن يكون الأستاذ المودودي هو نفسه الذي يتولى تقديم كتابه الجديد «القديم» إلى قراء العربية ، لولا أننا أردنا توفير بعض الوقت ، آملين أن يكون في جهدنا الضئيل إغناء للثروة الفكرية الإسلامية وتوثيق للعلائق الفكرية بين المسلمين .
والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

الناشر

عبوديتنا الفكرية وأسبابها

إن الحكم والسيادة ، والغلبة والاستيلاء نوعان : أحدهما الغلبة المعنوية والخلقية، والآخر المادية والسياسية . فأما الغلبة من النوع الأول فهي أن تتقدم أمة من حيث قواها الفكرية والعلمية تقدماً يجعل سائر الأمم تؤمن بأفكارها، فتتغلب نظراتها على الأذهان وتستولي منازعها ومعتقداتها على المشاعر وتنطبع بطابعها العقليات . فتكون (الحضارة) حضارتها و (المعلوم) علومها و (التحقيق) ما تقوم به هذه و (الحق) ما هو عندها حق و (الباطل) ما تحكم هي عليه أنه باطل. وأما الغلبة من النوع الآخر فهي أن تصبح أمة من شدة الصولة والبأس باعتبار القوى المادية بحيث تعود الأمم الأخرى لا تستطيع أن تحتفظ باستقلالها السياسي إزاءها . فتستبد هذه بجميع وسائل الثروة عند تلك الأمم وتسيطر على تدبير شؤونها كاملة أو إلى حد ما . وكذلك الهزيمة والخنوع نوعان : أحدهما الهزيمة الفكرية والآخر السياسية . وقس بيان هذين على ما سبق من بيان نوعي الغلبة .

وهذان النوعان من الغلبة والاستيلاء منفصل بعضهما عن بعض، فلا يلزم أن توجد الغلبة المعنوية حينما كانت الغلبة السياسية ، كما لا يلزم أن تكون الغلبة المادية مصحوبة بالغلبة المعنوية في كل حال .

على أن القانون الطبيعي هو أن كل أمة تستعمل ما آتاه الله من قوى الفكر والعقل وتمضي قدماً في طريق البحث والتحقيق والاكتشاف تتمتع إلى جانب رقيها الفكري بالرقى المادي أيضاً. وكل أمة تتقاعده عن السباق في حلبة التفكير والتعمق في العلم تصاب مع انحطاطها العقلي بالنقحر والاضمحلال المادي كذلك . ثم انه لما كانت الغلبة نتيجة القوة، والهزيمة عاقبة الضعف فان الأمم المتخلفة من الجهتين المعنوية والمادية كلها تهبط في دركات الضعف والفتور تكون أصلح للعبودية وأكثر استعداداً للخضوع ، وتصبح الأمم القوية بالاعتبارين المادي والمعنوي حاكمة على عقولها وأجسامها معاً .

إن المسلمين يعانون اليوم هذه العبودية المضاعفة ، فمن أوطانهم ما توجد فيه العبودية بنوعها جميعاً . ومنها ما يقل فيه جانب العبودية السياسية ويرجح جانب العبودية المعنوية . ومن سوء الحظ أنه ليست لهم على ظهر الأرض رقعة إسلامية واحدة مستقلة تمام الاستقلال من الوجهتين السياسية والمعنوية . وأما البلاد التي قد حصلت لهم فيها الحرية والاستقلال السياسي فهم ليسوا متحررين فيها من ربة العبودية الفكرية . فها هي ذي مدارسهم ومكاتبهم وبيوتهم وأسواقهم ومجتمعاتهم حتى وأجسامهم وأشخاصهم تشهد كلها بأنه قد استولت عليهم حضارة الغرب وامتلكت نفوسهم علومه وآدابه وأفكاره . فهم لا يفكرون إلا بمقول غربية ولا يبصرون إلا بأعين غربية ولا يسلكون إلا الطرق التي قد مهدها لهم الغرب . وقد رسخ في نفوسهم ، سواء أشعروا به أم لم يشعروا ، أن الحق هو ما عند أهل الغرب حق

والباطل ما يعمدونه هم باطلا ، إن المقياس الصحيح للحق والصدق والآداب والأخلاق والإنسانية والتهذيب هو الذي قد قرره الغرب لكل ذلك . فيقيسون بهذا المقياس ما بأيديهم من العقيدة والإيمان ويختبرون ما عندهم من الأفكار والتصورات والمدنيّة والتهذيب والأخلاق والآداب . فكل ما يطابق منها ذلك المقياس يطمئنون إلى صدقه ويفتخرون بمجىء أمر من أمورهم موافقاً للمعيار الأوربي . وأما ما لا يطابقه منها فيظنونونه خطأ وباطلاً ، شعروا بذلك أم لم يشعروا ، ثم يأتي المتعسف منهم فيتبرأ منه ويرفضه علناً ، ويقف المقتصد منهم باخماً نفسه عليه ، أو يعود يعالجه جذباً ومداً حتى ينطبق على المعيار الغربي بوجه من الوجوه .



وإذا كانت هذه حال الأمم المستقلة منا فحدث ولا حرج عن حال العبودية الفكرية في الأمم المسلمة التي هي واقعة تحت حكم الغرب . أما السبب لهذه العبودية فموضوع يحتاج التبسط فيه إلى كتاب خاص ، ولكننا نستطيع أن نختصره ونلمّ به في كلمات معدودة :

إن الغلبة والاستيلاء المعنوي يقوم بنيانه في الحقيقة على الاجتهاد والتحقيق العلمي . فكل أمة تسبق غيرها إليه تتولى قيادة العالم وزعامة الأمم ، وتستولي أفكارها هي على العقول . وأما الأمة التي تتخلف في هذا الطريق فلا تجدد مناصاً من اتباع الغير وتقليده ، إذ لا تبقى في أفكارها ومعتقداتها من القوة والاصالة ما يكسبها

السيطرة على الأذهان ، فيجرفها تيار الأفكار القوية والمعتقدات
الراسخة التي تتقدم بها الأمة الباحثة المجتهدة ، وهي تكون في
وجهه كغشاء السيل ، لا تستطيع أن تدافعه أو تثبت أمامه . إن
المسلمين ماداموا يتقدمون في مضمار التحقيق والاجتهاد بقيت جميع
الأمم تابعة لهم وسائرة في ركابهم ، وما برح الفكر الإسلامي
غالباً على أفكار النوع الإسلامي بأجمعه ، وكل ما اتخذته الإسلام
من المقياس للخير والشر والحسن والقبيح والخطأ والصحيح تقدر
مقياساً أصيلاً لكل تلك الصفات عند جميع أهل الأرض ، سواء
أعرفوا أم لم يعرفوا . وما زالت الدنيا تحاول أن تطبق أفكارها
وأعمالها على ذلك المقياس الإسلامي طوعاً أو كرهاً . ولكنه لما
انقطع في المسلمين نبوغ أهل الفكر وأصحاب التحقيق ولما ترك
القوم مزاولة التفكير والبحث والتدقيق ، وقعد بهم اللغوب عن
موالاة الاجتهاد وتحصيل العلم ، فلكنهم تنازلوا من تلقاء أنفسهم
عن مكانتهم من قيادة العالم ، ونهضت من جانب آخر أمم الغرب
تتقدم في هذا السبيل ، تستعمل ما آتاه الله من قوى الفكر
والتدبر وتنقب عن أسرار هذا الكون وتبحث عن ذخائر القوى
الفطرية المكنونة في جوف الأرض وأعماق البحار . فكانت نتيجة
ذلك ما يجب أن تكون — هو أن انتقلت قيادة العالم إلى أمم
الغرب ، واضطر المسلمون إلى الخضوع لسلطانها كمثل ما خضعت
الأمم — من قبل — لسلطانهم .

ما زال المسلمون يتقبلون في أعطاف المز والمجد والنعيم الذي

ورثوه عن آباءهم مدة أربعة قرون أو خمسة . وبقيت الأمم الغربية في أثنائها تعمل وتسمى وتجتهد — وعن غير بعيد تدفق سيل السلطة الغربية فجأة وجعل يمتد إلى الشرق والغرب حتى غمر ربوع الأرض في مدة قرن واحد . ولما تنبه هؤلاء الغافلون النيام من سباتهم الطويل وفتحوا أعينهم ليتبينوا ماذا طرأ على الدنيا في أثناء ذلك ، رأوا العجب العاجب ، رأوا أمامهم أوروبا المسيحية متسلحة بالقوانين — قوة العلم والسيف معاً ، ومستبعدة بالحكم والسيادة في الأرض بالقوتين جميعاً . عند ذلك انبرت من بين المسلمين فئة تحاول سد نفوذها ودفع تيارها عن بلاد الشرق ، ولكنها ما كانت من هاتين القوتين — العلم والسيف — على شيء يذكر ، فظلت تفشل وتنهزم في وجهها . وأما السواد الأعظم من الأمة المسلمة فسلكوا ما كانت منذ الأزل مذهب أهل الضعف وأبناء الهوان ، وذلك أنه كلما جاءهم من قبل الغرب من الأفكار والمبادئ والنظريات مدعماً ببأس الحديد ومعززاً بقوة الحجاج وشواهد العلم ومزخرفاً بفاتن الألوان أنزله ذوو العقول الفاترة والعقليات المغلوبة هؤلاء منزلة الحقائق التي يجب الإيمان بها . وأما المعتقدات الدينية والمبادئ الخلقية والقوانين المدنية العتيقة التي كانت باقية فيهم على أساس من التقليد والآثار فحسب فقد ذهب بها هذا التيار الجديد القوي ، واستقر في سويداء قلوبهم — من حيث لا يشعرون — أن كل ما يأتي من الغرب هو الحق ومن المقياس للصحة والصواب .

إن الأمم التي عارضت حضارة الغرب وزاحمتها كانت من أنواع

ثلاثة : أمم لم تكن لها حضارة مستقلة مختصة بها . وأخرى كانت لها حضارة مخصوصة ولكنها لم تكن من القوة بحيث تستطيع أن تحاول الحفاظ على خصائصها بازاء حضارة قوية أخرى . وثالثة لم تكن حضارتها تختلف في مبادئها كثيراً عن هذه الحضارة الطارئة . كل هذه الأمم ذابت بكل سهولة في الحضارة الغربية وتلونت بلونها بدون أن يقع بين هذه وتلك كبير احتكاك . ولكن المسلمين كانت حالهم غير حال تلك الأمم جميعاً ، لأنهم حاملو حضارة مستقلة تامة ذات دستور واضح مكتمل شامل لجميع شعب الحياة الإنسانية من ناحيتي الفكر والعمل ، تختلف اختلافاً كلياً عن مبادئ الحضارة الغربية . فكان - بطبيعة الحال - أن جاءت هاتان الحضارتان تتزاحمان في كل مجال وتصطدمان على كل صعيد . ولا يزال هذا التصادم قائماً بين القوتين إلى هذا اليوم يؤثر في كل شعبة من شعب حياة المسلمين العملية والاعتقادية أمواً الآثار .



إن الفلسفة والعلوم التجريبية (Science) اللتان نشأت في أحضانها المدنية الغربية مازال اتجاهاهما إلى الدهرية والإباحية والإلحاد وحب المادة منذ خمسة أو ستة قرون . لذلك ما أن ظهرت هذه المدنية إلى حيز الوجود حتى قامت تعارض الدين وتخاصمه . بل الأصح أنها كانت وليدة صراع العقل والتجربة مع الدين والإيمان . ومع أن الدين لم يناقض شيئاً من مشاهدة آثار الكون والتنقيب عن أسرارها واكتشاف قواعدها الأصولية ، ولا خالف تعاليمه عملية

التفكير في مظاهر تلك الآثار واستخراج النتائج منها بعد ترتيبها وإعمال القياس والاستدلال فيها ، إلا أنه كان من سوء المصادفات أنه لما ظهرت الحركة العلمية الجديدة في أوروبا على عهد النهضة الجديدة (Renaissance) وقع عراك شديد بينها وبين القسس النصارى الذين كانوا قد بنوا عقائدهم الدينية على أسس الفلسفة والحكمة اليونانية القديمة ، وكانوا يزعمون أنه إن جاء التحقيق العلمي والاجتهاد الفكري الجديد بصطدم بتلك الأسس ويهدم ركناً من أركانها فإن الدين بنفسه سينهدم ويتسوى بنيانه مع الأرض . فهذا الزعم الخاطيء جعلهم يخالفون الحركة العلمية الجديدة ويستخدمون القوة والعنف لمنعها والصد عنها . فأقيمت محاكم التفتيش (Inquisitions) لمحاكمة القائمين بتلك الحركة فعوقبوا أشد العقوبات ونكل بهم من غير رحمة ، ولكن هذه الحركة التي كانت نتيجة نهضة حقيقية راسخة الأصل بقيت تقوى وتنمو على رغم أنف الشدة والقهر ، إلى أن طغى سيل الحركة الفكرية في البلاد وذهب تياره بالسلطة الدينية .

وكان الصراع في بدء أمره بين دعاة حرية الفكر وبين الزعماء الدينيين . ولكن هؤلاء الزعماء لما كانوا يحاربون أنصار الحرية الفكرية باسم الدين ، لم يلبث أن تحول هذا الصراع إلى حرب بين حرية الفكر والنصرانية ، ثم جعل الدين في نفسه - أيا كان - خصيم هذه الحركة وندھا المحارب . وأصبح التفكير على الطريقة العلمية المنسقة شيئاً مضاداً لطريق الفكر الديني ومختلفاً عنه .

ووجب على كل من يفكر في مسائل هذا الكون بالطريقة العلمية المنطقية أن يشق لفكره طريقاً آخر مغايراً للنظرية الدينية في تلك المسائل . إن التصور الأساسي للنظرية الدينية في هذا الكون هو أن كل ما لهذا العالم الطبيعي (Physical world) من المظاهر والآثار يجب أن ترد علتها إلى قوة أعلى وأرفع من هذا العالم . ولكنه لما كانت هذه نظرية أعداء الحركة العلمية الجديدة قرر أصحاب الحركة العلمية أن يحاولوا حل لغز هذا الكون بدون أن يفرضوا وجود إله أو ذات فوق الطبيعة (Supernatural) وأن يعدوا كل طريقة تبحث في مسائل الكون بفرض وجود الإله طريقة رجعية غير علمية (Unscientific) . وبذلك نشأ في قلوب أهل الحكمة والفلسفة في هذا العصر الجديد تعصب على الوجود الإلهي والروح والروحانيات وكل ما فوق الطبيعة ، لم يكن آتياً من ناحية العقل والاستدلال ، بل كان نتيجة لثورة العواطف وغلبانها . فكان هؤلاء الحكماء والفلاسفة المستثيرون لا يتبرأون من ذات الله بحجة أنه قد ثبت لهم عدم وجوده أو عدم وجوبه بالأدلة والبراهين ، بل كانوا ينفرون منه لكونه معبود خصومهم وإله المخالفين لحرية فكرية . ومن ثم كان كلما آتت به عقولهم وأفكارهم وأنتجته مساعيهم العلمية في القرون الخمسة التالية نابتاً من جذور هذه النزعة غير المنطقية .

إن الفلسفة والعلوم التجريبية لما بدءا سفرهما في مضمار العمل فمع أنهما كانتا تتجهان إلى الجهة المخالفة للايمان بالله ، كانتا بحكم

الوسط الديني الذي يكتنفهما تتكافان الموافقة بين المذهب المادي والإيمان بالله باديء ذي بدء . ولكنه كلما تقدما في المسير ظل المذهب المادي يتغلب على الإيمان حتى خلت تلك الفلسفة والعلوم من تصور وجود الإله وكل ما فوق الطبيعة . وانتهت بهما الحال إلى أن لم يبق شيء من أشياء هذا الوجود ، سوى المادة والحركة ، حقيقياً عندهم. وأصبحت العلوم التجريبية (Naturalism) مرادفة للمذهب المادي، وقر اعتقاد أصحاب الحكمة والفلسفة على أن كل ما لم يكن قابلاً للوزن والذرع ، فهو خيال لا حقيقة له .

يشهد بهذا كله تاريخ الفلسفة والعلوم الغربية . فهذا ديكارت (Descartes) (١) الذي يعد أبا عُدُر فلسفة الغرب يؤمن - بجانب - بوجود الله أحر ما يكون من الإيمان ويقر بوجود الروح مستقلاً عن المادة . ثم هو الذي يبتدع - بجانب آخر - تحليل آثار العلم الطبيعي على الطريقة الميكانيكية ويضع الصخرة الأساسية لذلك الطريق الفكري الذي تحول فيما بعد إلى مادية خالصة (Materialism) . ويتلوه هوبز (Hobbes) (٢) فينتقدمه في هذه الجهة خطوة - يخالف ما فوق الطبيعة علناً ، ويعد نظام هذا العالم وكل شيء من أشياءه قابلاً للتعليل الميكانيكي ولا يقول بوجود قوة نفسية أو روحية أو عقلية تملك التصرف في هذه الدنيا المادية . ولكنه مع ذلك كله يعتقد بالله وذلك من حيث أن

(١) المتوفى سنة ١٦٥٠

(٢) المتوفى سنة ١٦٧٩

الاعتقاد بمثل هذه العلة للعقل ضرورة يستلزمها العقل . وفي هذا العهد يظهر سبي نوزا (Spinoza) ^(١) زعيم حاملي راية النزعة العقلية (Rationalism) في القرن السابع عشر ، فلا يفرق بين المادة والروح والوجود الإلهي بل يجمع بين الإله والكائنات ويجعل منها كلاً واحداً ولا يقر بهذا الكل بسلطة الله المطلقة. كذلك يجيء لبنيز (Leibnitz) ^(٢) ولوك (Locke) الإنجليزي ^(٣) كلاهما يقول بوجود الله وينزع مع ذلك إلى المذهب المادي .

هذه فلسفة القرن السابع عشر التي كان الإيمان بالله يتماشى مع المذهب المادي فيها جنباً لجنب ، وكذلك كانت العلوم التجريبية أيضاً لم يفلها طابع الإلحاد الكامل إلى هذا العهد ، فلم يكن كوبرنيكس (Copernicus) وكيبلر (Kepler) وجيليليو (Galilio) ونيوتن وغيرهم من أساطين العلوم الطبيعية - لم يكن أحد منهم منكرًا للوجود الإلهي ، ولكنهم كانوا يقصدون ، من بحثهم عن أسرار هذا الكون بقطع النظر عن النظرية الإلهية ، أن يمتروا على تلك القوى التي تدبر هذا النظام ، وعلى القوانين التي هو جار عليها . وهذا النفور من النظرية الإلهية كان هو النواة للدهرية والمادية اللتين طلعتا من شجرة حرية الفكر فيما بعد . غير أن حكماء القرن السابع عشر لم يشعروا لذلك . وما استطاعوا أن يضموا الحد الفاصل بين الإيمان بالله

(١) المتوفى سنة ١٦٧٧

(٢) المتوفى سنة ١٧١٦

(٣) المتوفى سنة ١٧٠٤

والمادية ، وإنما ظلوا يزعمون أنهما عقيدتان متآخيتان قد يجمع المرء بينهما في الوقت الواحد .

حتى جاء القرن الثامن عشر . فتبين فيه لأهل النظر أن كل أسلوب للفكر يبحث عن نظام هذا الكون بصرف النظر عن وجود الاله لا بد أن يصل إلى الاتحاد والمادية واللا دينية . وفي هذا القرن نبغ أمثال جان طولاند (Toland) وداوود هارتلي (David Hartley) ويوسف بريستلي وفولتير (Voltaire) ولامتري (La Mettrie) وهولباخ (Holbach) وكيبانيس (Cabanis) ودينس ديديره (Denis Didero) ومونتسكيو (Montesquieu) وروسو (Rousseau) من أقطاب الفكر الحر من الحكماء والفلاسفة الذين جاؤوا إما بنفون وجود الله علناً أو بصدقونه من حيث هو حاكم دستوري (Constitutional Monarch) ليس إلا ، قد ازوى في ملكوته السماوي بعد أن أعطى هذا الكون خلقه وحرك دولابه ، فليس له الآن في تدبير هذا النظام يد . كان هؤلاء لا يعتقدون بشيء خارج الطبيعة وفوق عالم المادة والحركة ، وكانوا لا يعتقدون الحقيقة لشيء سوى ما يأتي تحت مشاهدة الإنسان وتجربته . وجاء هيوم (Hume) يؤيد هذا الطريق الفكري أقوى ما يكون من التأييد بنظريته التجريبية (Empiricism) وفلسفته التشكيكية (Scepticism) ، وأعاد وأبدأ في الدعوة لجعل التجربة هي المقياس لصحة العلوم العقلية . وقام بركلي (Burkeley) إلى هذا التيار المادي المتدفق يراحه ويدافنه بكل ما في وسعه ، إلا أنه لم يوفق . وكذلك

لابتغى هيجل (Hegel) أن يعارض المادية بإشاعة المثالية (Idealism) بين الناس ، ولكن قل من عكف على هذا المذهب الخيالي اللطيف منصرفاً عن المتجسمة المريعة . وحاول كانت (Kant) أن يهيج طريقاً وسطاً بين المادة والروح ، فقرر أن وجود الاله وبقاء الروح وحرية الارادة كل أولئك ليس مما يقع تحت علم الانسان ومشاهدته ولذلك فمن غير المستطاع إدراكه بالحواس . إلا أننا مع ذلك نستطيع أن نؤمن بكل ذلك إيماناً بالغيب ، وتتقاضانا الحكمة العملية (Practical Wisdom) أن نفعل .

هذه كانت آخر محاولة للموافقة بين الاعتقاد بالله والمذهب المادي (Naturalism) ولكنها باءت بالفشل . ذلك بأن الضلال الفكري والعقلي لما جعل الوجود الالهي نتيجة وهم خيال أو أنزله — على أكثر التقدير — منزلة وجود منزول عن تدبير لا أمر له ولا سلطان ، عاد الاعتقاد والخشية له والرغبة في رضاه المجرد الأخلاق والآداب شيئاً عبثاً لا يرضى به العقل .



وفي القرن التاسع عشر بلغت المادية منتهاها . إذ جاء كل من فوغت (Vogt) وبوخنر (Bochner) وزولي (Czolbi) وكومت (Conite) ومولشات (Molschotte) ومن لف لفهم من الحكماء والفلاسفة يبطل وجود كل شيء ما خلا المادة وخصائصها . وقام مل (Mill) بإشاعة التجريبية (Empiricism) في الفلسفة والمنفعة (Utilitarianism) وفي الأخلاق . وعرض ميبنسر (Spencer)

بكل قوة وشدة النظرية القائلة بحدوث هذا الكون بدون خالق، وظهور هذه الحياة من تلقاء نفسها . وجاءت موجة الاكتشافات العلمية في مختلف العلوم والفنون كعلوم الحياة (Biology) والعضويات (Physiology) والحيوان (Zoology) وطبقات الأرض (Geology) وتقدم العلوم التجريبية وتكاثر الوسائل المادية - جاء بكل ذلك يؤكد ويثبت في نفوس الناس أن هذا الكون قد حدث من نفسه ليس له خالق ، وهو سائر في طريقه على قوانين معلومة وليس من ورائه مدبر ، وقد بقي يتدرج في منازل الرقي بدون أن يكون لذات فوق الطبيعة تعرف في هذه الآلة المتحركة بنفسها . وان المادة غير ذات الروح لم تكن تتلقى الروح بأمر من رب ، وإنما المادة متى ارتفعت في نظمها وتركيبها وقعت فيها الروح من ذات نفسها . وان النمو والحركة التابعة للإرادة والإحساس والشعور والفكر - كل أولئك خصائص لتلك المادة المرتقبة . وكل من الحيوان والإنسان آلات تجري وتتحرك بحسب قوانين الطبيعة ، وتصدر منها الأفعال والحركات على حسب التركيب الذي قد ركبت عليه أجزاؤها وآلاتها . وهي ليست على شيء من الاختيار الذاتي والإرادة المستقلة . وأما إذا اختل نظام تلك الآلات أو نفدت قوتها فعندئذ يحدث الموت، وهو بمثابة الفناء الأبدي ، لأن الآلة إذا انكسرت وتفرقت أجزاؤها ، بطلت أيضاً خصائصها ، ولم يعد من الممكن جمعها وإعادة تركيبها مرة أخرى أبداً .

ثم كان لنظرية دارون (Darwin) في الارتقاء أوفر النصيب

في تدعيم هذا المذهب المادي وإحلاله محل النظرية العلمية المنظمة القائمة على الأدلة والبراهين . ويمد كتابه أصل الأنواع (Origin of Species) الذي ظهر سنة ١٨٥٩ لأول مرة كتاباً انقلابياً عجيباً . فاستدل دارون بالطريقة التي كانت آمتن الطرق للاستدلال عند العقول المستنيرة السانتيفيكية في القرن التاسع عشر ، وصدق النظرية القائلة بأن نظام هذا الكون يمكن أن يجري بدون الاله ، ولم تكن آثار الطبيعة ومظاهرها لتكون لها علة أو مرجع غير قوانين النظرية نفسها ، وإن ارتقاء الموجودات من أبسط مراحل الحياة إلى أعلاها وأقصاها نتيجة عمل تدريجي لقوة طبيعية متجردة من صفات العقل والحكمة . وليس خالق الانسان وخالق سائر الانواع الحيوانية بصانع حكيم ، بل الامر أن تلك الاله الحية التي كانت في بداية أمرها دوداً يذب قد أصبحت بفعل العوامل المختلفة كتنازع البقاء وبقاء الاصلح والانتخاب الطبيعي إنساناً ناطقاً ذا إحساس وشعور .

هاتان هما الفلسفة والعلوم التجريبية اللتان قد نتجت عنها الحضارة الغربية وهي كما ترى لادينية بحثة لا مجال فيها للخافة إله في السماء عليم وقدير ، ولا وزن فيها لنبوة أو وحي وإلهام ، ولا تصور فيها لحياة أخرى بعد الموت ، ولا خوف من المحاسبة على أعمال الحياة الدنيا كما لا وجود فيها لمسؤولية ملقاة على الانسان ، ولا إمكان فيها لمقصد أو غاية أجل وأسمى من المقاصد الحيوانية لحياة الانسان . هذه حضارة مادية تماماً يخلو نظامها من كل ما تقوم عليه حضارة الاسلام من خشية الله واتباع المقصد وحب الصدق وطلب الحق وطهارة الاخلاق والنزاهة

والامانة والبر والحياء والتقوى والنظافة ، ونظريتها على نقيض من
نظرية الاسلام ، وطريقها واسع في الجهة المعاكسة لطريق الاسلام.
فكل ما يبني عليه الاسلام نظام الاخلاق الانسانية والتمدن، تكاد هذه
الحضارة تأتي عليه من القواعد . كما أن الأسس التي ترفع هذه الحضارة
عليها قواعد السلوك الفردي والنظام الاجتماعي لا يمكن أن يقوم عليها
بنيان الاسلام ولو مساعة من الدهر . فكان الاسلام والحضارة
الغربية سفينتان تجريان في جهتين معاكستين ، فمن ركب إحداها هجر
الأخرى ولا بد . ومن أبي إلا أن يركبها في الوقت الواحد ، فاتناه معاً
وانشق بينهما نصفين .



ومن سوء المصادفات أن القرن الذي بلغت فيه هذه الحضارة
الجديدة أوج كمالها من المادية والذهرية والاحاد كان هو القرن الذي
ابتليت فيه ممالك الاسلام من لدن مرا كش إلى الشرق الأقصى
بغلبة أمم الغرب في الحكم والسياسة . فكان هجوم الغرب على
الشعوب المسلمة في ميدان القلم والسيوف معاً . وأصبح محالاً للعقول
التي راعتها غلبة الغرب السياسية وبهتتها أن لا تتأثر بروعة الفلسفة
والعلوم الغربية وبيريق المدنية التي نشأت في أحضانها . وساءت الحال
خاصة في الأمم المسلمة التي دخلت تحت حكم دولة من دول الغرب ، لأنها
اضطرت لأجل الحفاظ على مصالحها الدنيوية إلى تحصيل علوم الغرب.
ولما لم يكن هذا التحصيل مقصوداً من ورائه طلب العلم مجرداً وكان
يجلس التلامذة الشرقيون أمام أساتذتهم الغربيين بمقول مرتاعة

مفتنة ، درج النشء المسلم الجديد على أشد ما يكون من الانفعال والتأثر بالأفكار الغربية والنظريات الساتيفيكية العلمية . وظلت عقلياتهم تتلون بلون الغرب وبقي يمتد في نفوسهم نفوذ المدنية الغربية ولم يفتح الله عليهم بالبصيرة الناقدة التي تميز بين الصحيح والزائف فتجعلهم يختارون الصحيح دون الزائف . ولا هم وجدوا في أنفسهم من الاهلية والكفاءة ما يفكرون به تفكيراً حراً مستقلاً ويرون آراءهم في مسائل حياتهم بالاجتهاد الشخصي . وكان من عواقب ذلك ما نشاهده اليوم من أن الحضارة الاسلامية قد تزلزلت أركانها وأن العقليات التي كانت حري بأن تفكر التفكير الاسلامي الصحيح قد فسد تكوينها . وأن العقول التي تعودت أن تفكر بأسلوب الغرب وتؤمن بمبادئ حضارته لاتصلح بحكم مزاجها وتركيبها المخصوص أن تستقر فيها مبادئ الاسلام، وإذا هي لم تتسع للمبادئ فما أحرأها أن تنفر من الجزئيات والفروع وتخالجها في بابها أنواع الشكوك .

ما من شك في أن السواد الأعظم من المسلمين لا يزال إلى هذا اليوم يعتقد بصدق دعوة الإسلام ويريد أن يبقى مسلماً . ولكن كثيراً من العقول الناشئة لا تزال تتأثر بالفكر الغربي والحضارة الغربية وتنحرف عن جادة الاسلام انحرافاً هو إلى الزيادة والانتشار كل يوم . وإن سيطرة الغرب الفكرية وتمكنه العلمي — بصرف النظر عن غلبته واستيلائه السياسي — قد غمر الجو الفكري العالمي وغير من وجهات نظر الأبصار بحيث لا يتأتى لأولي النظر أن ينظروا بعين المسلم ولا لأولي الفكر أن يفكروا بأسلوب الفكر الاسلامي. وهذا

الوضع الحرج لن يخرج عنه المسلمون ما لم ينبغ فيهم عباقرة من أهل الفكر الحر . وبعبارة أخرى إن الاسلام في أوقاتنا هذه في حاجة إلى نهضة جديدة (Renaissance) وان إنتاج المفكرين والمحققين من أسلافنا القدامى لم يعد ذا غناء وكفاية ، لأن الدنيا قد بعدت في سيرها إلى الأمام ولم يعد من الممكن أن يرجع بها القهقري إلى المراحل التي كانت جاوزتها قبل مئة سنة . وان الزعامة في ميدان العلم والعمل اليوم لا ريب مكفولة لمن يتقدم بالدنيا إلى الأمام لا لمن يجذبها إلى الوراء . فاذا كان الاسلام يريد أن يعود إلى مكانته من سيادة العالم فلا سبيل إليه إلا أن ينبغ في المسلمين رجال من أصحاب الفكر والتحقيق ، يهدمون بقوة فكرهم ونظرهم وبخبرهم واكتشافهم تلك الأمسس القائم عليها صرح الحضارة الغربية . ثم يمارسون مشاهدة الآثار والفحص عن الحقائق على هدى الأسلوب القرآني للفكر والنظر ، ويبينون بذلك نظاماً للفلسفة جديداً منتزعا من الفكر الاسلامي الخالص ، ويرفعون قواعد علوم طبيعية (Natural Science) جديدة تنهض عمارتها على الخطوط المرسومة في القرآن الكريم ، ويبطلون النظرية الحادية لإبطالاً ، ويؤسسون الفكر والتحقيق على النظرية الالهية ، ثم يتقدمون بهذه الحركة - حركة الفكر والتحقيق الجديد - بقوة وعزيمة تضمنان السيطرة على جميع العالم ، وتقوم في الدنيا حضارة الاسلام الحققة مكان حضارة الغرب المادية .



كل ما قلناه آنفاً نستطيع أن نفهم مغزاه ومقصوده بالتمثيل
الآتي : إن هذه الدنيا قطار تسيره قاطرة الفكر والتحقيق . ومقاليد
هذه القاطرة بأيدي المفكرين والمحققين والنوابغ . والقطار جار
لا محالة إلى حيث يريد ساقته أن يجري . والسفر الراكبون فيه
مضطرون بطبيعة حالهم أن يسيروا معه كيف سار ، سواء رضوا أو
سخطوا . فإذا كان من ركب القطار من لا يريد أن يسافر في الجهة التي
هو سائر فيها ، فقصاراه أن يغير وجهة مقعده من القدام إلى الخلف أو
إلى اليمين أو اليسار ، على حين القطار يجري وهو بعد قار في موضعه
فيه . ولكنه لا شك ليس بمغير وجهة سفره بتغيير وجهة مقعده على هذا
النحو . لأنه ما هناك من سبيل إلى تبديل وجهة السفر إلا أن يُسْطَى
على مقاليد القاطرة ويدار وجهها نحو الجهة المطلوبة . فالذين هم قابضون
الآن على أزمة هذا الجهاز المحرك هم كلهم معرضون عن الله أجنب عن الفكر
الاسلامي . لذلك لا يزال القطار يسير بمن فيه إلى المادية والإباحية والالحاد ،
وجميع الراكبين فيه يزدادون بعداً عن غاية الاسلام ومقصوده . فإن أريد
تبديل هذا الاتجاه المنحرف وتصحيح الجهة الخاطئة التي يسعى إليها قطار
الانسانية فلا بد من رجال أولي همة وعزيمة صادقة ينهضون من صفوف
أهل الايمان ويمارسون العمل الجدي والسعي الدؤوب والاجتهاد
المتواصل ، حتى ينتزعوا مقاليد الأمور من أيدي الملحدين ومن البديهي
أنه ما لم يتحقق ذلك وما دامت الحال على ما هي عليه ، فلا شك أن القطار
لن يزال يسير في هذا الطريق الخاطيء الذي يسوقه اليه أصحابه اللاربايون
مهما كان من ضجر الركاب منه وغضبهم له واحتجاجهم عليه !

انحطاط حضارة الإسلام في الهند

إن الجانب الأكبر من دنيا الإسلام يشتمل على الممالك التي فتحت على أيدي المسلمين المجاهدين من الصدر الأول لتاريخنا. والذين افتتحوها لم يكونوا خرجوا من بيوتهم لفتح الأسواق ولا لجلب الغنائم . وإنما خرجوا في الأرض يرفعون كلمة الله في أنحائها ويطلبون الموت في هذا السبيل . كان القوم أشربوا في قلوبهم حب الآخرة قبل طلب الدنيا ، فلم يجتزئوا بأن يجعلوا مفتوحهم مطيعين لهم يعطونهم الجزية عن يد وهم صاغرون ، بل صبغهم بصبغة الإسلام ، واجتذبوا رعاياهم كلهم أو السواد الأعظم منهم إلى الملة الحنيفية السمحة ، وأثبتوا فيهم الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية إثباتاً جعلهم أنفسهم حاملين لمشعل الإسلام ومعلمين لأمومه ومعارفه . وهذه الممالك تتبعها في التاريخ ممالك أخرى، وإن فتحت في عهد متأخر عن ذلك الصدر الأول ، في عهد كان الحماس الإسلامي قد فتر فيه واسترخى وغلب في قلوب الفاتحين طلب الغنائم والفتوح على روح الجهاد في سبيل الله ، إلا أن الإسلام تمكن - برغم ذلك - من أن يتأصل في تلك البلاد وينمو وينتشر ، وأن ينزل فيها على مر الأيام منزلة الدين القومي والثقافة القومية . أما القطر الهندي فمن سوء نصيبه أن أمره يختلف عن كلا هذين النوعين من الأقطار .

فهذا القطر فتح جانب قليل جداً منه في الصدر الأول . وهذا الجانب القليل أيضاً ابتلي بتيار الباطنية الذي اجترّف كل ما كان فيه من آثار التعليم الاسلامي والحضارة الاسلامية . ولما ابتدأت بعد ذلك سلسلة فتوح المسلمين في الهند ، لم يكن الفاتحون على شيء من خصائص الفاتحين الأول . بل استعمل هؤلاء كل ما أوتوا من القوى في توسيع مملكتهم بدل إشاعة الاسلام . وطالبوا الناس بإطاعتهم أنفسهم بدل إطاعة الله والرسول ، وبأن يؤدوا اليهم الخراج بدل أن يعتنقوا الاسلام . فكان من نتيجة ذلك أن بقي السواد الأعظم من أهالي الهند غير مسلم على رغم حكم المسلمين فيها قروناً متعددة ، ولم تتمكن الحضارة الاسلامية من أن ترسخ في أرض الهند أبداً . ثم ان الذين أسلموا من أبناءها لم يمن أحد بأن يعمدهم بالتعليم والتربية الاسلامية . فما زالت الافكار والتقاليد الهندكية^(١) القديمة باقية - في قليل أو كثير - في الجماهير الحديثة العهد في الاسلام ، وأصبح المسلمون القديمو الاسلام - الطارئون من الخارج - أنفسهم يتساحون فيما يرون من حولهم من طرائق الشرك ، ويتبعون كثيراً من تقاليد الجاهلية ، بفضل مخالطتهم لأهل الهند .

ويتضح من النظر في تاريخ الهند الاسلامية وفي أحوالها الحاضرة أن الزمان الذي كانت سلطة المسلمين السياسية فيه قد امتدت على الهند بكل قوتها كانت آثار الاسلام ضعيفة فائرة فيها حتى في ذلك الحين ، ولم تكن البيئة في هذه البلاد بيئة إسلامية خالصة . وان الديانة والحضارة

(١) نسبة الى هنديك ج هنادك ، رجل من غير المسلمين الهنديين . أما الهندي فكلية جامعة تطلق على المسلم وغير المسلم من أهل الهند .

الهندكية وإن كانت بذاتها ضعيفة وقد زاد في ضعفها كونها ديانة أمة مغلوقة ، إلا أنها على رغم ذلك كله بقيت مستوية على السواد الأعظم من أهالي القطر لغفلة الحاكمين المسلمين . وأنه بسبب امتيلائها على جو القطر الهندي وبسبب كون التعليم والتربية الإسلامية غير كاملة بين المسلمين أنفسهم لم يتسن لمعظم مسلمي الهند أن يكونوا أصحاب عقيدتهم كاملين في إسلامهم راسخين في ثقافتهم وتهذيبهم ، كما عساهم أن يكونوا لو أنهم عاشوا وسطاً إسلامياً خالصاً .

وفي القرن الثامن عشر انتزعت من أيدي المسلمين حتى تلك السلطة السياسية التي كانت أكبر عماد للحضارة الإسلامية في الهند . فكان - أولاً - أن تفرقت حكومة المسلمين وانقسمت إلى ولايات صغيرة . وتبع ذلك ميل جارف من المراهة^(١) والسبغ^(٢) والانكليز ، أتى على أكثر تلك الولايات الصغيرة واحدة بعد أخرى . وشاء القدر بعد ذلك أن تنتقل أزمة الحكم والأمر في هذه البلاد إلى أيدي الانكليز . فلم يمض على ذلك قرن واحد حتى أصبح المسلمون محكومين في الأرض التي كانوا يحكمونها وسادوا على طول القرون . وبقدر ما امتد الحكم الانكليزي واتسعت سلطته ، غدا ينزع من أيدي المسلمين بقدر ذلك تلك القوى التي كانت الحضارة الإسلامية قائمة بفضلها في الهند . فاتخذ

(١) المراهة (Marhattas) قوم من الهنالك الفاطنيين في جنوبي الهند اشتبهوا بميلانهم إلى الفتن والحروب .

(٢) السبغ (Sikks) قوم من غير المسلمين الفاطنيين في البنجاب ، عرفوا بسذاجة الطبع وقوة الأبدان .

اللغة الانكليزية هي أداة التعليم بدل اللغة الفارسية أو العربية ، ونسخ القوانين الاسلامية وألغى المحاكم الشرعية ، وأنفذ في الشؤون المدنية والجنائية قوانينه الوضعية ، وحصر تنفيذ القانون الإسلامي في شؤون الزواج والطلاق وحدها بين المسلمين أنفسهم . ثم جعل أمر هذا التنفيذ المحدود أيضاً بيد المحاكم المدنية العامة بدل القضاة المسلمين ، وحكم تلك المحاكم من غير المسلمين في الأغلب ، يسخون القوانين الاسلامية الشخصية (Mohammadan Law) مسخاً مع الأيام . زد على ذلك ان كان من خطة الحكم الانكليزي من أول يومه أن تشد الوطأة على المسلمين في حقل المعيشة والاقتصاد ليكثر بذلك فخارهم القومي الذي مازال ينمو فيهم من حيث أنهم أمة حاكمة . وتأدي الأمر بفضل هذه الخطة المدبرة إلى أن تركت الأمة المسلمة في الهند فيما شاء لها حاكمها من إفلاس وجهالة وتحلف فكر وفساد أخلاق ومهانة !

وكانت الضربة القاضية على هذه الأمة المتساقطة ما أصابها أبان ثورة ١٨٥٧ م ، فذلك لم يسلب المسلمين قوتهم السياسية وحدها ، بل أضعف فيهم الهمم وأدخل على نفوسهم اليأس وشعور الذلة والهوان ، وأوقع في قلوبهم من الروعة والفرع للسلطة الانكليزية ما لم تبق معه إثارة من الغيرة القومية فيهم . ولما وصلوا إلى هذا القرار من الذل والمسكنة اضطروا إلى الاعتقاد بأن السلامة في هذه الدنيا هي في إطاعة الانكليز ، وان العزة في خدمة الانكليز ، وان التقدم والرفق في تقليد الانكليز ، وان ما عندهم أنفسهم من ثروة العلم والحضارة هو كله مهين ، موجب للخزي والعار ومسبب للنكبة .

ولما هب القوم في النصف الآخر من القرن التاسع عشر وهموا
بالنهوض من كبوتهم وجدوا أنفسهم في نوعين اثنين من الضعف :
أولهما أنهم لم يكونوا — مذ أسلموا — راسخين في العقيدة
والثقافة الإسلامية من ناحيتي الفكر والعمل وكان يحيط بهم فوق
ذلك وسط غير إسلامي بأفكاره الجاهلية وتمدنه الجاهلي . والآخر
أن العبودية قد استولت لا على أجسامهم وحدها بل على قلوبهم
وأرواحهم أيضاً وأنهم قد سلبوا جميع القوى والمقدرات التي تستطيع
بها الأمم أن تحافظ على تمدنها وحضارتها .

فلما فتح المسلمون أعينهم في هذه الحالة من الضعف المضاعف
رأوا أن الحكم الانكليزي قد أقفل بدهائه أبواب المعيشة
والاقتصاد كلها ووضع مقاليدها في المدارس والكلية الانكليزية .
فلم يبق بأيديهم إلا أن يعنوا بتحصيل التعليم الانكليزي . وقامت
لأجل ذلك حركة جبارة تحت زعامة السير سيد أحمد خان ،
بمشت في نفوس مسلمي الهند كلها الشعور القوي لضرورة التعليم
الانكليزي . وخالف هذه الحركة فريق من المسلمين النازعين إلى
القديم ، ولكن مخالفتهم لم تفعل شيئاً ، والذين كانت بيدهم القوة
الحقيقية باعتبار الثروة والعز والنفوذ أيدوا جميعاً هذه الحركة
الجديدة ، وأقبل المسلمون على التعليم الانكليزي بسرعة مذهشة ،
وكان من نتيجة ذلك أن النخالة من أبناء الأمة تركت للمدارس
الدينية القديمة ، حتى يكون منها أئمة المساجد ومعلمو الكتاتيب ،
وأما المدن الخالص من الاولاد الاذكياء للطبقات المترفة فبمثموا

إلى المدارس والكلية الانكليزية لكي تنقش في ألواح قلوبهم
وأذهانهم الصافية نقوش العلوم والفنون الافرنجية .

كان ذلك في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وكان
المظهر الاوربي إذ ذاك أن كانت المادية قد بلغت هناك أوج كمالها ،
وكانت العلوم التجريبية (Science) قد تم لها الانتصار على الدين
(Religion) ، وكانت النظريات القديمة في السياسة والاجتماع
والاخلاق والاقتصاد قد بطلت وقامت مقامها النظريات الجديدة
تحت إشراف الفلسفة والعلوم الحديثة . وتولدت في أوروبا حضارة
خاصة نهض بنيانها كاملاً على تلك النظريات الجديدة . وهذا
الانقلاب العظيم وإن كان قد طرد الدين وطرد المبادئ المبنية على
هدايته عن شؤون الحياة العملية طرداً كاملاً ، إلا أن العقيدة
الدينية قد كانت لها مقام في دنيا الفكر والشعور إلى العهد
القريب ، ولكن قامت الآن حرب في وجهها أيضاً . وإن العلوم
التجريبية وإن لم يأت أي علم منها ببرهان — يمكن أن يدعى
برهاناً — في نقض النظرية الإلهية لهذا الكون ، إلا أن أصحاب
تلك العلوم غدوا مستنفرين من تصور الوجود الالهي وأعداء
للنظرية الإلهية ، وذلك بغير برهان أو حجة علمية ، وإنما صدروا
في ذلك عن طبيعتهم ومزاجهم فحسب . ولأنهم هم الذين كانوا
يقفون موقف الزعامة العقلية والعلمية في العالم شاع بتأثيرهم مرض
النفرة من الإله (Theophobic) كالمدوى المنتشرة . فأوكل
الوجود الإلهي واعتقاد هذا الكون شيئاً وجد من تلقائه ويجري

بنفسه تحت القوانين الطبيعية ، واعتبار عبادة الله نوعاً من التوهم (Superstition) والحكم على الدين بأنه شيء عبث ، وعلى النظرية الدينية بأنها عبارة عن ضيق النظر وظلمة الفكر ، وظن المذهب المادي (Naturalism) شيئاً مرادفاً للتنور العقلي، كان كل ذلك قد أصبح طبيعة العصر ومقتضى التجدد . وكل رجل وإن لم يؤت نصيباً من الفلسفة والعلوم ولم يجتهد شيئاً في تحقيق هذه المسائل بنفسه ، كان يبدى هذه الافكار ويتحمس لها لكي يمد في المجتمع من أصحاب الفكر النير . وكان التفوه بشيء في حماية الروحانية (Spiritualism) أو فوق الطبيعة (Super Naturalism) من باب الكفر . ولو أنه يبدى مثل هذا الرأي عالم من علماء الطبيعة والكيمياء مهما علت منزلته ، كان يفقد اعتباره في الدوائر العلمية السانتيفيكية وتجبط أعماله ومآثره جميعاً ، ولا يعود جديراً بأن يقبل عضواً في هيئة علمية .

وفي سنة ١٨٥٩ نشر كتاب أصل الأنواع (The Origin of Species) لدارون . وهذا الكتاب هياً الخطب الجزل اللبيب للمذهب المادي والاحاد المستعز . وإن الحجج التي ساقها دارون لاثبات نظريته المخصوصة للارتقاء وإن كانت ضعيفة ومفتقرة إلى الثبوت ، وكانت سلسلة الارتقاء التي قدمها دارون بكل حماس وجزم لا تفتقد حلقة واحدة ، بل حلقات متعددة من قبل ومن بعد كل حلقة موجودة وإن أهل البصيرة والفكر لم تطمئن نفوسهم على هذه النظرية عندما عرضت ، حتى لم يؤمن بها حينئذ أكبر الدعاة إليها

وهو هكسلي (Huxley) ، إلا أنه قبل الناس هذا التعليم الدارويني لنفرتهم من الله ونشروه في مشارق الأرض ومغاربها واستخدموه كسلاح فتاك في محاربة الدين ، لأن هذه النظرية - على حد زعمهم - قد هيأت البرهان لدعوام - والحق أنها إنما قدمت دعوى تحتاج إلى برهان - إن نظام هذا الكون جار من تلقاء نفسه على القوانين الطبيعية بغير قوة فوق طبيعية . وقام حماة الدين يخالفون هذه النظرية ، واستنفد أسقف اكسفورد والوزير جلادستون كل ما يمكن من البلاغة واللسن في الرد عليها ، ولكنهما انهزما ، وفي آخر الأمر ارتاع حماة الدين لهذا الإلحاد الساتيفيكي إلى حد أنه حينما توفي دارون سنة ١٨٨٢ م ، كرمته الكنيسة الانكليزية (Church of England) بأعز ما عندها من تكريم ، وذلك أنها أذنت بدفنه في عمارة ويست منستر (West Minster Abbey) والحال أنه كان زعيم الطبقة التي حفرت الدين القبر في أوربا وكان له النصيب الأوفى في توجيه الأفكار إلى الإلحاد والزندقة واللا دينية في خلق العقيدة التي نشأت في جوها بالشفية والفاشية بعد حين.



هذا هو الأوان الذي بُعث فيه الصبية والشبان من أمتنا إلى المدارس والكلليات الانكليزية للارتواء من التعليم الانكليزي والثقافة الانكليزية. قوم أجانب عن التعليم الإسلامي ضعفاء من الثقافة الإسلامية ، مرتاعون للحكم الانكليزي ، متهافتون على بريق الحضارة الافرنجية ، لما دخلوا المدارس الانكليزية كان أول ما انطبوعوا به أن تقلبت

عقليتهم وانحرفت ميوههم ومنازعتهم من الدين ، لأنه كان من أول
مؤثرات ذلك الجو المدرسي فيهم أن يقولوا آمنا ، لكل ما يعرض
عليهم باسم كاتب أو محقق من أوربا ، وأن يطالبوا بالحجة والدليل
لكل ما يعرض عليهم من القرآن الكريم أو الحديث النبوي أو
من آثار أئمة الدين . وإن العلوم الغربية التي تعلمها شباننا في
المدارس والكليات بتلك العقلية المنقلبة كانت أصولها وفروعها في
الأغلب مخالفة لأصول الأحكام الإسلامية وجزئياتها . ومن الأمثلة
لذلك أن تصور الدين في الإسلام هو أنه قانون للحياة الإنسانية ،
وتصور الدين في الغرب هو أنه عقيدة شخصية وكفى ، لا علاقة
لها في شيء بالحياة الإنسانية العملية . وإن الإسلام أول مقتضياته
الإيمان بالله ولكن ليس الوجود الإلهي في الغرب بشيء ثابت محقق .
وإن الإسلام يقوم بنظام حضارته كله على الإيمان بالرسالة والوحي ،
وأن الوحي هناك شيء مرتاب فيه وكون الرسالة والنبوة من جانب
الله أمر محفوف بالشبهات . وإن الإيمان باليوم الآخر حجر أساسي
لنظام الأخلاق بكامله ، وهذا الحجر الأساسي شيء لا أساس له في
الغرب . وإن العبادات والأعمال التي هي في الإسلام فرائض وواجبات
تعد عند الغربيين من تقاليد العصور المظلمة الجاهلة ، مما لا فائدة
منه في هذه الآونة . كذلك إن مبادئ الحضارة والتمدن في
الإسلام مختلفة تماماً عن مبادئ الحضارة والتمدن الغربيين . فأصل
الأصول والمبدأ الرئيسي في الإسلام في باب القانون أن الله تعالى
هو نفسه واضع القانون ، وأن رسول الله ﷺ - شارح القانون

ومبينه ، وأن الانسان متبع القانون ، ولكنهم في الغرب لا يعرفون
الله حقاً في وضع القانون ، بل واصل القانون هناك هو المجلس
التشريعي ، وان الامة ناخبة لذلك المجلس . وفي باب السياسة يطمح
الاسلام إلى الحكومة الاسلامية وهدف الغرب في ذلك هو الحكومة
القومية . واتجاه الاسلام إلى الدولية (Internationalism) وقبله
الغرب هي القومية (Nationalism) . وفي النظام الاقتصادي
يحمض الاسلام على أكل الحلال والصدقة والزكاة ويحرم الربا بكل
شدة ، ونظام الاقتصاد في الغرب قائم في صميمه على الربا والربح .
وفي باب الاخلاق ينظر الاسلام إلى الفلاح الاخروي وينظر الغرب
إلى الربح المادي في هذه العاجلة . وفي الشؤون الاجتماعية أيضاً
تختلف طريقة الاسلام عن طريقة الغرب في كل أمر تقريباً .
فالستر والحجاب وحدود أعمال المرأة والرجل ، وتعدد الأزواج
وقوانين الطلاق والزواج وتحديد النسل وحقوق ذوي الارحام
وحقوق الزوجين وما شاكلها من الشؤون الاخرى المتعددة هي من
الامور التي يبلغ فيها اختلاف وجهتي نظر الاسلام والغرب من الجلاء
والوضوح بحيث لا حاجة إلى ذكره . ومرد هذا الاختلاف إلى أن
مبادئها مختلفة ومتناقضة .

إن شبيبتنا لما اكتسبوا هذا التعليم الغربي بتلك العقلية المرعوبة
بل المغلوبة ، وبذلك التعليم والتربية غير الاسلامية ونشأوا في
بيئة الحضارة الغربية ، كان من نتيجة ذلك ما يتقاضاه منطق
الاشياء وهو أنهم افتقدوا قوة النقد والتمييز ، واعتبروا كل

ما تعلموه من الغرب مقياس الصحة والصواب ، ثم راحوا
ينتقدون الاسلام بهذا المقياس مع علمهم الناقص ونظرهم الملون .
فكل ما وجدوا فيه اختلافاً بين الاسلام والغرب لم يشعروا بخطأ
الغرب فيه ، بل اعتبروا الاسلام هو على الخطأ في بابه ،
وأقبلوا على مبادئه وقوانينه يحرفونها عن وجهها ويستبدلون بها
مبادئ أخرى .



وإن من الحق الذي لا مرية فيه أنه مهما كان من الفائدة
التي نالت مسلمي الهند من التعليم الجديد ، من ناحيتي السياسة
والاقتصاد ، فإن الخسارة التي قد جرّها هذا التعليم على دينهم وحضارتهم
لا يمكن أن تتلافى بأية منفعة أو فائدة !

الأمم المريضة في العصر الحديث

سواء هذا الشرق أو الغرب ، وهذه الأمة المسلمة أو غيرها من الأمم ، فقد حلت بها جميعاً نكبة واحدة ، هي أنه قد استولت عليها حضارة نشأت في أحضان المادية الخالصة . هذه الحضارة قد أسست حكمتها النظرية والعملية على قواعد خاطئة . وقد جرت فلسفتها وعلومها وأخلاقها واقتصادها واجتماعها وسياساتها وقانونها وبالجملة كل ما يتصل بها ، قد جرى كل ذلك من نقطة انطلاق منحرفة وبقي يخطو ويرتقي في وجهة غير صحيحة ، حتى انتهى إلى مرحلة ترى منها نهاية هذه الحضارة - وهي الهلاك - قريباً .

هذه الحضارة انبعثت في أمة لم تكن تملك في الحقيقة نبماً صافياً طيباً من الحكمة الإلهية . ولا شك أنه قد كان بينها زعماء دينيون، ولكنه لم تكن ييدهم الحكمة . ولا كان عندهم العلم، ولا القانون الإلهي . أقصى ما كانوا يملكون هو نظرية دينية مخطئة لم تكن لترشد النوع البشري إلى السبيل السوي من سبيل الفكر والعمل، مهما شاء أصحابها أن تفعل . كل ما كان لهذه النظرية أن تفعل هو أن تحول دون رقي العلم والحكمة ، ففعلت . وكان من نتيجة

هذه الحيلولة والمنع أن تار على الدين من كانوا يريدون الرقي ،
فنجوه من طريقهم ومضوا في سبيل آخر لم يكن دليلهم فيه
إلا المشاهدة والتجربة والقياس والاستقراء . وغدت هذه الدلائل
المرشدة التي هي بنفسها تفتقر إلى الهدى والنور عمدهم وسندهم في
كل أمر . وفي ضوءها اجتهد القوم كثيراً في ميادين الفكر والنظر
والبحت والاكتشاف والتعمير والنظم ، ولكنهم انطلقوا من نقطة
خاطئة في كل ميدان ، واتجه رقيهم كله إلى هدف غير صحيح .
لأنهم انطلقوا من نقطة الإلحاد والمادية فرأوا هذا الكون من حيث
أنه لا خالق له ولا إله ونظروا إلى الأنفس والآفاق زاعمين أن
الحقيقة كلها منحصرة فيما يحسه المرء أو يشاهده ، وأنه لا شيء
من وراء هذا الظاهر المرئي . ودرسوا قانون الفطرة وفهموه بوسائل
التجربة والقياس ، ولكنهم لم يتمكنوا من أن يصلوا من هذا
الطريق إلى واضع ذلك القانون . ووجدوا الموجودات مسخرة
لهم فراحوا يستخدمونها ، ولكنه لم يقع في أذهانهم أنهم ليسوا
مالكين لتلك الأشياء ولا حاكمين عليها ، بل هم خلفاء عليها
للهالك الحقيقي . هذه الغفلة والجهل جردتهم من التصور الأساسي
للمسؤولية وترتب على ذلك أن اعوج أساس حضارتهم وعمدتهم ومال
عن الاستقامة . فأمسوا يعبدون ذواتهم بدل الذات الإلهية .
وأوقعتهم الذاتية والأنانية في الفتنة بما حلت منهم محل الإله . وما هو
إلا عبادتهم لهذا الإله الكاذب — الذاتية — ما يسوقهم الآن في
كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرق لاشك أن منازلها

الوسطية رائقة تسر النظر ولكن منزلها النهائي ليس إلا التردّي
والهلاك . فهذه العبادة للذاتية هي التي قد اتخذت العلوم التجريبية
(Science) آلة لتدمير الانسان ، وصبت الأخلاق في قوالب
الأثرة والرياء والخلاعة والمجون ، وسلطت على الاقتصاد شياطين
الاستبداد والظلم والحرمان . ونفثت في نواحي الاجتماع كلها سموم
الأثرة وحب الترف ، وأفسدت السياسة بفساد القومية الضيقة
والوطنية ومفارقات اللون والجنس ، وعبادة آلهة القوة والسلطة ،
فجعلتها آفة شقاء الانسان . وجملة القول أن هذه البذرة الخبيثة التي
بذرت ابان النهضة الجديدة في الغرب وقد انشقت عن شجرة باسقة
خبيثة للحضارة والتمدن ، أكلها لذيد ولكنه مسموم ، وزهرها
جميل ولكنه سائك ، وأغصانها بهيجة ولكنها تنفث سما غير مرثي
ولا يزال يسمم دم النوع البشري في الداخل .

وهذه الشجرة الخبيثة قد أخذ يتأفف منها الآن أهل الغرب
أنفسهم الذين كانوا غرسوها بأيديهم لأنها قد خلقت في كل شعبة
من شعب الحياة مشاكل وعقد ، تنتهي كل محاولة لحلها إلى عقد كثيرة
أخرى . فكلما جزوا منها فرعاً نبتت مكانها فروع كثيرة سائكة .
قلم القوم شأفة الرأسالية فنشأت مكانها الشيوعية . وقضوا على
الديمقراطية فنجمت مكانها الفاشية . وحاولوا حل المشاكل الاجتماعية
فظهرت الحركات النسوية المتطرفة (Feminism) وحركة تحديد
النسل . وسعوا وراء استخدام القوانين لمعالجة المفاسد الخلقية
فنتجت — كرد الفعل — نزعة الخروج على القوانين والاحتراف

بالجرائم . موجز القول أن هناك سلسلة من الفساد لا تنتهي قد أصبحت تخرج من شجرة الحضارة والتمدن هذه ، وقد جعلت الحياة الغربية جرحاً دامياً من المصائب والآلام، يحس في كل موضع منها وفي كل عرق من عروقها وجع الأذى . وإن الأمم الغربية قد عيل صبرها على هذا المذاب ، فقلوبها مضطربة وأرواحها تواقه إلى عصير يشفيهم من آلامها . ولكنها لا تدري أين هذا العصير الذي قد تتطلبه . ولا تزال الأكثرية منها تظن خطأ أن منبع كل تلك المفسد والآلام هو في فروع تلك الشجرة الخبيثة ، فلا يزالون يضيعون أوقاتهم ومسااعيتهم في تشذيب الفروع ، ولكنهم لا يدركون أن الفساد كله في أصلها وجذورها ، وأن الأمل في نشأة فرع صالح من أصل فاسد حماقة وجنون ، وهناك بجانب آخر فئة قليلة من أصحاب العقول قد أدركوا أن الأصل من شجرة حضارتهم هو الفاسد ، ولكنهم لما نشأوا في ظلال هذه الشجرة وتفذت أجسامهم بثمارها يكادون لا يفهمون أي شيء يستبدلونه بهذا الأصل الفاسد ، وأن الأصل الصالح هو الذي تتفرع منه أغصان وأوراق صالحة ، وعلى هذا كله تستوي حال الفئتين . فكل أولئك يتطلبون شيئاً يشفي آلامهم ولكنهم لا يعلمون ما هو الشيء المطلوب وأين يوجد ؟

وهذا هو الأوان الذي يجب أن يعرض على أمم الغرب كتاب الله وسنة النبي ﷺ ، ويبين لهم أن هذا هو المطلوب الذي تتوق إليه أرواحكم وتضطرب للبحث عنه ، وهذا هو العصير الشافي الذي

أنتم متمعلشون اليه ، وهذه هي الشجرة الطيبة التي نبتت من أصل صالح وتفرعت إلى أغصان غضة ، والتي زهرها طيب الرائحة عادم الشوك ، والتي ثمرها حلو يلذ ويفذي الجسم ، والتي هواؤها نظيف ومنشط للروح أيضاً . فستجدون الحكمة . وستجدون نقطة انطلاق صحيحة للفكر والنظر . وستجدون العلم الذي يشكل السلوك الإنساني على أحسن طراز . وستجدون الروحانية التي هي مصدر الطمأنينة القلبية والهدوء ، لا للرهبان وتاركي الدنيا ، بل للذين يعملون ويجهدون في مزدحم الحياة الدنيوية . وستجدون هنا تلك الضابطة للأخلاق والقانون ، التي بنيت على العلم الكامل الشامل للفطرة الانسانية ، فلم تكن لتتبدل تبعاً لأهواء النفس الانسانية . وستجدون المبادئ الصحيحة للحضارة والتمدن ، المبادئ التي تمحو الامتيازات الكاذبة بين الطبقات وتبطل الفروق المزيفة بين الأمم ، وتنظم الجمع الانساني على أسس عقلية خالصة ، وتخلق جواً آمناً صالحاً للعدل والمساواة والسماحة وحسن المعاملة ، لا يبقى فيه مجال لأن ينشأ بين الأفراد والطبقات والفرق الانسانية تنازع للحقوق أو اصطدام المصالح أو تحارب لأجل الأغراض والأهداف ، بل يتأتى للجميع أن يعملوا لأجل الفلاح الشخصي والجماعي بالرضى والطمأنينة متعاونين متعاقدين فيما بينهم ، فإن كنتم تريدون أن تقوا أنفسكم الهلاك فمليكم أن تحطموا حضارتكم بضربة من الدهر فتضاف حضارة ميتة أخرى إلى حضارات التاريخ البائدة الكثيرة ، عليكم أن تطهروا قلوبكم من تلك المصيبات — ضد الاسلام — التي

ورثتموها من المغالين الدينين في القرون المتوسطة والتي لم تهجروها
بعد على كونكم هجرتهم كل ما يمت إلى تلك العصور المظلمة بسبب ، ثم
ترجعوا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ،
فاستمعوا لها وافهموها بقلوب واعية ، فاقبلوها .

هذا بالنسبة إلى أمم الغرب . وأما الأمم المسلمة فتختلف حالها
عن حال الأمم الغربية فالمرض عندها غير المرض ، وأسباب
المرض أيضاً مختلفة ، إلا أن علاج مرضها هو العلاج الموصوف
لأمم الغرب . وذلك هو الرجوع إلى ذلك المعلم وتلك الهداية التي
قد أنزلها الله تعالى بصورة كتابه الأخير على خاتم الأنبياء والمرسلين
سيدنا محمد ﷺ .

إن الظروف التي احتك فيها الاسلام بالحضارة الغربية تختلف
تماماً عن الظروف التي احتك فيها بالحضارات الأخرى قبل ذلك .
فالحضارات الرومية والفارسية والهندية والصينية صدمت الاسلام في
وقت كان هذا الدين مسيطراً بكل معنى الكلمة على القوى الفكرية
والعملية في متبعيه . وكانت روح الجهاد والاجتهاد قوية فيهم . وكانوا
أمة غالبة في العالم من الجهتين الروحية والمادية ، يحلون بين أمم
العالم محل الصدارة والزعامة لذلك لم يكن لحضارة من تلك الحضارات
أن تدافعهم وتثبت أمامهم . فحينما ذهبوا أحدثوا انقلاباً في أفكار
الأمم ونظرياتهم وعلومهم وأخلاقهم وعاداتهم وأسلوب تمدنهم . وكانوا
أحرى بالتأثير في غيرهم من أن يتأثروا بهم ، ولا شك أنهم
اتخذوا أشياء كثيرة من غيرهم ، ولكن كان مزاج حضارتهم قوياً

محكماً إلى درجة أنه كلما دخل فيها من الخارج ذاب في قلبها ،
ولم يحدث بذلك فيها سوء مزاج مختلط ، وبالعكس من ذلك ،
جاءت الآثار التي تركها هؤلاء في غيرهم سبباً للانقلاب وتغير
الأحوال . فمن الحضارات غير المسلمة ما انحلت في الاسلام حتى
انفقدت فرديتها تماماً . وأما الأخرى التي كانت أقوى على الحياة
فتأثرت بالاسلام إلى درجة أنه طرأ على مبادئها كثير من التغير .
على أنه حدث هذا كله في زمان كانت الأمة فيه في أوج الشباب .
فالروح فتية والعَـضَل قوية والهمم تناطح السحاب !

وحدث بعد ذلك أن المسلمين لطول ممارستهم للحكم بالقلم والسيف
غلبهم التعب والكلام . فخدمت فيهم روح الجهاد وضمفت قوة
الاجتهاد . فجعلوا كتاب الله الذي منحهم نور العلم وقوة العمل
تذكراً مقدساً غلفوه ووضعوه في المحاريب وتركوا اتباع السنة
النبوية ، التي شكلت حضارتهم في صورة نظام مكتمل للفكر
والعمل . فكانت النتيجة أن توقف سير رقيهم، وتحول ذلك النهر
الذي بقي جارياً منهمراً على طول القرون إلى مستنقع ساكن في
وادي الجمود . فانفزل المسلمون عن منصب الإمامة في العالم وضعف
ما كان لأفكارهم وعلومهم وتمدينهم وغلبتهم السياسية من سلطان
على أمم العالم . ونشأت إزاء الاسلام حضارة أخرى وتقدمت في
موكبها أمم الغرب لتأخذ راية الجهاد والاجتهاد التي طرحها
المسلمون . فأما المسلمون بعد ذلك فغلبهم النعاس فباتوا لا يتحركون.
وأما الأمم الغربية فظلت تسير وتتقدم في مضمار العلم والعمل حاملة

بيدها تلكم الراية ، حتى تبوأ منصب الإمامة الذي نزل عنه هؤلاء ، ففتحت بسيفها الجانب الأكبر من هذه الدنيا ، واستولت أفكارها ونظرياتها وعلومها وفنونها ومبادئها وحضارتها وتمدنها على العالم ، وسيطر حكمها وسيادتها لا على أجسام الناس وحدها بل على قلوبهم وأذهانهم أيضاً . حتى أنه لما تنبه المسلمون من نومهم المستمر على القرون ، رأوا أنه قد تمت الغلبة للأجانب وأصبحت البلاد تحت حكمهم وسيطرتهم ، فلآن لا علم إلا عليهم ولا حضارة إلا حضارتهم ولا قانون إلا قانونهم ولا حكومة إلا حكومتهم . ولم يبق بيد الأمة المسلمة شيء سوى الذكرى للعهود الماضية الزواهر . وهذه الذكرى أيضاً أخذت تمحى من صفحة الأذهان .

وفي أيامنا هذه أصبح الاسلام يحتك بالحضارة الغربية على طراز آخر . انه لا شك في أن الحضارة الغربية لا تستطيع أن تزاحم الاسلام بمنكبيها وتقوم أمامه كالند ، ولو أن الاحتكاك يكون بالاسلام الصحيح فلا شك أنه ما من قوة في هذه الارض تستطيع أن تقف في وجهه ، ولكن قولوا لي : أين الاسلام اليوم ؟ إن المسلمين ليست فيهم السيرة الإسلامية ولا الخلق الإسلامي ولا الفكر الاسلامي ، ولا شيء من الحماسة الاسلامية . إن الروح الاسلامية الخالصة لا توجد في مساجدهم ولا في مدارسهم ولا في زواياهم ، ولم يبق من علاقة بين الاسلام والحياة العملية ، وليس القانون الاسلامي بنافذ في حياتهم الفردية ولا في حياتهم الجماعية . وليس هناك شعبة من شعب الحضارة والتمدن يكون تدير أمرها قائماً

على الطراز الاسلامي الصحيح . في هذه الظروف ليس الاحتكاك في الحقيقة بين الاسلام والحضارة الغربية ، بل هو بين حضارة المسلمين الخاملة الجامدة المتخلفة وحضارة نابضة بالحركة والحياة ، يشرق في جنباتها ضياء العلم وتدفعها حرارة العمل . وكل ما يمكن أن يكون من نتائج هذا الاصطدام بين جانبين غير متساويين من حيث القوة والحياة فهو ظاهر للعيان ، وهو أن المسلمين لا يزالون يرجعون على أعقابهم في هذا المضمار ولا تزال حضارتهم تنهزم ، وهم يتدرجون إلى أن يذوبوا في الحضارة الغربية تماماً ويفتقدوا شخصيتهم المستقلة ، وقد غلب قلوبهم وأذهانهم النزوع إلى الغرب في كل شيء ، فلا تزال أذهانهم تنطبع بطابع الغرب ، ولا تزال قواهم الفكرية والنظرية تتمرن على حسب المبادئ الغربية ولا تزال تصوراتهم وأخلاقهم واقتصادهم واجتماعهم وسياساتهم ، لا يزال يتلون كل ذلك بلون الغرب ، ولا يزال نشوؤهم الجديد ينشأ على تصور أن القانون الحقيقي للحياة هو الذي قد نزل اليهم من الغرب ، فهذه الهزيمة هي في الحق هزيمة المسلمين ، ولكننا لسوء الحظ نعتبر خطأ هزيمة الدين الاسلامي نفسه .

فليس هناك قطر واحد بعينه قد أصابته هذه النكبة ولا هناك أمة واحدة قد أحاق بها هذا الخطر ، بل إن العالم الاسلامي كله يمر اليوم بمرحلة هذا الانقلاب الرهيب . إنه كان من واجب العلماء في الحقيقة أن يتنبهوا وينبهوا حينما ابتدأ هذا الانقلاب ، فكان عليهم أن يتفهموا مبادئ الحضارة الطارئة وينفروا إلى أقطار الغرب ليتفقهوا في العلوم

التي نهضت على أساسها هذه الحضارة ، كما كان عليهم أن يستعملوا قوة
 فكرهم واجتهادهم فيأخذوا من الغرب تلك الاكتشافات العلمية
 والمناهج العملية التي تقدمت بفضلها الأمم الغربية في سبيل الرقي ،
 ويركبوا تلك الأجزاء الحديثة في مكان النظام التعليمي والحياة
 المدنية عند المسلمين ، ضمن مبادئ الإسلام ، بصورة تتلافى بها
 الخسارة المظيمة التي قد تنالهم من الجمود المستمر على القرون ،
 وتجعل الركب الإسلامي يتماشى مع الزمن الحديث ، ولكن الأسف
 أن كانت العلماء — اللهم إلا من عُصم — قد خلوا من روح
 الإسلام الحقيقية ، فلم تكن فيهم قوة الاجتهاد ولا التفقه في الدين
 ولا الحكمة النظرية والعملية ولا القوة للعمل ، فلم يكونوا أهلاً
 لأن يستمدوا من كتاب الله والإرشاد النبوي في ناحيتي العلم والعمل
 مبادئ الإسلام المرنة الدائمة ، فيستخدموها في الأوضاع المصرية
 المتبدلة . وإنما كان قد سرى فيهم داء التقليد الجامد الأعمى
 لاسلف ، مما كان يجعلهم يبحثون عن كل شيء في تلك الكتب
 الفقهية التي لم تكن منزلة من عند الله حتى تكون أرفع من قيود
 الزمن المتطور ، ويرجعون في كل شأن من شؤونهم إلى الأفراد
 الإنسانيين الذين لم يكونوا أنبياء الله حتى تكون بصيرتهم بالأمر
 متحررة من قيود الظروف والأوقات . وإذا كانت هذه حال
 العلماء على الأغلب فكيف كان من الممكن لهم أن يقودوا المسلمين
 قيادة مسددة في حين أن الزمان قد تغير ووقع في دنيا العلم
 والعمل من الانقلاب العظيم ما كان للعين الإلهية وحدها أن تبصره

عبر القرون ، ولم يكن لغير نبي أن يشق بصره حجب الأزمنة والقرون ليصره . ما من شك في أن العلماء بذلوا جهدهم لمقاومة الحضارة الجديدة ولكنهم كانوا لا يملكون الوسائل اللازمة لهذه المقاومة ، وذلك أن الحركة لا تحارب بالجمود ، ولا سير الزمن يمنع بقوة المنطق وحدها ، ولا يدفع السلاح الجديد الفتاك بسلاح صدى قديم . وإن المناهج البالية التي أراد العلماء أن يتخذوها لقيادة الأمة لم تكن تنجح وتفيد شيئاً في هذا الزمان . فإن الأمة التي أحاط بها طوفان الحضارة الغربية من جميع الأطراف كيف كان لها أن تنمض عينها وتعطل حواسها وتنكر وجود الطوفان وتسلم من آثاره ، وكيف كان لأمة ألقى عليها نظام الحضارة والتمدن الحديث نفوذه السياسي أن تجنب حياتها العملية من تأثيره ونفوذه ، على كونها في حال العبودية والهزيمة ، لذلك كان من عواقب ذلك ما ينبغي أن يكون : وهو أن انهزم المسلمون في حلبة العلم والحضارة والتمدن أيضاً بعد أن غلبوا في ميدان السيادة . وهانحن نرى الآن بأم أعيننا أن تيار الحضارة الغربية لا يزال يجرف في كل منطقة من مناطق العالم الإسلامي وقد انساقت فيه الأجيال الناشئة من المسلمين حتى ابتعدت عن مركزها الإسلامي أبعاداً ساحقة جداً .

ومن سوء الجدل أن العلماء المسلمين لم يشعروا بخطئهم في الأمر حتى إلى هذا اليوم ، فلا تزال جماعاتهم في كل قطر تقريباً ثابتة على مناهجهم القديمة التي خابت لاجلها مساعيهم فيما قبل ،

وما خلا الافراد القلائل لا ينفك يظهر من حال السواد الاعظم من العلماء أنهم لا يجتهدون أن يفهموا الميول المتجددة لهذا العصر والوضع الجديد للعقليات . إنهم مستعدون كل الاستعداد لان يرفعوا الزكير على كل ما يعتمد بالاجيال المسلمة الحديثة عن الاسلام ، ولكنهم لا يستطيعون أن يكافوا أنفسهم بتهيئة الترياق لذلك السم الداخل في عروق الامة . إنهم يخفقون دائماً في حل المعضلات العلمية والعملية التي قد خلقتها للمسلمين هذه الاوضاع الجديدة ، لانه لا يمكن حل تلك المسائل المعقدة بغير الاجتهاد ، والاجتهاد قد حرمه هؤلاء أنفسهم . وان الاسلوب الذي قد اختاره علماءنا اليوم لبيان تعاليم الاسلام وقوانينه إنما ينفر الطبقة المتحلية بالتعليم الجديد عن الاسلام بدل أن يجذبها اليه ، وإذا استمع المرء إلى مواظهم أو اطلع على كتاباتهم فكثيراً ما يدعو الله أن لا يكون إيقاعهم الناشز هذا قد بلغ مسامع غير مسلم أو مسلم منحرف . إنهم قد ضربوا حولهم جواً عتيقاً قد مر عليه قرن على الأقل . فهم يعيشون ذلك الجو الماضي ويفكرون فيه ويتكلمون بحسب أحواله . إنه لا يشك أحد في أنهم هم الذين قد بقيت نفائس العلوم الاسلامية سليمة من غير الحدثان بفضلهم وعنايتهم ، وأن كل ما ينشر الآن من التعليم الديني بين الجيل المسلم فهو بواسطتهم وبمجهودهم . إلا أن هذا البرزخ الهائل العريض — عرض المائتين من السنين — الذي جعلوه بينهم وبين عصرهم الحالي لا يسمح بأي صلة تقام بين الاسلام والعصر الحديث . فالذي ينحو اليوم نحو التعليم الاسلامي فهو لا يبق أهلاً لشؤون الحياة

الدينية . وأما الذي يرضى لنفسه أن يستعد لممارسة الشؤون الدينية فهو يبقى غريباً عن التعليم الاسلامي . وهذا هو السبب في أنه يوجد في كل مكان من العالم الاسلامي طبقتان اثنتان تضاد إحداها الأخرى، فالطبقة الواحدة تقوم بتدبير الشؤون العلمية والأدبية والسياسية للمسلمين ولكنها جاهلة لمبادئ الاسلام وأصوله، خالية من روح الحضارة الاسلامية غير مستأنسة لنظام الاجتماع الاسلامي والقوانين المدنية الاسلامية، وليس للايمان في قلبه إلا شعاع ضئيل جداً في ناحية بعيدة منه. وأما فيما وراء ذلك فليس بينه وبين غير المسلم فرق . ولكنه لما كان كل ما هنالك من القوة العلمية والعملية في قبضة هذه الطبقة وكانت هذه هي التي تقوى على تحريك دولاب الحياة فهي لا تزال تتقدم بالأمة إلى أودية الضلال ، وليس هناك من يهديها الصراط المستقيم .

إني أشاهد هذه الحياة وأتمثل ما قد يكون لها من عاقبة محزنة. وإني وإن لم أكن على سعة العلم وشمول الفضل والكمال الذي يستلزمه عمل الإرشاد والتوجيه، ولا كنت أملك من القوة ما أستطيع به أن أصلح هذه الأمة العظيمة في مثل هذه الظروف الفاسدة ، إلا أن الله تعالى قد أودع هذا القلب المتواضع ألماً لهذه الحال البائسة يدفعني إلى أن أستخدم ما أوتيت من قليل العلم والبصيرة فأدعو هاتين الطبقتين من المسلمين إلى الرجوع إلى المصدر الحقيقي للتعليم الاسلامي والينبوع الصافي لحضارة الإسلام، وأبذل في هذا السبيل جهدي المستطاع . إني إذا نظرت إلى عظم هذا الأمر بجانب ، وإلى قلة حيلتي وهواني بجانب آخر ، لم أر عملي هذا إلا جهد المقل. ولكن كل ما في الأمر من الفوز أو الخيبة هو بيد الله تعالى وحده، وليس علي إلا السعي والجهد وقد أردت أن أوسع نطاق هذا السعي ما استطعت !

بين الشريعة الربانية والقانون الوضعي

في أوائل شهر ديسمبر سنة ١٩٣٣ صدر الاعلان الرسمي في أميركا بإلغاء قانون التحريم (Prohibition Law) فارتد أهالي الدنيا الجديدة إلى معاقرة المدامة والكأس بعد أربعة عشر عاماً قضوها في مشقة نحرىها . كان تولي السيد روزفلت لرئاسة الجمهورية الأميركية فاتحة الاعلان باقتصار (الحُر) على (الأمر) . فأعقبته أولاً إباحة الشراب المعزج بـ ٣٠٢٪ من الكحول في أبريل من سنة ١٩٣٣ بقانون رسمي . ثم لم تمض عليه بضعة أشهر حتى ألغى التعديل الثامن عشر من مسودة الدستور الأميركي إلغاء ، وهو الذي حرم به على الناس بيع الخمر وشراؤها وصنعها وتربيتها وتصديرها واستيرادها .

كانت هذه أكبر تجربة جربها الانسان لاصلاح الأخلاق والسلوك الاجتماعي بقوة القانون وسلطة الحكم لا يوجد لها نظير في التاريخ . وذلك أنه قبل أن يدخل التعديل الثامن عشر على الدستور الأميركي أقيمت في البلاد دعاية واسعة النطاق ضد الخمر ، وبقيت الرابطة المحاربة لوجود الحانات (Anti-Saloon League)

تسمى وتجهد في ترعيب الاميركيين عن الحمر وتثبت مضارها في قلوبهم ، بالقاء الخطب وتاليف الرسائل والكتب وعرض المسرحيات وأفلام السينما . وأفتت في سبيل هذا التبليغ عشرات السنين وبذلت الأموال ، حتى قدر أن نشرات النشر والاذاعة بلغت تكاليفها من لدن بدء الحركة إلى سنة ١٩٢٥ مبلغ خمسة وستين مليون دولار ، وأنه بلغ عدد الصفحات التي سود بياضها لبيان مساوىء الحمر والزجر عنها تسعة آلاف مليون صفحة .

ذلك قبل بدء التجربة . وأما ماتحملته الأمة الاميركية في الاربعة عشر عاماً الماضية من النفقات الباهظات لاجل تنفيذ قانون التحريم فقدّر مجموعها بأربعة ملايين ونصف مليون جنيه . وتدل الاحصاءات التي أذاعها ديوان القضاء الاميركي للفترة الواقعة بين يناير من سنة ١٩٢٠ وأكتوبر من سنة ١٩٣٣ أنه قتل في سبيل تنفيذ هذا القانون مائتا نسمة ومسجن نصف مليون وغرم الجناة ما يربو على مليون ونصف مليون جنيه ، وصودر من الاملاك مايساوي أربعمائة مليون جنيه .

كل هذا النقص الهائل في الانفس والاموال كابدته أميركا لفرض واحد هو تلقين الأمة الاميركية «المتحضرة» مفاسد الحمر الجمة وتنبيهها على مضارها الروحية والصحية والاخلاقية والاقتصادية . ولكن كل هذه الجهود المتوالية التي بذلت قبل تنفيذ التحريم وبعده بتأييد من قوة الحكومة وسلطانها خابت لدى الاثمة الاميركية بازاء عزمها القوي على معاقرة الراح ، وعاد القوم

من هذا الجهاد الاصلاحى العظيم بصفقة خاسرة .

لم يكن إخفاق الحكومة الاميركية في تحريم الخمر ولا الغاؤها لقانون التحريم بعد تنفيذه راجعاً إلى أن مضار الخمر التى أعيد وأبدىء في بيانها فيما قبل واستخدمت سلطة القانون وقوة الدعاية لاستئصالها ، قد تحولت على مرور الايام إلى المنافع والبركات ، أو جاء اكتشاف علمي جديد يصحح آراء الناس في الخمر . بل الحق أن قد برهنت لهم شواهد أقوى وتجارب أوسع وأكثر مما كان منها في الغابر أن الخمر أم الخبائث ، تمت اليها بشابكة النسب القريب جميع الكبار من الزنا والبغاء واللواطه والسرقه والمقامرة والقتل . وأن لها النصيب الأكبر في تشويه أخلاق الأمم الفريية وتخريب صحة أبدانها وإفساد معاشها واجتماعها . ولكن الذي أجبر الحكومة الاميركية مع ذلك كله على استرداد القانون بعد إصداره واستحلال الخمر بعد تحريمها هو مجرد كون الأكرتية الساحقة من أهل أميركا لم ترض مفارقة الخمر ، وكون الشعب الذي كان حرم بأصواته استعمالها قبل أربعة عشر عاماً عاد هو نفسه يصر على إباحتها وإطلاق الحرية في استعمالها .

الذي نعلمه أنه لم يجحد أحد من خلق الله بمضار الخمر حتى ولا أشد حمايتها وهواتها ، ولا تقدم أحد ممن يخالف تحريمها ببيان لمحاسنها ومنافعها يقام له وزن في جنب مفسادها الكثيرة . وعندما عرض على المؤتمر الأميركي الاقتراح بادخال التعديل الثامن عشر على الدستور بتأييد قوي من الرأي العام تثبت القوم في الأمر ووازنوا

جيداً بين الحياتين ، حياة بليلة يلال الراح المباح وأخرى جافة
بجفاف الزهد والامتناع ، ولم يتفق المؤتمر على هذا التعديل إلا مراعاة
لكل تلك المضار التي في الخمر . ثم أيدته عليه ست وأربعون ولاية
من الولايات المتحدة ، وصادق على قانون التحريم التابع له كل من مجلس
النواب (Congress) ومجلس الأعيان (Senate) . وتم كل ذلك
حسب رضا الأمة الاميركية وإرادتها . وما دام أمر هذا التحريم
خبراً على القرطاس وحديثاً في الأفواه بقيت الأمة تؤيده وتحامي
عنه . ولكن العجب - وأمر الغرب كله عجب - أن لم يكدر يدخل
هذا القانون في طور التنفيذ وفي حيز العمل حتى تبدلت الأمة غير
الأمة ، فعادت - وهي أرقى أمم الأرض مدنية وأقواها سياسة
وأغزرها علماً وأرجحها عقلاً وأميلها إلى الحقيقة والواقع - عادت
لا تطيق الصبر عن أم الخبائث هذه ، وما باتت ليلة واحدة بدونها
حتى جن جنونها وطار حواسها ، وأخذت تأتي من الأفعال ما ينجيل
إلى الناظر أنها توشك أن تشدخ رأسها بفهر أو صخرة كفعل العاشق
المجنون في غراميات الشرق .

فلم تكدر تغلق الحانات القانونية العلنية في البلاد بجانب حتى انفتحت
فيها بجانب آخر آلاف مؤلفة من الحانات السرية (Speak-easies)
و (Blind Pigs) التي يمتلئ فيها أصحابها ضروراً من الخيل لبيع
الخمر وشرائها وشربها ومقها ، اتقاء مؤاخذه القانون . وبلغ من
طغيان شهوة الخمر على الناس أن أصبحت دلالة رجل منهم لآخر من
أقاربه أو أصدقائه على مكان حانة خفية أو على كلمة سرها (Pass-word)

عمالاً من البر والإحسان عظيمًا . فبينما كانت الحكومة يتسنى لها قبل
التحريم أن تراقب عدد الحانات الحاصلة على الامتياز وتتعهد ما يستعمل
فيها من أنواع الخمر وتتطلع على أحوال المترددين إليها من الناس ،
عادت بعد هذا كله لا تستطيع شيئاً من ذلك ، لأن تلك المساكن
للمعصيان المنتشرة في أرجاء البلاد أكثر وأعم من أن تحيط بها رقابتها ،
وعدها أضعاف عدد الحانات العلنية الموجودة في البلاد قبل
التحريم . هذا وطفق يباع فيها كل نوع رديء من المسكرات ،
ضرره بصحة الانسان أسوأ من ضرر السم الزعاف . ثم كثر تردد
الصغار من أبناء الأمة وبناتها إلى هذه الحانات ، مما قلق له أهل
الفكر الاميركيون وخافوا سوء مغيبته . وغلت أثمان الخمر غلاء
فاحشاً وعادت مهنة بيع الخمر من أربح المهن وأنفعها ، فصار
يحترف بها ملايين من الناس . وعلاوة على هذه الحانات السرية
ظهرت هناك فئة من الخمارين المتجولين (Boot-leggers) هم بمثابة حانات
متنقلة يبيعون الناس الخمر في المدارس والمكاتب والفنادق والمنزهات
ويتوصلون اليهم حتى في بيوتهم ومنازلهم ، ليجدوا مشتريين جدداً
لبضاعتهم . والذي قدر على أقل التقدير أنه بلغ عدد الخمارين بعد
التحريم عشرة أضعاف ما بلغه قبله . وجاوزت هذه المهنة مدائن
القطر إلى القرى والارياف ، فأقيمت في كل قرية معصرة سرية .
وبينا كان عدد مصانع الخمر الحائزة للامتياز قبل التحريم لا يعدو
أربعمائة ، فقد عثروا في مدة سبع سنين بعد التحريم على قريب
من ثمانين ألف مصنع ، ووقعوا على أكثر من تسعين ألف اتون

لصنع الخمر ، إلا أن هذا كله لم يعد على تجارة الخمر بشيء من
النقصان ، واعترف رئيس سابق لقسم التحريم في الحكومة
الاميركية بأنه « لم يتمكن من العثور إلا على عشر مافي البلاد
من مصانع الخمر وأتانتها » . وكذلك زادت مقادير الخمر المستعملة
زيادة عظيمة حتى لقد حدث أن أصبح الاميركيون يشربون مئتي
مليون غالون (Gallons) من الخمر في كل سنة ، وكانت هذه المقادير
أكثر بكثير مما كانوا يستعملونه قبل التحريم .

ثم إن الخمر التي أصبحت تستعمل منها تلك الكميات العظيمة
عادت في كلفتها أردأ نوعاً وأشد بالصحة ضرراً ، مما جعل الاطباء
يقولون فيها : « إن هذا المشروب أحرى بأن يدعى السم من أن
يسمى خمرأ ، فانه لا ينحدر من حلق الشارب حتى تسري آثاره
السيئة إلى معدته ودماعه ، وتبقى أعصابه مأفونة بها مدة يومين
كاملين . وما دام الانسان في مسكر منه لا يصلح لعمل صالح
ولا حياة طبيعية ، بل هو يميل طبعاً إلى إثارة الضجة والفوضى
وارتكاب المعاصي والإجرام » .

فلا كثار من شرب هذه الاجناس الرديئة من الخمر أودي بصحة
أهل أميركا وكثر فيهم الامراض والاسقام . ومن أمثلة ذلك ماتدل
عليه الاحصاءات لمدينة نيويورك من انه كان عدد المرضى فيها من
استعمال الكحول في سنة ١٩١٨ قبل التحريم : ٣٧٤١ وعدد الهالكين
من استعماله : ٢٥٢ نفساً . ثم بلغ عدد المرضى فيها لسنة ١٩٢٧ بعد
التحريم أحد عشر ألفاً وعدد الهالكين سبع آلاف ونصف الاف .

وأما الذين تعدت اليهم آفات الخمر من طريق غير مباشر فأهلكتهم أو جعلتهم في حكم الأموات ، فلم يعلم عددهم إلا الله .

كذلك كثرت الجرائم ، ولا سيما جرائم الصبية والفتيان كثرة فاحشة . وشهد القضاة الأمير كيون أنه : « لم تعهد في تاريخ بلادنا هذه الكثرة الكاثرة من الصبيان المقبوض عليهم في حالة السكر ، ولما تجاوزت جرائم الأحداث أقصى الحدود وبلغ السيل الزبي ، قام المسؤولون بالتحقيق في أسبابها فدلتهم الحقائق على أنه من سنة ١٩٣٠ لا تزال معاقرة الخمر والعربدة تزداد وتتفشى بالشبان سنة بعد سنة ، إلى أن تضاعف عدد المتورطين منهم في هذه المعاصي ثلاثة أضعاف ما كان من قبل في بعض المدن في مدة ثمانية أعوام . وصرح الأميرالاي موس (Col. Moss) مدير المجلس الأعلى للنظر في الجرائم (National Crime Council) أن : واحداً من كل ثلاثة أمير كيون يتعاطى الجرائم وقد ازدادت جرائم القتل عندنا بقدر (٣٠٠٪) مما كان منها من قبل ، .

وحاصل القول أن النتائج التي ظهرت في أميركا عقب تحريم الخمر تتلخص في أنه :

- زالت عن القلوب حرمة القانون ونشأت نزعة للبغى والتمرد عليه في كل طبقة من طبقات المجتمع .
- لم تتحقق الغاية المقصودة من تحريم الخمر ، بل زاد استعمالها بعد التحريم على ما كان عليه قبله .

• تجشمت الحكومة خسائر لا تحصى في تنفيذ قانون التحريم،
ومثلها أيضاً أصاب الشعب الأميركي لاشتراطه الخمر خفية،
فتأثرت بذلك اقتصاديات البلاد .

• كثرت الأمراض واختلت الصحة وازدادت نسبة الوفيات ،
وفسدت الأخلاق وشاعت الرذائل وتفاحشت الجرائم في
جميع طبقات المجتمع وعلى الأخص في الجيل الناشئ .

وكانت هذه كلها من ثمرات هذا القانون في ناحية التمدن والأخلاق.

ظهرت هذه النتائج كلها في دولة تعد من أرقى دول الأرض
حضارة ، في زمان هو آلق أزمنة التاريخ بضياء العلم ، وان
أبناءها أوفر حظاً من التهذب والثقافة ، تشرق عقولهم بنور الحكمة
والعلم ، فهم أخرى أن يعرفوا ما يضرهم وما ينفعهم .

وظهرت هذه النتائج على حين انه نهت الامة الاميركية
بأسرها على مضار الخمر بدعاية واسعة شاملة بذلت بسبيلها ملايين
من الدولارات ونشر لاجلها مئات الملايين من الكتب والرسائل .
وظهرت على الرغم من أن أكثرية ضخمة من الامة الاميركية
اتفقت على ضرورة التحريم، وبرضاها وتأييدها عرض على المجلس
الاميركي مشروع التحريم وصودق عليه .

وأخيراً ظهرت هذه النتائج مع كون دولة جبارة كالدولة
الاميركية قد أقامت على السمي والجهد للقضاء على شرب الخمر
وتجارتها بأحسن ما يمتاز به القرن العشرين من الإدارة والتنظيم مدة
أربعة عشر عاماً محرمة .

أما قبل أن تظهر هذه النتائج فكانت الاكثية من الحكومة
والشعب كليهما تتفق على تحريم الخمر ، فحرمت فعلاً ، ولكنه لما
تحقق بعد التحريم أن الامة لا ترضى هجر الخمر بحال من الاحوال
وكانت عواقب إكراهها على تركها أسوأ مما كانت عليه الحال
فيما قبل ، عادت الاكثية من الحكومة نفسها والشعب ذاته تتفق
على إحلال الخمر ، فأحلت !



والآن هيا بنا نرسل الطرف في قطر كان يعد أجهل أقطار
الارض في أظلم عصور التاريخ قبل مايزيد على ثلاثة عشر قرناً ،
أهاليه أميون ، والعلم والحكمة فيه شيء معدوم ، والتمدن
والحضارة أمر لا يعرفه فيه أحد ، وعدد المتعلمين فيه ربما لا يزيد
على واحد في عشرة آلاف ، وذلك المتعلم الواحد ليس نصيبه من
العلم إلا مثل ما لعامتنا منه في هذه الايام ، ثم ينعدم فيه ما يمتاز
به هذا العصر الاخير من الوسائل وإدارات التنظيم ، ونظام الحكم
فيه في حالة بدائية لم يمض على قيامه إلا بضعة سنين . وأما أهاليه
فمشاق للخمر متهاكون عليها متفانون فيها ، في لغتهم نحو مائتين
ونصف مائة علم لهذا الشراب وحده ، مما لا نظير له في أية لغة
أخرى ، وإن استزدت دليلاً على شغفهم البالغ بها فهذا شعرهم الذي
تجد الخمر لحنه وسداه ، مما يخيل إلى القاريء أنهم رضعوها مع
لبان أمهاتهم وكانوا يعتبرونها لازمة لزوم الماء لحياتهم .

هذه هي حالة ذلك القطر وهذه صفة أهاليه ، إذ تخطر ببال

الناس مسألة الخمر فيأتون النبي ﷺ يستفتونه في أمرها ، فيتلو عليهم قول الله عز وجل : (يسألونك عن الخمر والميسر . قل فيها إثم كبير ومنافع للناس . وإثمها أكبر من نفعها — البقرة ٢١٩) . فيسمع الناس الآية وليس فيها أمر أو نهى وإنما هي خبر وتلقين ، يبين الله تعالى به حقيقة الخمر ويخبر عباده بأنها ذات منافع وذات مضار ولكن ضررها أكبر من نفعها . على أنه يكون من تأثير هذا التعليم أن يتركها قوم للآثم الكبير ، ويقولون لا حاجة لنا في شربها ولا في شيء فيه إثم كبير . ويشربها قوم لقوله تعالى : (ومنافع للناس ...) .

ثم أعيد السؤال ثانية عن الخمر ، إذ كان بعض الناس يصلون وهم مسكاري فيهذون فقرأ عليهم رسول الله ﷺ مما أوحى إليه : (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم مسكاري ، حتى تعلموا ما تقولون — النساء : ٤٣) . فحرم السكر في أوقات الصلاة ، ولكنه تركها قوم بالمرة وقالوا : لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة . وقال قوم: نشربها ونجلس في بيوتنا ، فكانوا يتركونها وقت الصلاة ويشربونها في غير حين الصلاة ، وذلك لئلا يصلوا وهم ثملون ، أو يضطروا إلى ترك الصلاة من أجل السكر .

إلا أن مضرة الخمر الحقيقية ظلت باقية بعد . إذ ربما كان الناس يسكرون فيفسدون . ويؤدي بهم الأمر في بعض الأحيان إلى الفتك والقتل . لذلك تطلعت النفوس إلى بيان شاف للخمر . فأزل الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب

والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون .
إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر
ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون . وأطيعوا الله
وأطيعوا الرسول واحذروا . فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا
البلاغ المبين — المائدة : ٩٠ - ٩٣) فقال عمر بن الخطاب رضي
الله عنه : اتقينا يا رب ! وقال أنس رضي الله عنه : حرمت ،
ولم يكن للعرب يومئذ عيش أعجب منها ، وما حرم عليهم شيء
أشد من الخمر . قال : فأخرجنا الحجاب إلى الطريق فصبينا ما فيها .
فمنا من كسر حبه ومنا من غسله بالماء والطين . ولقد غودرت
أزقة المدينة بعد ذلك حيناً ، كلما مطرت امتبآن فيها لون الخمر
وفاحت ريحها .

وقال أنس بن مالك : كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر في
بيت أبي طلحة ، وما شربهم إلا ففيخ البسر والتمر ، فاذا مناد
ينادي ، فقال القوم : اخرج فانظر ، فاذا مناد ينادي : ألا إن
الخمر قد حرمت . قال : فجرت في مسكك المدينة ، فقال لي
أبو طلحة : اخرج فأهرقها ، فهرقتها . وقيل كان رجل يشرب
الخمر وأوشكت الكأس أن تمس شفتيه إذا بداخل دخل عليه
وقرأ آية التحريم ، فانفصلت الكأس من فيه للحال ، ولم يذق
لسانه قطرة مما فيها بعد ذلك .

وكل من شرب منهم بعد ذلك ضربوه بالنعال وبالجرید
والعصي ، ثم جلدوه أربعين ، ثم جعلوا حد الشرب ثمانين جلدة .

فكان من نتيجة ذلك أن هجرت العرب شرب الخمر هجراً ، ثم حينما بلغ الإسلام أقطار الأرض زهد الأمم فيها ونفرتها عنها ، حتى صرت ترى اليوم ، وقد ضعفت آثار تعاليمه ، ملايين من بني آدم في هذه الدنيا يجتنبون الخمر بدون زاجر من قانون التحريم أو مانع من نظام التعزير . ولئن أحصيت اليوم نسبة الشاربين في المسلمين فلعل هذه الأمة توجد أزهد الأمم في الخمر حتى في هذه الحال المتخلفة . ثم لا يشرب من هذه الأمة شارب إلا وهو يعتقد أنه يرتكب إثماً ومعصية ، فيندم عليه في قلبه ، وربما تاب عنها من تلقاء نفسه .



إن العقل والمنطق يقوم حكمهما الفصيل النهائي على التجارب والشواهد وحدها . وشهادة التجربة عندهما بما لا يمكن أن يكذب أو يرد ، فبين يديك الآن تجربتان اثنتان : تجربة أجريت في أميركا في العهد القريب وأخرى جرت في العرب في صدر الإسلام ، والفرق بينهما ظاهر لذي عينين ، فلك أن توازن بينهما وتقارن ، ثم تستخلص من ذلك ما قدر الله لك من العبرة .

ففي القطر الأميركي قام أولوا الإصلاح بدعاية واسعة ضد الخمر مدة سنوات طوال ، وبذلوا ملايين من الدولارات لإعلان مضارها ومساوئها ، وبينوا آفاتنا وسبب آثارها في جسم الإنسان وأخلاقه واقتصاده بأدلة ناهضة من تعاليم الطب والاستنباط المنطقي ، وأثبتوها اثباتاً لا يدع أحداً في شك من الأمر . بل أروا الناس

مضار الخمر رأي العين متمثلة في الصور ، وسموا معهم لائن يؤمن
الناس بمفاسد أم الخبائث فيستعدوا لتركها من تلقاء أنفسهم . ثم إن
المؤتمر الاميركي وهو أكبر حزب سياسي للاميركيين حينئذ قطع
بتحريم الخمر بأكثرية غالبية ، فسن له قانوناً ، ثم جاءت الحكومة
- وهي من أعظم حكومات الارض وأقواها - فاستفردت جهودها
لمنع بيعها وشرائها وصنعها وتربيتها وتصديرها واستيرادها ، ولكن
الامة - وهي في طليمة الامم المثقفة المستنيرة - لم ترض هجرها ،
فاضطر القانون في مدة أربعة عشر عاماً أن يرجع القهقري فيحل
بنفسه ما حرمه فيما سبق .

وبجانب آخر ، ما قام أحد في الإسلام بنوع من الدعاية ضد
الخمر ، وما بذلت صفراء ولا بيضاء في النشر والاذاعة في هذا
الصدد ، وما قامت في بلاد الاسلام رابطة تحارب وجود الخانات ،
وإنما أعلن الرسول ﷺ على الناس أن يا قوم لقد حرم الله الخمر ،
ولم يخف دوي إعلانه حتى امتنعت الامة - التي كانت أعشق للخمر
من الامة الاميركية ، ثم لم تكن من العلم والتعقل المتعارف
عليهما في هذا الزمان على شيء يذكر في جنبها - فأمسكت عن
الخمر وودعتها وداعاً لا رجعة لها بعده اليها مادامت في دائرة الاسلام .
وهي لان تبقى حصوراً عن الخمر لا تحتاج إلى قوة حاكمة أو
محاسبة أو نظام تعزيري ، بل تجتنبها وتنزه عنها وإن لم تكن
فوقها قوة قاهرة تكرهها عليه . ثم ان تحريم الخمر في الاسلام ليس
من النوع الذي يمكن أن يخفف أو يحول إلى التحليل بل بحال من

الاحوال ، بل الامر أنه إن اتفق جميع المسلمين في الارض على تحليل
الخمر وأعطوا أصواتهم بحق ذلك ، لم يستطيعوا أن يحلوا هذا
الحرام أبداً .

وإن تدبرت أسباب هذا الفرق العظيم بين التجريبتين ، تبينت
أموراً هي كالاصول الكلية الثابتة لا في الخمر وحدها بل في جميع
مسائل القانون والاخلاق .

أولها : أنه فرق أساسي عظيم بين الاسلام والقوانين الوضعية في
تنظيم السلوك الانساني ، فالقوانين الوضعية تعتمد تماماً على الرأي
الانساني ، وهي مضطرة بطبيعة الحال إلى مراجعة رأي الخاصة والعامة
في كلياتها وأصولها بل في كل فرع منها ، وشأن الرأي الانساني - سواء
كان للخاصة أو للعامة - أنه لا يزال يتأثر في كل آن بالمواطن والنزعات
الانسانية والاسباب والعوامل الخارجية وأحكام العلم والعقل القابلة
للتغير - مما لا يلزم أن يكون صواباً في كل حال - وهذا التأثير يؤدي
إلى التغير في الافكار والآراء ، وبهذا التغير تتبدل بالضرورة
مقاييس الخير والشر والصحيح والخطأ والجائز والمحظور والحرام
والحلال ، واضطراب هذه المقاييس يكره القانون على أن يميل معها
حيث مالت ، وبذلك لا يتحقق الاخلاق والمدنية مقياس ثابت مستحكم
غير قابل للتغير ، بل يتحكم تلون الطبع الانساني في القانون وتلون
القانون في الحياة الانسانية . مثل ذلك كمثل سائق ربض ، يسوق
السيارة ، فتعبت يدها الخرقاوان بموجتها يمينا وشمالاً بدون
نظام . واضطراب الموجهة يعقب اضطراباً في سير السيارة ، فلا تلتزم

طريقاً مستقيماً ، وإذا هي سارت مثل هذا السير المتخلىج بمنة
ويسرة فلا بد أن يتأثر به السائق ومن معه في السيارة، فيكونون
تارة على سواء الطريق وتارة على عذاريه ، يخشى في كل حين أن
يسقط بهم المركب في فجوة أو يصطدم بهم بصخرة ، أو يصيبهم
من صدمات الطريق ما هو أتعب وأشد .

وبخلاف ذلك إن جميع الأصول الكلية ومعظم الفروع الجزئية
للقانون والأخلاق في الاسلام هي من وضع الله والرسول، وليس
الرأي الانساني إلى التدخل فيها من سبيل ، وإن كان له بعض
الدخل في الجزئيات فهو لا يعدو أن يستنبط الانسان فروعاً جديدة
من تلك الأصول الكلية والشواهد الجزئية مراعاة لأوضاع حياته
المتبدلة ، تنطبق على أصول الشرع حتماً . ومن بركات هذا التشريع
الرباني أنه يضع بأيدينا مقياساً ثابتاً للمدينة والأخلاق لا يتزلزل .
فلا يكون في قوانيننا الخلقية والمدينة أثر للتلون، ولا يمكن عندنا
أن يصبح حرام الأمس حلالاً اليوم ثم يعود حراماً غداً ، وإنما
الحرام في الاسلام حرام إلى أبد الآباد والحلال حلال إلى يوم
المعاد . وقد أسلمنا زمام مركبنا إلى حاذق تام البراعة واطمأننا إلى
أنه سيجريه على الطريق المستقيم (يثبت الله الذين آمنوا بالقول
الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين) .

والأمر الثاني الخطير أن الساطات الدنيوية إذا أرادت وضع
القواعد الانسانية ومحاولة الإصلاح في التمدن والأخلاق والاجتماع،
فهي تحتاج في كل مسألة فرعية إلى استرضاء عامتها للإصلاح المنشود

فيها قبل أن تتولاه وتأخذه في العمل له . ولذلك يتوقف نفاذ كل مادة من مواد قانونها على رضا جمهور العامة . وكل ما ينفذ في البلاد من قانون إصلاحي أو تنظيمي بخلاف رضام فانه لا محالة ينسخ ويلغى آخر الأمر بعد كثير من الفساد، واضطراب الأحوال. وليس هذا مما جربته أميركا وحدها وإنما تشهد به تجارب الدنيا بأجمعها . وهذا دليل على أن القوانين المدنية عقيمة نكدة لا تنفي شيئاً في إصلاح الأخلاق والاجتماع ، لأن المفسدين الذين ترمي هذه القوانين إلى إصلاحهم هم الذين يتوقف على رضام تقرير تلك القوانين أو رفضها وتنفيذها أو إلغاؤها .

وقد حل الإسلام هذه العقدة بطريق آخر ، إن تأملته علمت أنه لا حل لهذه المشكلة سواء . وهو أنه قبل أن يتعرض لمسائل التمدن والاجتماع والأخلاق ، وقبل أن يطالب الإنسان بإطاعة قوانين الشرع ، يدعو أن يؤمن بالله وبكتابه ورسوله . أما قبول الإنسان دعوته أو رفضه إياها فلا شك موقوف على رضاه ، وهو مختار في أن يؤمن أو لا يؤمن ، ولكنه متى آمن بالله والكتاب والرسول بطل كل سؤال بعد ذلك عن رضاه أو عدم رضاه ، وأصبح كل ما يأمره الرسول عن الله تعالى وكل ما يقرره كتاب الله أمراً واجب الإذعان له . وإذا ثبت هذا الأصل من الإيمان بالله جرى عليه جميع القوانين الشرعية ولم يعد لرضاه أو سخطه دخل في مسألة كلية أو جزئية . وهذا ، لو تأملت ، هو السبب في أن المشروع الذي لم يتحقق في أميركا على رغم

ما أهلك في سبيله من ملايين الدولارات وعلى رغم ذلك التبليغ والدعاية والنشر النادر النظير في تاريخ الأمم ومسعاي الحكومة المتوالية على طول السنين — تحقق في دنيا الإسلام بإعلان واحد أعلنه الرسول عن ربه .

والعبرة الثالثة : أن جماعة إنسانية مهما وفر نصيبها من نور العلوم والفنون ومهما علا مقامها في سماء الارتقاء العقلي لا يمكنها التخلص من برائن الهوى ما لم تكن مطيعة للقاءن الرباني ومتمتعة بقوة الإيمان ، ولا بد أن يكون عليها من سلطات الأصول النفسية ما لا تطيق معه الصبر عما تألفه وتميل إليه ، وإن بينت لها مضاره أجلى من شمس النهار ، وجئت بالعلوم التجريبية — أي جئت بآلهة العقلين — شهادة على مساوئه ومفاسده ، وعرضت عليها شهادة الاحصاءات — التي لا تكذب أبداً عند أهل الحكمة في هذا العصر — وبرهنت آفاته وأضراره بالتجربة والمشاهدة .

ومن ذلك كله يتضح ويثبت أن بعث الحاسة الخلقية في الانسان وتنشئة الضمير المحاسب فيه ثم تزويد هذا الضمير من القوة بما يتغلب به على النفس الأمارة — كل ذلك ليس من مقدور العلم والحكمة ولا هو في طوق العقل والمنطق ، بل هو مما لا يحققه إلا الإيمان وحده .

انتصار الحضارة الغربية

لشد ما تدهش العقول لما ترى من هذا الرقي المجيب الذي حازته أمم الغرب في ميادين السياسة والتجارة والصناعة والحرف والعلوم والفنون . وإنه ليخيل اليها أن رقي هذه الأمم الغربية أبدي سرمدي ، وأنه قد قضي الأمر بدوام غلبتها واستيلائها على العالم ، وأنها قد اختصت - دون غيرها - بالحكم على البسيط الأرضي والسيطرة على عناصر الكون ، وأن قوتها قد بلغت من الشدة والرسوخ أن لا يمكن استئصالها .

مثل هذا الظن قد غلب العقول في كل زمان بالنسبة إلى كل تلك الأمم التي كانت « الأمة الغالبة » في زمانها . ففراعنة مصر وأمتا عاد وثمود في العرب ، والكلدانيون في العراق ، وأكسرة فارس ، والفزاة اليونان العالميون ، وملوك الروم الحاكمون على أقطار الأرض ، والمجاهدون المسلمون الفاتحون للعالم ، والجنود النتر المضرمين للبلاد ، - كل أولئك قد مثل دور القوة والسيادة على مسرح هذه البسيطة . فأبي من جاءت نوبته منهم ، صعد المنصة وأدهش العالم - كفعل الأمم الراقية اليوم - بما عرض من مظاهر

قوته ومشاهد ذهابه وإيابه في أنحاء الأرض . وكل أمة من تلك الأمم لما نهضت غمرت العالم كله بسيادتها ، وقد سمع دوي شوكتها وجبروتها في ربوع الأرض على هذا النحو ، وهكذا ارتاعت الدنيا لعظمتها وخيل إليها أن قوتها لن يزول . ولكنه لما جاء أجلها وقضى بزوالها الحاكم القوي الذي لا زوال لقوته أبداً ، عثرت عثرة لم ير لأكثرها وجود بعدها ، ولو أنه بقيت لبعضها آثار الوجود بعد ذلك ، فانها هانت إلى درجة أنها خضعت لمحكومها بالأمس وأصبحت مملوكة لماليكها في الغابر . (قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) .

ومن خصيصة نظام هذا الكون أنه لا سكون له ولا وقوف . فهناك حركة دائمة وتغير ودوران مستمر ، لا يدع شيئاً يستقر على حال . فكل كون يتبعه فساد ، وكل بناء يصحبه خراب ، وكل ربيع يتلوه خريف ، وكل صعود بعده هبوط ، وهكذا على العكس . فأنت ترى حبة مستصغرة تذروها الرياح اليوم من مكان إلى آخر ، وغداً تتأصل هذه الحبة في الأرض ، وإذا هي شجرة باسقة الفروع ، ثم تذوي هذه الشجرة بعد غد فتسقط وتندفن في الأرض ، فتفادرها القوى الفطرية المنشئة لتغذي بذرة أخرى . وهذا كله من عمل الرفع والخفض الجاري في هذه الحياة . فاذا ما رأى المرء حالاً بعينها من الحالين تستمر على كائن لمدة طويلة ، ذهب به الظن إلى أن هذه الحالة ستبقى إلى الأبد . فان كان هبوط فلا بد أن يبقى هبوطاً أبداً ، وإن كان صعود فلا بد أن

يظل صعوداً أبداً . ولكن كل ما هنالك من فرق بين الحالتين هو من حيث التقدم والتأخر ، ولا خلود لأيتها أبداً . (وتلك الأيام فداولها بين الناس) .

لا تزال أحداث هذا العالم تجري وتتحرك فيما يشبه حركة دورية . فالولادة والموت والشباب والشيخوخة والقوة والضعف والربيع والخريف والنضارة والذبول ، كل أولئك وجوه مختلفة لتلك الحركة الدورية . وتبعاً لهذه الحركة تطرأ على كل كائن - حسب نوبته - حال من الاقبال ينمو في أثنائها ويزكو ، ويظهر من نفسه القوة والشدة ويعرض ما يتسم به من جمال وبهاء ، حتى يبلغ ذروة رقيه وكماله . ثم تعقب ذلك حال من الإدبار ، فينتقص فيها ذلك الكائن ويدوي ، ويأخذه الضعف والاضمحلال ، حتى تقضي على وجوده نفس القوى التي كانت أنشأته .

تلك سنة الله فيما خلق ، وهذه السنة كما هي جارية في مسائر الموجودات ، هي جارية أيضاً في الانسان ، سواء في حالته الفردية أو في حالته الجماعية القومية ، فلا يزال العز والذل ، والصبر واليسر ، والصعود والنزول ، وما إلى ذلك من الحالات ينتاب الأفراد والأمم المختلفة وفق تلك الحركة الدورية ، فتطرأ على الجميع كل هذه الأحوال بالتناوب ، وليس منهم من حرم في هذه القسمة للأبد ، ولا منهم من اختص بدوام حالة واحدة عليه للأبد ، سواء أكانت حالة الاقبال أم الادبار : (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) .

وإنا انرى اليوم على كل بقعة من بقاع الأرض آثار الأمم التي
سبقتنا ، وقد خلفت تلك الأمم من آيات حضارتها وتقدمها
وصناعاتها وحذقها وكهال فنها وبراعة يدها ما يدل على أنها لم تكن
بأهون من هذه الأمم الراقية الغالبة في زمانها، بل الحق أنها كانت
أقوى وأغلب من هذه على الأمم المعاصرة لها في ذلك العصر :
(كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها) ،
ولكن ماذا كان مصيرها ، إنها انخدعت بما وجدت نفسها فيه من
حالة الاقبال ، وغرتها النعم وفنتها الرفاهية ، فتكبروا وتجبروا
لما استتب لهم من القوة والغلبة ، فأخذوا يظلمون أنفسهم بما
يرتكبون من سيئات الأعمال : (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه
وكانوا مجرمين) . وقد أمهلهم الله تعالى على رغم تمردهم وعصيانهم
(وكأن من قرية أمليت لها وهي ظالمة) ، ولم تكن هذه المهلة
بيسيرة ، بل أمهلت بمض الأمم مدة قرون متوالية (وإن يوماً
عند ربك كألف سنة مما تعدون) ، ولكن كل مهلة أمهلوها
أصبحت لهم بلاء من ربهم جديداً ، إذ زعموا أنهم قد عاجزوا
الله بمكرهم وتديبرهم ، وأن الحكم والأمر في هذا العالم ليس
بيد الله بل بيدهم . وهناك حاج غضب الله فانصرفت عنايته
عنهم ، وأعقب عهد إقبالهم عهد الخمول والإدبار : (ومكروا مكرأ
ومكرنا مكرأ ، وهم لا يشعرون) . وإن المكر والتدبير الإلهي
لا يواجه المرء من أمام ، بل هو ينبعث من داخل الانسان نفسه ،
فيسري إلى ذهنه وقلبه ليعمل عمله ، فهو يثبت على عقل المرء

وشعوره وتمييزه وفكره وحواسه ، فيسلب عيني عقله وبصيرته
النور ، ويجعله مكفوف البصيرة لامكفوف البصر: (فإنها لاتعمى
الآبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) . وإذا افتقد المرء
نور قلبه الداخلي ، فكل تدبير يديره لمصلحته يأتي على عكس
المقصود فيضر ، وكل خطوة يخطوها نحو غاية النجاح تقوده إلى
مهى الهلاك ، وتمضى عليه جميع قواه ومقدراته إلى أن تخنقه
يداه هو نفسه (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم . إنا دمرناهم
وقومهم أجمعين) .

إنا نجد صورة متكاملة لتناوب هذا الاقبال والادبار على الأمم
في قصة آل فرعون وبني إسرائيل ، وذلك أن أهل مصر لما
وصلوا إلى قمة الرقي ، أحلدوا إلى الظلم والعدوان . فادعى كبيرهم
فرعون : أنا ربكم الأعلى ، وجعل يمذب وينتقم من أمة ضعيفة
- تدعى بني إسرائيل - استوطنت أرض مصر أيام النبي يوسف
عليه السلام ، فلما بلغ عدوان فرعون والأمة المصرية نهايته ،
قضت مشيئة الله أن تخضع شوكتهم وترفع تلك الأمة المستضعفة
- بني إسرائيل - التي كانوا يحقرونها ، فتحقق ماأراد الله وولد
في بني إسرائيل النبي موسى عليه السلام . ومهد التدبير الالهي
لأن تكون نشأته وتربيته على يد فرعون وفي قصره ، فلما بعث
نبياً ، عهد الله اليه أن ينقذ أمته من عبودية المصريين ، فنصح
فرعون بلطف ، ولكنه لم ينتصح . ثم جاء فرعون وقومه من
رهبهم إنذار بعد إنذار بما تتابع عليهم المجاعات ، وتكرر عليهم

الطوفان ، ونزل عليهم الدم ، وأكل حرثهم الجراد ، وآذنتهم
كثرة القمل والضفادع . ولكن كل ذلك لم ينقص شيئاً من عتوهم
وكبريائهم : (فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين) . ولما تمت الحجة
عليهم ، قضي الأمر بنزول العذاب الالهي . فخرج موسى عليه السلام
مع أمته من مصر بإذن الله ، وأغرق فرعون وجنوده في اليم ،
وسقطت القوة المصرية بذلك سقوطاً لم تنهض منه مدة قرون :
(وأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ، فانظر كيف كانت عاقبة
الظالمين) . ثم جاءت نوبة بني إسرائيل ، فبعد ان انتصرت هذه
الامة على المصريين ، فوض اليها الحاكم الحقيقي لهذا الكون الأمر ،
بعدما كانت ذليلة محتقرة فيها : (وأورثنا الذين كانوا يستضعفون
مشارك الأرض ومقاربتها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على
بني إسرائيل بما صبروا) وفضلها على جميع أمم الأرض (وفضلناكم
على العالمين) . ولكن هذه الفضيلة والوراثة الأرضية كانت منوطة
بالعمل الصالح ، فقال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام : إنكم
ستورثون الأرض ولكن الله سيرى كيف تعملون . وهذا شرط لم
يختص به بنو إسرائيل وحدهم ، بل تلزمه كل أمة تمنح حكومة
الأرض : (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر
كيف تعملون) .

فلما عصى بنو إسرائيل ربهم ، فحرفوا كلام الله واستبدلوا بالحق
الباطل واتبعوا سبيل الكذب والخيانة وأكل الحرام وغدر العهد ،
وأصبحوا عبدة الفضة والذهب ، طماعين ، جبناء ، محبي الراحة

والرغد ، وقتلوا من بينهم الأنبياء وعادوا القائمين بدعوة الحق ، وأعرضوا عن أئمة الخير وأطاعوا أئمة الشر ، ازورت عنهم عين عناية الله فنزعت من يدهم وراثته الأرض وجعلوا رمية لسهام جبابرة العراق واليونان والروم ، وأخرجوا من ديارهم ليتشردوا في أقطار الأرض في حال بؤس وشقاء ، وحرموهم أن تستقر لهم حكومة إلى الأبد . ومن لعنة الله الواقعة عليهم منذ ألف سنة أنهم لا يجدون لانفسهم مكاناً كريماً في الأرض (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأثوا بغضب من الله) .

وان سنة الله هذه نراها تتكرر اليوم أمامنا ، فوبال الاعمال السيئة الذي ذاقته الامم السالفة قد أحاق اليوم بالامم الغربية ، وذلك انه قد أُنذرت هذه الامم بكل وجه ممكن الانذار . فآفات الحرب العالمية ومشكلات الاقتصاد وازدياد التعطل وانتشار الامراض الفتاكة وتبدد النظام العائلي ، كل أولئك آيات بينات ، لو تأملوها لعلموا أن كل ذلك ثمرة ظلمهم وعتوهم واتباعهم للشهوات وإعراضهم عن الحق . ولكنهم لا يجدون في هذه الآيات ما يعتبرون به ، فلا يزالون يميلون عن الحق ، وإذا هم تصدوا لمعالجة ما أصابهم فلا تصل أبصارهم إلى العلة الرئيسية للمرض ، وإنما هم ينظرون إلى ظواهر المرض ويستفرغون جهودهم لمعالجتها ، وبهذا الخطأ البين في العلاج لا يزال داؤهم يستفحل كلما عولج ، ومما تدل عليه الاحوال الآن أن مرحلة الانذار وإتمام الحجة قد كادت تنتهي ، وقد اقتربت ساعة القضاء .

إنه قد سلط على الامم الغربية شيطانان قويان ، يجرانها إلى مافيه

الهلاك . أولها شيطان قطع النسل والآخر شيطان القومية، فالشيطان الاول قد سيطر على أفرادها والآخر على أممها وحكوماتها . وإن الاول قد قلب عقول رجالها ونسائها فجعلهم يستأصلون أنسـالهم بأيديهم . إنه يعلمهم تدابير منع الحمل ويحضرهم على تعمد الاسقاط ويلقنهم فوائد عملية التعقيم (Sterilization) التي يقضون بها على قوتهم التوليدية للأبد ، ويبعث فيهم من القسوة والغلظة ما يجعلهم يقتلون أولادهم بأيديهم ، فهذا هو الشيطان الذي يدفعهم تدريجياً إلى الانتحار .

وأما الشيطان الآخر فقد سلب أكابر ساستهم وقادة حربهم قوة التفكير السليم والتدبير الصحيح ، فهو يبعث فيهم نزعات الاثرة والمسابقة والتنافر والتعصب والحرص والطمع ، وبذلك يقسمهم ويفرقهم شيعاً متعادية متحاربة ، ليذيق بعضهم شدة بعض . وهذا أيضاً من صور النعمة الالهية (أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) ، فهو يهيئهم لانتحار عظيم لا يرتكبونه على مهل ، بل سوف يساقون اليه في آن واحد ، وقد جمع هذا الشيطان ذخائر البارود في أنحاء العالم وأقام مراكز الخطر هنا وهناك ، فهو الآن ينتظر ساعة بعينها ، إذا ما حانت سيشتعل إحدى ذخائر البارود تلك ، وإذا القوم يحل به هلاك وخراب سيهون في جنبه هلاك الامم الماضية .

وهذا الذي أقوله لا مبالغة فيه ، فان الاستعدادات الحربية التي لا تزال تباشر الآن في أوروبا وأميركا واليابان للحرب الآتية ترسل هزة الزعر والخوف في نفوس أولي الابصار من تلك الامم نفسها ، وقد استطيرت ألبابهم روعاً لما يتصورون من نتائج الحرب الآتية . فهذا

المستر سرجل نيومان (Sergel Neumann) الذي كان عضواً في
الهيئة الجنديّة الأميركيّة سابقاً ، قد كتب مقالاً عن صورة الحرب
الآتيّة ، يقول فيه : إن الحرب الآتيّة لن تقتصر على الجنود المتحاربين ،
بل هي ستكون إفناء عاماً لا تنجو منه النسوة ولا الاولاد ، وذلك أن
عقول العلماء الكيميائيين (Scientists) قد نزعّت وظيفة الحرب
والقتال من الجنود الانسانيين وفوضتها إلى المركبات الكيميائيّة وآلات
الحرب التي لا روح فيها ولا شعور ، والتي لا تميز بين محارب وغير
محارب (Non - Combatant) ، فالآن لا يتحارب الفريقان في
الميادين أو في القلاع ، بل ستقع حربها في المدن والقرى ، لان قوة
العدو الاصلية — حسب النظرية الجديدة — لا تكون في جنودها بل
في بلادها المعمورة وأسواقها التجاريّة ومصانعها الصناعيّة ، فالآن سترمي
كل هذه الاماكن بالقنابل من فوق ، التي ستنفجر عن المواد المحرقة
والغازات السامة وجراثيم الامراض التي تهلك آلافاً مؤلفه من الجموع
الانسانية . ومن تلك القنابل قنبلة عظيمة تدعى (Lewisite Bomb)
تكفي وحدها لتهدم أضخم عمارة من عمارات لندن . وهناك غاز سام
يعرف باسم (Green Gross Gas) من خاصيته أن كل من استنشقه
أحس كاحساس الفريق في الماء ، وغاز سام آخر يقال له (Yellow Gross)
خاصيته كسم الحية ، كل من استنشقه لقي من الاذى والحنف ما يلقاه
سليم . وهناك اثنا عشر نوعاً آخر من مثل هذه الغازات كلها غير
مرئي ، فلا يحس المرء أثره بادئ ذي بدء ، وإذا أحسه فلا يكون
هناك إمكان لتدبير العلاج . ومن تلك الغازات غاز إذا وصل إلى علياء

في الجو ، امتلاً وانتشر ، فاذا اجتازت منطقته طائرة عمي كل من فيها .
وقد قدروا أنه لو يطلق بعض الغازات السامة بمقدار طن واحد على
مدينة باريس ، لافنى كل من فيها في ساعة واحدة ، وهذه العملية
لا تحتاج إلا إلى مائة من الطائرات .

وقد اخترعوا أخيراً قنبلة مدفعية كهربائية محرقة ، ولا يزيد
وزنها على كيلو جرام واحد ، ولكن هذه القنبلة الصغيرة تنطوي من
القوة على ما يدهش ، وذلك أنها إذا اصطدمت بشيء تولدت فيها حرارة
بمقدار ٣٠٠٠ فارن هيت ، مما يكون منه حريق لا يمكن أن يطفئه
شيء ، حتى الماء لا يفيد في إطفائه بل هو كالبترول يزيد تضرماً .
ولم ينجح علم الكيمياء بعد أن يجد ما يطفأ به هذا الحريق . ومما ينوون
أنهم سيقذفون هذه القنبلة على كبار شوارع المدن والعواصم ، حتى
يضطرم فيها ذلك الحريق الهائل من جانب إلى آخر ، وإذا فزع الناس
بهذا السمعير وحاولوا الفرار منه ألقيت على رؤوسهم قنابل الغازات السامة
لكي يستكمل الردى والهلاك .

ونظراً إلى هذه المخترعات المهلكة قد حدث الماهرون أنه تكفي عدة
طائرات لأن تهدم بها أكبر وأمن عاصمة في الأرض في مدة ساعتين
فقط ، وأن يسمم مئات الآلاف من النفوس الانسانية بحيث يرجعون
إلى فرشهم بالليل ساهمين ولا ينتبه منهم أحد من نومه في الصباح ، وأن
تهلك الماشية والسواثم وتخرب الحقول والرياض ، فتسمم ذخائر الماء
كلها في قطر بأجمعه ولم تكشف العلوم التجريبية (Science) بعد
وسيلة ناجحة لمداغة مثل هذه الحملات المردية ، إلا أن

يهجم كل من الفريقين المتحاربين على الآخر في آن واحد فهلك كليهما معاً .

هذا بيان موجز لما يتخذون من الأُهبّ للحرب المستقبلية ، ومن شاء التوسع في الموضوع فليراجع كتاب « ماذا يكون من صفة الحرب الآتية »^(١) ، الذي قد نشره الاتحاد البرلماني العالمي بحجيف بعد التحقيق التام ، وإذا نظرت فيه علمت كيف أن الحضارة الغربية قد هيأت الأسباب لخربها وفنائها بأيديها ، فحياتها الآن مرتهنة بالساعة التي تعلن فيها الحرب ، فإذا ما شبت الحرب بين دولتين كبيرتين من هذا العالم فاعلموا أنه قد قضي الأمر بخراب هذه الحضارة الغربية ، لأنه إذا نزات الدولتان الكبيرتان ساحة الحرب فلن يكون هناك ما يمنع الحرب أن تكون عالمية ، وإذا كانت الحرب عالمية ، فلا بد أن يكون البوار والدمار أيضاً عالمياً شاملاً (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا ، لعلمهم يرجعون) .

على كل حال قد اقترب الوقت لأن يدبر أمر الوراثة الأرضية من جديد ، وأن يسقط الظالمون المسرفون عن مقام الخلافة الأرضية ، وتشرف بها أمة أخرى ، لعلها أن تكون من الأمم المستضعفة ، فلينظر الناظرون من يقع عليه الانتخاب الإلهي في هذه المرة .

(1) What would be the Character of a new world - war .

وإننا ليست عندنا وسيلة للعلم بأنه أية أمة ستقام في الأرض
فيما يأتي ، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء :
(قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن
تشاء) ، ولكن هناك سنة الله في هذا الأمر أيضاً ، قد بينها في
كتابه العزيز ، وهي أنه إذا صرع الله أمة لأعمالها السيئة أقام مقامها أمة
لا تكون آئمة متمردة كأختها المغضوب عليها: (وإن تتولوا يستبدل
قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) .

ومن الظاهر على هذا ، أن الأمم المغلوبة المستضعفة التي هي
عاملة اليوم بمجالات الحضارة الغربية في كل شيء ، وهي بدل
أن تصطنع محاسن الأمم الغربية — التي بقيت فيها قليلاً أو كثيراً —
تحرص على اصطناع معايها ومساوئها التي هي مجلبة للغضب
الإلهي عليها ، لا مجال لفوزها وغلبتها — مرة أخرى — فيما
ينتظر من الانقلاب .

خطبة اللورد لوثرين

إن الخطبة التي ألقاها اللورد لوثرين بمناسبة حفلة توزيع الشهادات بجامعة عليكر في الأسبوع الأخير من يناير الماضي لجديرة بأن يتممها كل من أصحاب الثقافة الجديدة والقديمة من أهل الهند ويستخلصون منها العبرة والدرس ، ففي هذه الخطبة قد كشف لنا عما في قلبه وذهنه رجل لم ينظر إلى العلوم الجديدة وإلى ما نتج عنها من الحضارة من بعيد ، بل هو قد نشأ في حضن تلك الحضارة وأنفق ستة وخمسين عاماً من عمره في خوض غمارها . إنه أوربي بالمولد والنسب وخريج جامعة أو كسفورد ، قد كان فيما مضى رئيس تحرير مجلة معروفة كمجلة روند تيبيل (Round Table) ، ولم يزل يشارك كمستشار في مهام أمور الدولة البريطانية منذ قريب من ٢٢ عاماً ، فهو على ذلك ليس بشاهد أجنبي ، بل هو من أهل بيت المدنية الغربية ، وهو يتحدثنا عن هذا البيت ويخبرنا ما هي المقاصد الحقيقية التي قد سرت في جنباته ، وما هو منشؤها ، وإلى أي شيء يتعطش أفرادها الآن في الحقيقة .

هذه الخطبة تتضمن العبرة من ناحية للمثقفين بالثقافة الجديدة منا ، فانهم يعلمون منها أن العلوم الغربية وما تبعها من الحضارة الجديدة

ليست كلها الترياق خالصاً ، بل هي تحمل في ثناياها كثيراً من السم ،
وأن الذين اتخذوا منها المعجون الشافي واستعملوه طوال القرون هم
بأنفسهم يندروننا في أمره ويمنعوننا من تناول المقدار الوافي من هذا
المركب بقولهم : إن هذا قد استدرجنا إلى شفا الهلاك ، فلا بد
أن يفضي بكم أيضاً إليه ، وإننا بأنفسنا نحتاج اليوم إلى ترياق خالص ،
ومع أننا لا نعلم بالتحقيق أين هو ، ولكننا نظن أنه موجود
عندكم ، فإياكم أن تلقوا بترياقكم هذا إلى الرياح ، وتهافتوا على
لذة معجوننا المسموم .

ومن ناحية أخرى تتضمن هذه الخطبة كثيراً من العبرة والموعظة
لعملائنا والطبقات الدينية منا ، فانهم عسى أن يبينوا منها : أي نواحي
التعليم الاسلامي هي التي يجب أن توضح وتخرج إلى النور لهذه الدنيا
التي هم يعيشون فيها ، إنه لما نزل هذه الدنيا تجرب حضارة المذهب
المادي منذ قرون ، وقد أزهقتها هذه التجربة ، وإن حرية الفكر
وروح التحقيق التي أعطينا أهل الغرب ترياقها قبل قرون قد خلطه
القوم بأنفسهم بسم اللادينية والمادية بغير علم ، وهيؤوا باختلاط هذا
وذاك مركب حضارة جديدة ، وقد ظلت عناصر الترياق في هذا
المركب تصعد بالقوم في سلم المجد والرفق ، ولكن عناصره السامة
أيضاً بقيت تعمل عملها في أثناء ذلك حتى تغلب أخيراً تأثير هذا
السم على العنصر الصحي منه ، وأصبح أهل الغرب ، بعدما ذاقوا
النتائج المرة لهذه الحالة طويلاً ، يتطلعون إلى ماحولهم ليجدوا مزيداً
من ذلك الترياق ، وإنهم لا شك قد علموا أي أجزاء مركبهم هي

السامة ، وقد جربوا أيضاً التأثير الواقع في حياتهم لتعامل تلك الاجزاء ، وقد عادوا كذلك يشعرون شعوراً واضحاً بأنه أي نوع من الترياق هم يحتاجون اليه لحسم تلك الآثار السامة ، ولكن الذي لا يعلمونه هو أنه لا يوجد ذلك الترياق المطلوب إلا عند الاسلام ، وأنهم لن ينالوا الجرعة من هذا الترياق إلا من تلك الصيدلية التي تناولوا منها الجرعة الاولى منه ، فلو أن القوم يظنون يتيهون الآن في طلب الترياق حتى بعد كل هذا الشعور باحتياجهم اليه ، ويروحون يسممون العالم بسم حضارتهم لكونهم لم يجدوا الترياق ، فان علماء الاسلام لابد أن يكونوا شركاءهم بالسوية في هذا الاثم العظيم ، وذلك لان هذه الظروف لا تصلح — وايم الله — لان ينهمك فيها علماءنا في مسائل اللاهوت وما بعد الطبيعة وفي المناقشات حول الجزئيات الفقهية ويتركوا ما هو أكبر وأهم ، وإن المسائل من مثل : هل أوتي رسول الله — ﷺ — علم الغيب أم لم يؤت ؟ وهل يقدر الله تعالى على أن يقول الزور أم لا ؟ وهل من الممكن أن يكون نظير لرسول الله ؟ وما حكم الشريعة في زيارة القبور وإيصال الثواب إلى الاموات ؟ وهل يجب الجهر بكلمة آمين خلف الامام ورفع اليدين في الصلاة أم لا ؟ وكم يجب أن يكون بين المنبر والمحراب في المسجد ؟ إن هذه وما شاكلها من المسائل الكثيرة التي لا تزال الشغل الشاغل لهداتنا الدينيين وهم يضعون قواهم في حلها لا أهمية لها أصلاً عند هذه الدنيا المعاصرة ، وإن حلها والتصفية في بابها لم يكن لينفي في شيء عن تصفية أمر الصراع الجبار القائم بين الضلالة والهدى في العالم كله ، فالضرورة الحقيقية

اليوم هي أن تفهم تلك المسائل التي قد نتجت عن بقاء العلم والمدينة يتعرعان في حضن اللادينية وإنكار الوجود الإلهي على طول القرون ، وأن تدرس دراسة تحليلية عميقة ، ثم يعرض حلها على ضوء مبادئ الإسلام . هذا هو واجب الساعة ، ولئن لم يتأهب علماء الإسلام للقيام به ولم يبذلوا لذلك جهدهم فإن جميع تلك الأزمات التي قد واجهت بلاد الغرب إلى الآن قد أخذت تظهر بكل شدة في كافة أقطار المسلمين وفي وطننا الهندي أيضاً ، ولما لم يكن ممياً هناك الحل الصائب لتلك المضلات ، فإن المسلمين وغير المسلمين جميعاً لا يزالون يستعملون لملاحها تلك التدابير المخطئة التي قد زاووها الغربيون الذين هم بأنفسهم مرضى ، ولم يعد الأمر إذن يختص الآن بأوروبا وأميركا وحدهما ، بل هو أصبح يمس وطننا نحن وأجيالنا القادمة أيضاً .

لهذه الأسباب كلها نود أن يطالع خطبة اللورد لوئين هذه كل من رجالنا المثقفين وعلمائنا الدينيين بوعي وتفكير . وإنا نسرد فيما يلي أجزاء من هذه الخطبة وسنوضح في أثناءها بعض مطالبها حسب الضرورة تسهيلاً للقراء في الوصول إلى مغزى الكلام .

إن اللورد لوئين يبتدىء بمحثة بالكلمات الآتية :

« هناك أمر آخر يطلب البحث والدرس ، أريد أن ألفت نظركم إليه ، وهو أنه هل يمكن للهند أن تسلم من مضرة التعليم العقلي الساتيفيكي لهذا العصر ، تلك المضرة الشديدة التي قد أصابت أوروبا وأميركا في الوقت الحاضر .

إن العلم الحديث في الغرب قد أدى إلى أمرين عظيمين : ففي جانب قد وسع هذا العلم سيطرة الإنسان على الفطرة وقواها ، وفي جانب آخر قد أضعف سلطان الدين الموروث على الجيل المتخرج من الجامعات وعلى سائر الناس على العموم ، وكل ما يوجد اليوم من المفسد في هذه الدنيا المعاصرة فإن نصفه على الأقل آت من هذين السببين . فالإنسان المتعلم قد كاد يسكر بنشوة القوة والمقدرة الهائلة التي قد زوده بها العلم (Science) ، ولكنه لم يتقدم في سبيل الاخلاق مثل تقدمه في المدنية والعلوم ، مما يكون ضماناً بأن لا تستخدم هذه القوى لهلاك الإنسان ، بل لفلاحه .

قد أشار الخطيب الفاضل في هذه المقدمة لكلمته إلى مسألة جوهرية من مسائل الحضارة والتمدن الإنساني ، وهي أن العلم (Science) من حيث هو علم لا يعدو أن يكون ولوعاً بالبحث والتحقيق والتنقيب والاجتهاد ، يطعم الإنسان بعقله على القوى السرية لهذا العالم الطبيعي ويهيئ الوسائل لاستخدامها . وهذه القوى الجديدة التي يمتلكها الإنسان برقي هذه العلوم إذا أخذ يستعملها في حياته العملية اليومية فذاك يقال له رقي المدنية ، ولكن هذين الأمرين في ذاتهما لا يضمنان فلاح الإنسان وسعادته ، إذ أنها كما يكونان سبباً لفلاحه قد يكونان سبباً لهلاكه . واثن كان الإنسان قد صار يعمل بالمكنة بدل أن يعمل بيده ، ويقطع المسافات بالقطار الحديدي والسيارات والسفن البخارية والطائرات بدل أن يقطعها

على ظهور الأنعام ، وصار نظام بريده يجري بآلات البرق واللاسلكي بدل محطات البريد القديمة ، فليس معناه أن الإنسان قد عاد أسمعده وأرضى مما كان في الغابر ، لأن هذه الأمور كلها كما قد تزيد في سمادته ورخائه قد تزيد أيضاً في نكبته وهلاكه ، وإن دور المدنية الذي لم يكن يملك فيه الإنسان من آلات الحرب إلا الرمح والسيف ، لم يكن يضمن من أسباب الهلاك والدمار ما يضمنه هذا التمدن الذي قد اخترع الإنسان فيه من تلك الآلات المدافع الرشاشة والغازات السامة والطائرات والغواصات . أما أن يكون رقي العلم والمدنية مبعث السعادة أو سبب النكبة والهلاك فالأمر موقوف على الحضارة السائدة التي يتم في ظلها ارتقاء العلوم والفنون والمدنية والتحضر ، وإن الحضارة هي التي تبين في الحقيقة طريق الارتقاء وتحدد غاية أعمال الإنسان وتعين كيفية الانتفاع بما يكتشف الإنسان من القوى ، وهذه هي التي تقرر نوعية العلاقة بين الناس ، وهي التي تضع المبادئ للحياة الاجتماعية وتسن قوانين الأخلاق في دائرة الشؤون الفردية والقومية والدولية ، وبالجمله إن الحضارة هي التي تؤهل الذهن الإنساني للحكم في أمر القوى الحاصلة بفضل رقي العلم بأنه كيف يدخلها في نظام مدنيته ولأي غرض وبأية صورة يستخدمها وماذا يختار من وجوه استعمالها المختلفة وماذا يرفض . وإن مشاهدات العالم الطبيعي (Physical World) ومعلومات القوانين الطبيعية لا يمكن أن تكون أساساً لحضارة سامية ، لأن هذه المشاهدات والمعلومات لا تجمل الإنسان إلا في منزلة حيوان

عاقِل ، ولا تعين إلا على أن تُتخذ للحياة تلك النظرية التي هي
نظرية الماديين ، وهي أن الإنسان تنحصر حياته كلها في هذه
الدنيا ، وغايته النهائية أن يحقق رغباته الحيوانية في هذه الحياة
بأكثر ما يكون من الجودة والكمال ، وأن الوجه الحقيقي لاستعمال
القوة هو أن ينسجم الإنسان مع ما يجري في هذا الكون من
قانون التنارع للبقاء والانتخاب الطبيعي وبقاء الأصح فيُخضع ويهين
كل من حوله من الخلائق ويتغلب عليهم . فالحضارة التي اتخذتها
أوروبا كانت تقوم على هذه النظرية للحياة ، وكان من عاقبة الأمر
أن جميع القوى التي تسليح بها الإنسان بفضل رقي العلم والتقدم
غدت تستعمل لهلاك الإنسانية لا لسمادتها وفلاحها ، وعاد أهل
الغرب أنفسهم يشعرون بأنهم في حاجة إلى حضارة إنسانية أسمى
مما هم فيه من الحضارة الحيوانية ، وأنه لا يمكن أن يكون أساس
تلك الحضارة المطلوبة إلا الدين .

يقول الورد لوئين بعد ذلك :

« لا ريب أن الروح العلمية التحقيقية (Scientific Spirit)
قد بددت الأوهام القديمة شيئاً فشيئاً ووسعت دائرة العلم وحررت
بذلك الرجال والنساء من كثير من الأغلال التي كانت عليهم من
قبل ، ولكنها مع هذا كله قد تركت الإنسان شديد الافتقار إلى
الحق والصدق في باب الروحانية والدين ، ولم تمهّد له طريقاً
للوصول إلى ذلك الحق ، فحال الأكثرية من أهل الغرب الآن
أنهم كالصغار مغرمون بسرعة النقل وإتيان الأعاجيب والتلذذ

بالذات الحسية ولم يعودوا أهلاً لأن يحيا حياة ساذجة طبيعية ولم يبق هناك من صلة — فعلاً — بينهم وبين تلك الحقيقة الأزلية الأبدية الانتهائية التي يعرضها الدين .

وإننا نرى الآن من نتائج زوال سلطان الدين — وهو هادي الإنسان الذي لا مندوحة له عنه والوسيلة الوحيدة لتحلية الحياة الانسانية بالهدف الأخلاقي والشرف والمعنوية — أن الدنيا الغربية قد كلفت بتلك المذاهب السياسية التي تقوم على مفارقات النسـل والطبقية ، وآمنت من بين وجوه العلم (Science) المختلفة بذلك الوجه الذي يستهدف الرقي المادي وحده ، والذي يجعل الحياة الانسانية متعقدة مستثقلة يوماً بعد يوم ، ومن نتائج ذلك أيضاً أنه قد أصبح من الصعب لأوروبا اليوم أن تخلق بين حياتها — وروحها من التلاؤم ما ينقذها من أكبر آفات هذا العصر وهي القومية الضيقة .

ويوجه اللورد لوثين بعد ذلك سؤالاً إلى أصحاب الثقافة الجديدة من أهل الهند ، فيقول :

« هل الديانتين الكبيرتين في الهند أعني الديانة الهندوكية والإسلام أن تقاوما روح النقد والتحقيق السائدة في هذا العصر الجديد بنجاح أكثر وأتم مما قاومتها به العصبية الدينية الموجودة في الغرب ؟ هذا السؤال في غاية الأهمية ، لأنه إن أريد بالهند السلامة من تلك النكبات التي قد حلت بأهل الغرب فمن واجب زعماء الفكر والدين في هذا القطر أن يركزوا عنايتهم كلها على

هذا السؤال ، وما من شك أن روح التحقيق متمحو رويداً رويداً عناصر التوهم والجاهلية التي هي منتشرة في عامة أهل الهند إلى الآن ، وسيكون ذلك حسناً ولكن هل لا يؤثر ذلك في أذهان الذين سيكونون في المستقبل زعماء الحياة السياسية والمدنية والصناعية في الهند ولا ينزع منها كل ما لهاتين الديانتين من المبادئ الخلقية والقيم الروحية ؟ إنني لا أدعي المعرفة بدخائل حياة الديانة الهندكية والاسلام ، ولكنه يحيل إلي أن كلاً منها تضمنت في ذاتها على حدة تلك العناصر التي ستجعلها قوية على استبقاء سلطانها على الشبان والرجال من طلبة الجامعات . أما النصرانية فقد أخفقت في هذا الأمر لبعض القيود الاعتقادية الخاطئة التي حجبت ما كان لزعم هذه الديانة الجليل من التعاليم الصادقة الحقّة .

إن الورد لوئين — كما اعترف بنفسه — لا يعلم في الحقيقة شيئاً عن الديانة الهندكية والاسلام ، وإنما لمح من بعيد لأشياء في الديانة الهندكية وأخرى في الاسلام قد تنجح — في رأيه — في استبقاء الطبقة المثقفة مؤمنة بمبادئ الأخلاق والروحانية العليا بازاء النقد والتحقيق الجديد . ولكن الذين لهم معرفة تفصيلية داخلية بهاتين الديانتين بل بجميع الديانات في الهند لا يخفى عليهم أنه إن كان هناك دين يمكن أن يثبت في وجه روح النقد والتحقيق المصري ، بل بعبارة أصح يمكن أن يتقدم باتباعه إلى الأمام بتلك الروح ويصبح دين النوع الانساني بأكمله في عهد الرقي والنور فما هو إلا الاسلام . وهل رأيت لماذا أخفقت النصرانية في الغرب ؟ لأنها ليست بمذهب

اجتماعي (Social) بل هي ضد للاجتماعية . انها لا تعنى إلا بنجاة الفرد ، وإن السبيل الذي قد اقترحته لنجاته هو أن يعرض عن الدنيا ويولي وجهه شطر الملكوت السماوي . وهذا هو السبب في أنه لما سارت الأمم الأوربية خطوات في سبيل الرقي قامت النصرانية تعارضها بدل أن تجفزها على السير . واضطر القوم لكي يعضوا إلى الأمام إلى أن يحطموا قيود هذه الديانة . ومثل هذا هي حال الديانة الهندكية . فانه ليس بيدها أيضاً فلسفة ناهضة ولا قانون خالق مستند إلى العقل ، ولا نظام اجتماعي قابل للتوسع والشمول . إن العامل الأقوى الذي قد لمّ شعث الأمة الهندكية إلى الآن في دائرة نظام اجتماعي ومنعها من التأثر بالحضارات الأخرى هو نظام طبقات النسب (Caste System) فيها . ولكنه من المحتوم أن تنحل قيود هذا النظام إذا ما احتك بروح النقد والتحقيق المصري ، وستنحل لا محالة . وإذا حدث ذلك فلن يكون هناك ما يمنع المجتمع الهندي من التمزق والانحلال ، وستعود إذن أبوابها المقفلة إلى الآن مفتوحة على مصراعها للمؤثرات الخارجية . ثم إننا نرى مع ذلك أن ما عند الهنالك من القوانين العتيقة المدنية والاجتماع وما هم عليه من الأوهام الوثنية والأخيلة الفلسفية التي لا تستند إلى العقل أو العلم ، لا يمكن كل ذلك أن يثبت أمام الرقي العلمي والوعي الاجتماعي لهذا العصر . وعلى هذا كله تتقارب الأمة الهندكية يوماً فيوماً إلى مفرق طريقين سيقضى لديه أمر . مستقبلاً ومستقبل القطر الهندي إلى حد بعيد .

فلما أن تبقى هذه الأمة ثابتة على ذلك التعصب الشديد على الإسلام

الذي كان غلب الأوربيين النصرانيين عند النهضة العلمية في أوروبا ،
فتسقط الإسلام عن اعتبارها وتتخذ سبيل الحضارة المادية كالذي كان
فعل أهل أوروبا من قبلها ، وإما أن تقبل الإسلام ويروح أفرادها يدخلون
في دين الله أفواجا .

ويتوقف الفصل في هذه القضية — إلى حد بعيد — على سلوك
المسلمين الهنديين ، وبالأخص المعلمين ذوي الثقافة القديمة والجديدة
منهم وذلك أنه لم يكن الإسلام ليأتي المعجزات بمجرد اسمه ، ولا يمكن
ظهور المعجزة من مبادئه ما دامت مكتوبة في الأوراق وكفى . إن
التشتت والخطأ العملي الذي لا يزال عليه المسلمون الآن ، وإن الجمود الذي قد
غلب علماءهم ، وإن التأثير والانفعال الانثوي الذي تظهره من نفسها
أجيالهم الناشئة المتعلمة ؛ إن ذلك كله مما لا يتوقع أن يستطيع معه المنتمون
إلى الإسلام حتى الثبات في موقفهم الحاضر ، دع عنك أن يفتحوا روح
الحضارة الهندية ويغلبوا الإسلام على القطر بأجمعه . وذلك أن ثبات جماعة
ما في مكان واحد وسط تيار قوي من الثورة لمن غير الممكنات . إن مثل
هذه الجماعة لا بد أن تتخير بين أمرين : إما أن تنساق مع التيار ، وإما
أن تقوم قومة الأسد فتحول بقوتها وجه التيار . وهذا الوجه الأخير
لا يمكن تحقيقه إلا بأن تصلح أولاً حالة المسلمين الخلقية على العموم وتبث
فيهم روح الحياة الإسلامية ، وأن يتبادر ثانياً علماء الإسلام وأصحاب
التعليم الجديد من المسلمين فيتدارسوا مسائل الحياة الجديدة ويتفهموها
على ضوء مبادئ الإسلام ، ثم يحلوها من الناحية العلمية بصورة واضحة

مقنعة حتى يعترف كل امرئ سليم الفكر - ما خلا المنعصبين العميان -
بأنه لا يمكن لغير الحضارة الاسلامية أن يكون أساساً سالماً صحيحاً
لتمدن فاهض .

إنه لا يزال يوجد في الهند إلى الآن تصور صراع العلم والدين ،
الذي كان يسود في أوروبا قبل خمسين أو ستين عاماً . ولكنه قد تغير
الوضع أخيراً في أوروبا وقد كاد يتغير أيضاً في الهند الآكلة من فضالة
المائدة الغربية ، وقد اقترب الزمان الذي سيزول فيه هذا التعصب على
« الدين » من الناحية العلمية والعقلية على الأقل . ولكننا لن ننتفع بذلك
الوضع إلا أن نكون مستعدين له من ذي قبل . وقد أشار إلى ذلك اللورد
لوثين بكلمات موجزة آتية :

« إنه قبل ستين سنة كان يقوم بين العلم والدين صراع لا يرجى أن
ينتهي أبداً . وكان بين التصور الروحي والتصور المادي للحياة حرب
شديدة يخيل إلى المرء أنها لن تنتهي قبل أن يفنى أحد الجانبين فناء كاملاً .
ولكنه جاء الفريقان اليوم وقد وضع كل منهما الأوزار . فلا العالم الطبيعي
(Scientist) ولا الرجل الديني يدعي الآن بحزم أنه قد وفق لحل لغز هذا
الكون . بل الحق أنه قد صار كلاهما يشك - عند نفسه - في أنه هل
يعرف شيئاً عن هذا اللغز أم لا يعرف . ومن ثم قد صار من الممكن أن
يمتزج العلم والدين امتزاجاً كان من المستحيل في أوائل مسورة التحقيق
العلمي » .

إن اللورد لوثين لا يكاد يتحرر على كل حال من التصور المسيحي

للدّين . ولم يبلغه ما جاء به الاسلام من تصوّره العقلي . لذلك فإن أقصى ما يفكر اللورد هو أنه من الممكن الآن أن يتم بين العلم والدّين نوع من الامتزاج . ولكننا نعتبر هذا الامتزاج بين العلم والدّين شيئاً لا يعقل . لأننا نعتقد أن الدّين الحقيقي هو الذي لا يكون منفصلاً عن العلم بل يكون منه بمنزلة الروح والقوة الموجهة ، وأن الاسلام في الحقيقة دين من هذا الطراز ، وأن كان هناك ما يمنعه اليوم أن يكون روحاً في هيكل العلم فهو ليس بنقص داخلي فيه بل هو غفلة متبعية وتجاهل أصحاب العلم الطبيعي المصري وتعصّبهم الجاهلي عليه . ولو أنه يزول اليوم عن طريقه هذان العائقان فلن يكون الاسلام إلا روحاً سارية في جسد العلم .

وقد بحث الخطيب الفاضل بعد ذلك أنه أي نوع من الدّين يستطيع أن يقف أمام الوعي العلمي والنقد العقلي الذي طلع به هذا العصر وما يجب أن تكون مزايا الدّين الذي يفنقر إليه الانسان في عصر النور هذا ، وما هي المطالب الحقيقية التي يلتمس الانسان لأجلها هداية الدّين . وهذا الجزء من خطبته هو أجدر بالناية والامعان ، فيقول اللورد :

« إن كنت لا أخطيء في تقدير الأوضاع الراهنة فإن من الحقيقة أن الاختيار الذي قد تعرض له الدّين في هذا الوقت لن يخرج منه فائزاً إلا إذا اطمأن الجيل الناشئ بعد ما يمتحن نظامه الداخلي أنه يضمن الحل الأقوم لكل ما يواجهه في الحياة من المسائل العملية والمشكلات المزعجة المتعقدة . وذلك أن النحلة الشخصية قد مضى زمانها . وإن الديانة الماطفية المحضة أيضاً لم تعد مطلوبة أحد الآن . وقد انتهى كذلك عهد ذلك الدّين الذي

لا يهدي من بال الفرد ولا يشد أزره إلا بأن يعطيه تعاليم قليلة بشأن سلوكه الخلقى ويبحث في نفسه أملا في نجاة لن يتكشف أمرها إلا بعد المئات . وإنما الانسان العلمي المصري يريد أن يتمتع كل شيء حتى الحق والصدق على محك النتائج البينة . وإن كان عليه أن يتبع الدين فهو يطلب أن يبين له الدين ماذا بيده من حل مسائل حياته العملية . أما الأمل في حصول النجاة بعد سلسلة متكررة من المواليد في هذه الدنيا أو الرجاء في التوصل إلى الملكوت السماوي بعد اجتياز باب الموت ، فليس من الأمر الذي يدفعه إلى اعتناق الدين على أساسه وحده . انه يطلب من الدين أن يزوده قبل كل شيء بذلك المفتاح الذي يفتح به الحقيقة المغلفة لهذا الوجود ، ويهتدي إلى حل للغمز تطمئن اليه النفس ، وأن يبين له ثانياً بإقامة البرهان على الصلة الواضحة بين الملة والمعلول والسبب والنتيجة على النحو العلمي السانتيفيكي أنه بأي وجه يمكن الانسان أن يسخر تلك القوى التي قد انفلتت من يده الآن ، وقد جاءت تهدد نوعه بالهلاك والبوار بدل أن تنفعه ، وبأي طريق يتغلب على المفاسد الاجتماعية المنتشرة في بني جنسه كالبطالة ، وعدم المساواة والظلم والاعتداء والحرب والقتال ، وكيف يمنع التنازع بين الأفراد وتبدد النظام العائلي ، الذي قد ذهب بمباهج الحياة الانسانية كلها .

إن الانسان لا يتطلع اليوم إلى الدين إلا بسبب أن العلم (Science) قد زاد في مشكلاته بدل أن يحلها . فهو مضطر لأن يطلب من الدين حلا لشبهاته ومشكلاته اضطراراً لم يعهد فيه من قبل . فإذا كان الدين يريد الآن أن يحتفظ بمكانته ويستعيد ما زال من سلطانه فعليه أن يجيب

كل هذه الاسئلة جواباً روحياً، يكون في الوقت نفسه علمياً ساتيفيكياً، ويمكن أن يختبر صدقه على محك النتائج في هذه الدنيا ، بدون أن يحال ذلك على الحياة الاخرى بعد الموت . إنا - أهل الغرب - نعلم أن هذا هو السؤال الأخطر الأم الذي قد واجهنا في هذا العصر . فهل باستطاعتكم - معشر أهل الهند - أن تحيوه وتجدوا له حلاً ؟ .

وإذا مر القارئ على هذا الجزء من خطبة اللورد لوثين فانه ليخيل اليه أن هناك ظمآن لا يعرف وجود الماء ولكنه يحس بكيفية ظمئه أصدق ما يكون من الاحساس . فهو يمضي يبين لنا أن أوام كبده يتطلب شيئاً يكون فيه هذا وهذا من الصفات . فلو أننا نضع أمامه في هذه الحالة كأساً من الماء لصاحت فطرته من الفور أن هذا هو الشيء الذي يتمشى اليه ، ووثب نحوه ليشربه . وليس هذا ينخص اللورد لوثين وحده ، بل الامر أن الذين قد لفحهم سمير الحضارة والمدنية الغربية في أوربا وأميركا وسائر العالم ، وقد جاوزوا الحافة الشجراء من صحراء الفلسفة والعلوم إلى قلبها الرمي القفر الذي لا ماء فيه ولا ظل ، قد أصابهم جميعاً مثل هذا الاوام ، وهم كلهم يتطلبون شيئاً بتلك الصفات التي ذكرها اللورد لوثين ، وهم كلهم لا يعرفون اسم الماء ولا أين يوجد . ولكنهم يصيحون الفينة بعد الفينة : « ظمئنا الفؤاد فهاها يا ساقى ! »

إن الماء لا ريب قد سمع القوم باسمه ولكنهم يرتاعون لهذا الاسم لجرد أنهم لم يجدوا مسماه الحقيقي . وأما الذي قد بلغهم عنه من أسلافهم الجاهلين المتعصبين فهو أن الماء شيء مسموم جداً يجب أن لا يقاربه أحد . ولكنهم

قد بلغ منهم التملش أن لو وضع أمامهم الشيء بذاته بدون أن يعلن اسمه فلا جرم أن يصبحوا أن هذا هو الذي هم يظماؤن إليه . ولو يقال لهم أنه هو (الماء) الذي كانوا يهابون ذكره لقضوا العجب من هذا الخدام الذي قد انخدعوا به إلى الآن .

إن الإنسان العلمي المصري ، قد امتحن النصرانية وخبر ما عندها جيداً . وقد تجلى له كالشمس أنها ليست العلاج الشافي لمرضه . وبمسد النصرانية قد تروقه وتسحر لبه الديانتان: الهندكية والبوذية ، لفلسفاتها الخيالية الاسطورية واتبعدهما للقديم على الوجه التقليدي التاريخي ولكن فشل هاتين الديانتين أيضاً يفتضح لأول امتحان النقد والتحليل العلمي ، فأما البوذية فتكاد تكون طبعة هندية للنصرانية . وأما الديانة الهندكية فهي تخلق بنفسها تلك المشاكل والمقد التي لأجل التخلص منها يشمر الإنسان العلمي المصري بضرورة الدين . فهي التي تشجع على عدم المساواة بين الإنسان والإنسان أكثر من غيرها ، وتجميل المراهبة واستثمار الأموال الذي هو أقبح صور السلب والنهب الاقتصادي جزءاً لنظامها لا ينفك . وتبقى على السبب الحقيقي لقيام الحروب - وهو التفريق بين المجتمع الإنساني بمفارقات الجنس والنسل ، وبعث المنافسة النسلية بين أفراد - شيئاً متأصلاً في أساسها لا يبرحه . فالنظام الذي قد قررته هذه الديانة للحياة الاجتماعية ليس من شأنه أن يصل بين الأفراد الإنسانيين ، بل هو يقسمهم على شق الأجناس والطبقات . وإن قوانين اجتماعها تبلغ من الخلقة والبلبى بحيث قد اضطر أبناء البيوتات الهندكية النازلة من آلاف السنين أنفسهم أن

يلفوها في عصر الوعي العلمي والعملية هذا . ذلك بأن تلك القوانين لا تقوم على أساس من العلم والعقل ، بل تستند إلى العصبية والالوهام . ثم إن هذه الديانة توجد أضغف وأفقر فيما وراء هذه المسائل الدنيوية من مسائل اللاهوت والاخلاق فليس عندها مفتاح لفتح المغلق من حقيقة هذا الكون بطريقة مقنعة ، وعقائدها من جنس العقائد التي لا يطلب فيها إلا القبول والاذعان ، ولا يمكن أن يثبت شيء من ذلك ببرهان علمي أو عقلي . وأما في نظام الاخلاق فلا شك أن الديانة الهندكية تقدم طلبها من المفروضات الرائعة المعجبة كما قدم واحداً منها في أيامنا هذه الماهاتما غاندي ، ولكنه يخلو من البرهان العقلي والحكمة العملية (Practical Wisdom) وفي عصر الوعي العلمي هذا لا بد أن يفتضح فشله عما قريب ، إن لم يكن قد افتضح بعد .

ولا يبقى في المضمار بعد ذلك الا الاسلام . وهو الذي يثبت على المحك ويوافق كل معيار من تلك المعايير التي يطلبها فعلا الانسان المعاصر المصري ، أو يمكن أن يطلبها لدينه المنشود .

أما القول بان الدين مسألة شخصية فقط ولا صلة له إلا بالضمير الفردي وحده ، فقد أصبح من خبر كان . إنه من جملة السخافات الفكرية التي راجت في القرن التاسع عشر ، فلا ينفك يرددها في الهند في هذا العقد الرابع من القرن العشرين أولئك المحافظون الذين قد تعودوا السير خلف العالم على مسافة خمسين عاماً أبداً ، على رغم ادعائهم للتجديد والتقدم . وذلك أنه قد أصبح أو كاد من المسلم به الآن انه لا يمكن تصور الفرد منفصلاً عن الجماعة ، اذ كل فرد إنساني قد ارتبط بفرد

آخر بما لا يحصى من الاواصر الكبيرة والصغيرة ، وليس المجتمع في
جملته الا كالجسم الحي يكون فيه الافراد بمثابة الجوارح والاعضاء .
وان كانت هناك ضرورة الدين فهي ليست للفرد وحده لطمأنينة قلبه
ونجاته بعد المات ، بل هي للجماعة كلها لكي تنظم أمرها وتدبر جميع
شؤون حياتها الدنيوية على ضوء هدايته . وان انهدمت ضرورة الدين
فهي تنعدم للفرد أيضاً كما تنعدم للجماعة . ومن التصور الصياني السفيف
أن يكون نظام الحياة الاجتماعية على وضع وتكون عقائد الافراد وأعمالهم
الدينية على وضع آخر مختلف لا صلة بينها وبين ذلك النظام ، لان العقائد
والاعمال الدينية ان لم تكن مرتبطة بالحياة الاجتماعية برباط ، فانها شيء
عبث يخلو من كل فائدة . وليس ذلك فقط ، بل هي حرية أن تضف
وتضمحل في نظام اجتماعي لا تتعامل مع أجزائه الاخرى . ومن ذلك
لا يمكن أن يكون الامر الا على أحد اثنين : إما أن يكون نظام الجماعة
بأكملها لادنيا صرفا ويطرد الدين من حياة الانسان طرداً تاماً ، كما هو
مذهب الشيوعيين . وإما أن يكون النظام الاجتماعي بأكمله دينياً ويمتد
بكون الدين هادياً ومرشداً لكل من العلم والمدنية ، كما يقتضيه الاسلام .
ولطالما جربت الدنيا الصورة الاولى منها ، فنتجت عن هذه الشجرة
الخبيثة تلك الثمرات الكريهة المرة التي قد ذكرها اللورد لوثين . وهذه
هي التي كان يمكن أن تنتج عن تلك الشجرة فنتجت بالفعل وستنتج أبداً
فيما يستقبل . فليست نجاة الدنيا الآن إلا في الصورة الاخرى ويبدو أن
فرصة ظهورها إلى حيز العمل لا تزال تتقارب يوماً بعد يوم .

ولكن الانتفاع بهذه الفرصة أو تضيقها للأبد كما مر متوقف على المسلمين . إن مجرى الحوادث قد جاء بالدين والقطر الهندي أيضاً لكونه جزءاً منها إلى موقف هام يمكن أن تميل منه إلى الاسلام ، كما يمكن ان تميل إلى المادية ودرك الفساد الخلقى الأسفل . وإن ميلانها الآن بالطبع إلى هذا الطريق الآخر لكونها قد سارت فيه منذ زمان ، مع أنها خائفة مذعورة ، لما ترى من مهالك هذا الطريق ، وتردد نظرها في فزع إلى الجهات الأربع لتجد سبيلاً للفرار . ولكن سبيل الفرار والنجاة لاتراها عيونها هي نفسها لما يغشاها من ظلام التعصب . انها في الحق لفي حاجة الان إلى رجال من أهل الاسلام ينهضون بالعزم والجد فيزيحوا النشاة من أبصارها ويبرهنوا لها أن صراط الاسلام المستقيم هو وحده سبيل النجاة مما هي فيه . إن مثل هذه الجماعة المجتهدة والمجاهدة لو تنبث من بين المسلمين اليوم فانه يمكنهم أن يصبحوا قادة العالم باجمعه، ويستعيدوا مكانة العز والشرف التي كانوا عليها في الغابر ، والتي يرون عليها اليوم الامم الغربية فيتحلب ريقهم حرصاً على اتباعها . ولكنه إن بقي جمهور هذه الامة متقاعدین هكذا بضعف الهمة وخور المزيمه ، وبقي شبابها هكذا يظنون غاية كمالهم في اقتنيات فضائل الغير ، وبقي علماءها متشبثين كما هم الآن بالمناقشات العميقة حول مسائل الفقه والكلام التي قد ولى زمانها . وبقي من هو ان قادتها وزعمائها السياسيين ومن حالتهم المذهنية المتخلفة أن يظنوا السير في مؤخر ركب الامم الاخرى أعلى مراتب المزيمه والنضالية ويعتبروا دفع أمتهم إلى الخداع الاكبر من خدع

هذا القرن العشرين غاية الكياسة والحكمة .. وبالجمله إن بقي كل أجزاء
هذه الامة ، من الايدي العاملة إلى الاذهان المفكرة والنفوس الواعية،
على تعطلها أو على تمسفها وخرقها ولم يتقدم من هذا الحشد العظيم المشتمل
على مئات الملايين من الافراد رجال قليلون قد تشمروا لمزاولة الجهاد
والاجتهاد في سبيل الله .. فان هذه الامة المسلمة أيضاً ستتبمع الدنيا
إلى ما هي منحدره اليه من الدرك الاسفل وتهوي في هاوية الهلاك
مشدودة بذيلها ، وسينادي الغضب الالهي مرة أخرى :
ألا بُعداً للقوم الظالمين ! .

النزاع بين الشرق والغرب في تركيا

(مجموعة خطب السيدة خالدة أديب خانم)

زارت الهند في الماضي القريب الفاضلة المجاهدة التركية السيدة خالدة أديب خانم بدعوة من الجامعة الإسلامية ، وألقت بضع محاضرات في عاصمة دلهي ، قد قام بترجمتها إلى اللغة الأردنية أسناد الجامعة الفاضل الدكتور عابد حسين بعنوان « النزاع بين الشرق والغرب في تركيا » .
وزيد فيما يلي أن ننظر في هذه المجموعة من المحاضرات نظرة نقد وتحليل.
إن في العالم الإسلامي الآن قطرين اثنين يتبوءان منصب القيادة بين مسلمي العالم باعتبارين مختلفين : هما مصر باعتبار المعنوي وتركيا باعتبار السياسي . أما القطر المصري فتربط به الأمم الإسلامية بعلاقات أوثق وأعمق ، لأن لغته هي العربية ، اللغة القومية المشتركة لجميع الأمم الإسلامية ، ولأن مطبوعاته تنتشر بين مسلمي العالم كله ويمتد تأثيره الفكري إلى الصين شرقاً وإلى مراکش غرباً ، ثم هو الذي هو أكبر وسيلة للارتباط والتفاهم بين المسلمين والتعرف على أحوالهم في مختلف أقطار الأرض . وأما تركيا بخلاف هذا فلا ريب أن العالم الإسلامي كله

يجل ويكبر ما لهذه الأمة من حياة نضالية وما قامت به من الدفاع الجريء في وجه الحملات الغربية وما قدمته من التضحيات في سبيل العز والشرف القومي ، ولهذا كله تحتل هذه الأمة بين المسلمين مكانة السيادة والقيادة ، ولكنه مع هذا كله قد جاءت غرابة اللغة وفقد أسباب التفاهم والارتباط حاجزاً قوياً بين تركيا ومعظم الممالك الإسلامية ، وقد قلل ذلك من معرفتنا بالارتقاء الفكري في الأمة التركية ، وبتركيبها الذهني الحديث وبما أصابها من التطور في الناحية المدنية والسياسية والدينية والعلمية .
وقلما وجدنا الفرصة الكافية لأن نفهم — على الخصوص — كنه الأسباب الداخلية لتلك الثورات التي وقعت في تركيا في العقد الماضي من السنين . فكثير من الناس من يبتنا ساخطون على الأتراك ، وهناك منهم من يظنون بهم حسناً ، ومنهم آخرون قد جعلوا تقليد الأتراك للغرب حجة لتزوعهم أنفسهم إلى الحضارة الغربية . ولكنه ليست المعلومات الموثوق بها في هذا الباب حاصلة عند أحد . وإن كان لدينا بعض المعلومات فهي لا تكفي لتفهم روح تركيا الحديثة .

ففي مثل هذه الظروف نعد من حسن حظنا أن قد زارت وطننا وكشفت لنا عن باطن أمتها التركية شخصية لم تلعب على مسرح الثورة التركية دور الممثلة فحسب ، بل كانت قوة من القوى المهيمنة لتلك الثورة . وقد حباها الله بجانب ذلك بالنظرة العلمية التحقيقية والفهم الفلسفي والتعمق الفكري ، الذي تستطيع به هذه الفاضلة أن تفهم بنفسها العوامل الداخلية للأحداث الخارجية وتبينها أيضاً لغيرها من الناس . فهذه

أول مرة تسنح لنا الفرصة فيها لأن نعرف تركيا معرفة صحيحة عن طريق هذا المصدر الموثوق به . وقد حاولت هذه الفاضلة أن تزيح لنا الستر عن روح تركيا الحديثة وقد أخبرتنا بكل أمانة وصدق بأن الأمة التي لا تتولى قيادة العالم الاسلامي في المحيط السياسي فحسب ، بل هي عاملة على إحراز قيادتها الفكرية أيضاً ، ماذا حقيقتها الداخلية ؟ ومن أي العناصر تم تركيبها ؟ وما هي القوى العاملة في كيانها ؟ وما هي الأسباب التي قد زجتها إلى موقفها الحاضر ؟ وما هي وجهتها الآن وإلى أين تسير ؟ فهذا المجموع الموثوق به من المعلومات مفيد لنا باعتبار شتى . فليس من فائده الوحيدة أنه قد تبلور لنا واقع الأمة التركية كما هو ، بل من فوائده الكبرى أيضاً أننا نستطيع الآن أن نفهم روح ذلك الانحاء الذي لا تزال تتلقاه أجيالنا الناشئة من قبل تركيا فهي أصح وأكمل ، وأنه قد أتيحت لنا فرصة أخرى للتعلم في الأسباب الداخلية لهذه الثورة التي قد بدت طلائعها في العالم الاسلامي الآن .

وقبل أن نعرف التركيما الجديدة بواسطة السيدة خالدة أديب خانم ، يحسن بنا أن نعرف السيدة نفسها جيداً . إنه لا شك في أن السيدة التركية قلبها مسلم بكل معنى الكلمة ، فائض بالايان ، الذي ينبغي أن نغبطها عليه لأنه إيمان امرأة مجاهدة^(١) ثم لا تشوب أفكارها شائبة من

(١) تقول مع الأسف ان الذي اطلعنا عليه من أحوال الفاضلة التركية فيما بعد لم يدعنا نثبت على هذا الرأي أيضاً .

الاحاد والادينية . إنما تحب الاسلام ذلك الحب الذي يجب أن يعمر قلب كل امرأة خالصة الاسلام . ولكن كما أن قلبها مسلم ليس ذهنها مسلماً كذلك . إن السيدة أكثر ثقافتها هو الثقافة الغربية الجديدة وأكثر ما درست من العلوم هو العلوم الغربية . ومن ثم قد نظرت إلى الدنيا وإلى الاسلام وامتها التركية بالمنظار الاوربي، وإن مداركها الفكرية والنظرية قد انصاغت في قالب الغرب . ولا ريب أن ما تكنه نفسها من النزعة الاسلامية والشرقية قد عارض إلى حد كبير سيطرة النزعة الغربية هذه على ذهنها، ومن نتيجة هذا التعارض بين النزعتين في ذهنها وقلبها أنه يوجد في أفكارها كثير من التوازن والاعتدال بخلاف غيرها من زعماء الامة الثوريين ، ولكن هذا التعارض بين قلبها وذهنها لم ينجح السيدة من غلبة التأثير الغربي .

أما معرفة السيدة خالدة بالاسلام فتبدو محدودة جداً ، ولعلها لم تصرف من ساعات حياتها لمطالعة القرآن الكريم والسنة النبوية والتاريخ الاسلامي عشر ما صرفته لمطالعة الفلسفة الغربية وعلوم التاريخ والعمران . ومن ثم نرى أن أفكارها التي تلوح لنا من خلال محاضراتها لا شك تنسم بحسن الاعتقاد والايان ، ولكن ليس فيها من الفهم والبصيرة والتدبر شيء كثير .

ففي خطبتها الأخيرة تقول السيدة التركية : « إن شخصية غاندي انموذج كامل للاسلام الجديد » . فهذه الكلمة لا تخرج طبعاً إلا من لسان من لا يعلم ما الاسلام وما أرفعه عن النسبة إلى القديم أو الجديد، وكيف

يكون انموذجه الكامل. إن من كان له نظر في مزايا السيرة الاسلامية وكان قد اجتلى انماذج الكاملة لهذه السيرة فلا يملأ عينه حتى أ كبر أبطال التاريخ العالمي ، دع عنك غاندي أو أمثاله . ولا نقول هذا بدافع من العصبية القومية ، بل الأمر تثبته الحقائق التاريخية التي لا تجحد . تمثل في ذهنك سير أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وعلي المرتضى والحسين بن علي ، وأحمد بن حنبل وعبد القادر الجيلاني رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم ، ثم انظر بعين الانصاف من رجال التاريخ العالمي - عدا الانبياء عليهم السلام - يجدر بأن يوضع في مستوى هذه الشخصيات العالية الرفيعة .

إن السيدة الفاضلة ترى في تركيب المزاج السياسي للامة العثمانية آثار كل شيء : من خصائص الجنس التركي القديم إلى حضارة اليونان وبيزنطة والروم حتى إلى ديمقراطية أملاطون ، ولكنها لا تكاد ترى فيه أثراً لتعاليم القرآن الكريم والنبي العربي ﷺ . والحال أن الذي هذب أترك البادية من آسيا الوسطى وكساح حلة المدينة والعمران وخلق فيهم الصفات اللازمة لقيادة الدنيا مع القوة والمقدرة على غزو العالم ، ثم جعلهم قوة من قوى البناء والتعمير ، لا الهدم والتخريب ، لأنوع الانساني ، هو هذا التعليم القرآني الذي جاء به النبي ﷺ . إن أقصى ما لمحت السيدة خالدة أديب من أثر الاسلام في مقومات الجنس العثماني هو العدل والمساواة الاسلامية فحسب ، وفي هذا أيضاً لا توفى السيدة التعليم الاسلامي حقاً ، فهي لا ترى في موقف شيخ الاسلام جمالي افندي من السلطان سليم حين أراد نشر الاسلام في رعيته بقوة السيف فمنعه شيخ الاسلام من ذلك .

فأذعن لأمره سلطان جبار كمثل سليم . لا ترى السيدة في أعماق هذا الموقف الجليل إلا شعور القومية العثمانية وإلا التحمس لصون « مبادئ الحكم العثماني » بدل أن تجد فيها آيات المدل الاسلامي . ولا يخطر ببال السيدة أن فتوى الشيخ جمالي افندي كانت تحمل روح (لا إكراه في الدين) وإن الذي جرأه على ذلك الإفتاء في وجه السلطان سليم هو قوة اتباع الحق التي يبعثها الاسلام في قلب المرء وأن الذي أكره السلطان سليم على الخضوع أمام فتوى الشيخ هو عظمة الدين الاسلامي وحدها .

إن السيدة خالدة تبدو ضجيرة مما ترى في الطبقة الحاكمة الموجودة من حب التطرف والاستبداد والحرص على التنظيم الاجباري للحياة الاجتماعية والتقليد الغربي المفرط والتزعات المادية ، وخطتها المنحرفة في أمر الدين . إنها تريد امتزاجاً معتدلاً من « الحياة الغربية » و « الحياة الشرقية » وتريد موافقة بين « المادية » و « الروحانية » وهي تمتزج أيضاً بأن الامتزاج الذي يضمه الاسلام بين هاتين النظريتين للحياة هو الاحسن والاقوم . ولكنها ليست على بصيرة كاملة في الاسلام ، فلا تعلم ما هي الصورة الصحيحة لذلك الامتزاج ضمن مبادئ الاسلام وما هو خط القصد والاعتدال المستقيم بين جانبي الافراط والتفريط . على أنه إن تأملنا محاضراتها بصرف النظر عن آرائها الشخصية ، فانا نرى فيها بياناً واضحاً صحيحاً لمقولة تركيا الحديثة وميولها والاسباب التاريخية لتورثها . وهذا هو الذي نطلبه .

• • •

إن الأمة التركية - ونعني بها الاتراك العثمانيين - دخلت في الاسلام
 في عصر بدأ فيه انحطاط المسلمين الفكري والذهني ، فماتت فيهم روح
 الاجتهاد وإن بقيت روح الجهاد ، ونذر بينهم مفكرون متبصرون في
 الاسلام وعلماء متفقهون في الدين . فالخضارة الاسلامية قد اضمحلت من
 الضعف ، والفكر الاسلامي قد فارق الروح . وأصبحت الغلبة في الشريعة
 للتقليد الجامد الاعمي ، وتناصت في محيط التمدن العناصر الطارئة من
 الاعجمية والرومية ، وغلب على التصوف المذهب الاشراقي وعلى التفكير
 النزعة الفلسفية . فلم يوجد بين المسلمين من يكتسبون العلم من القرآن
 والسنة مباشرة ، والاكثرية من العلماء تشتمل على الذين يحارون في
 معميات الالفاظ ويشغلون أنفسهم بمعضلات الكلام ويشيرون الجدال حول
 الشرح والابضاح لآثار المتقدمين البوالي . والامراء يتبعون سيرة قبصر
 وكسرى ، والصوفية والهداة الروحانية - وخالون من روح التصوف
 الحقيقي لصدر الاسلام ، وقد عادوا بقلود الرهبان وتاركي الدنيا من
 النحل الاخرى . وفي العلوم والفنون تمطل سير المسلمين نحو الرقي وقد
 توقف ارتقاؤهم أو كاد في درب التحقيق والاكتشاف ، وأصبحت أعلام
 المهبط بادية في جميع الممالك الاسلامية بعد كل ما سبق من الترقى والصعود ؛
 فكانت بداية الاتراك في التاريخ الاسلامي إذن من نقطة ضعف أساسي .
 لقد قامت الدولة العثمانية تقريباً في الزمان الذي كان الارتقاء الفكري
 والنهضة العلمية قد أرهص بناؤه في أوروبا . ومع أن الاتراك العثمانيين رفعوا
 راية الاسلام عالية في الدنيا وألقوا مهايته في نفوس العالم بما هزموا أوروبا

مراراً متكررة في القرنين أو أكثر منذ قيام دولتهم ، كانوا هم كذلك يسرون في جهة الانحطاط كعامة الامم المسلمة في هذا الزمان ، بينما الامم الاوربية التي تقابل الامة التركية في الميدان كانت تسير الخجب في طريق الرقي المادي والتقدم الفكري . وفي القرن السابع عشر انقلبت الاحوال ، فقد بلغ من إحكام التنظيم العسكري وتضاعف القوة المادية والمعنوية عند امم الافرنج أنها هزمت الاتراك المتخلفين هزيمة بينة لأول مرة في معركة سينت جوترد . ولكن الامة التركية لم تتخذ العبرة بهذه الهزيمة فتابعت سيرها في منحدر الهبوط ، وتابع الافرنج سيرهم نحو الرقي والكمال ، حتى بلغت حالة الاتراك في جميع نواحي الاخلاق والدين والسياسة والعلم والمدنية قرارة الضمة ، وأصبحت غلبة الافرنج أمراً ظاهراً للعيان .

إنه في أوائل القرن التاسع عشر أحس السلطان سليم بهذا الضعف في الامة التركية ، فأخذ في إصلاح نظام إدارة الحكم ، وفي نشر العلوم الجديدة وتنظيم الجنود على النمط الحديث وتزويج الآلات الحربية الاوربية ، ولكن الصوفية الجاهل والمعلماء الرجعيين ممن ليس لهم نصيب من علم الدين وروحه قاموا بمارضون إصلاحات السلطان . فجعلوا تنظيم الجنود على الطريقة الغربية في حكم اللا دينية ، وجعلوا لبس الزي الجندي الحديث في حكم التشبه بالنصارى وقد خالفوا حتى استعمال البنادق ذات الحراب لأن استعمال أسلحة الكفار عندهم إثم عظيم . وأسأوا سمعة السلطان سليم وبثوا النفرة منه في نفوس الجمهور بقولهم إنه يسيء إلى الاسلام بترويجه أساليب الكفار . فأقن شيخ الاسلام عطاء الله افندي

أن السلطان الذي « يعمل بخلاف القرآن » لا يجدر بالبقاء على العرش .
وفي آخر المطاف عزل السلطان سليم في سنة ١٨٠٧ م . وهذه أول مرة
قدم فيها الزعماء الدينيون بجهالتهم وظلمة فكرهم التصور الخاطيء أن
الاسلام طائق للرقى .

وكانت أوضاع العصر متغيرة اذ ذاك بسرعة . وكان الاتراك أكثر
تعرضا من غيرهم من المسلمين لتأثير ذلك التغير ، اذ كانوا يقابلون الامم
الاوربية ويقاومونها وجها لوجه . وكانت صلاتهم السياسية والمدنية
والتجارية مع امم الغرب عميقة جداً ، وكانت الامم الاوربية والنصرانية
التابعة لهم نفسها تقبل تأثير الوضع الغربي بسرعة . ولكن زعماء الاتراك
الدينيين الذين كانوا صفرا من روح التفقه والاجتهاد وجاهلين للتعالم
الاسلامية الحقيقية أغمضوا عيونهم عن كل ذلك التغير والانقلاب ،
وأكرهوا الامة التركية على أن لا تخرج — ولو خطوة — من حدود
البيئة التي سادتهم منذ سبعمائة عام . وتبع السلطان سليم السلطان محمود
في الحكم ، فحاول الاصلاح ، ولكن العلماء والمشايخ خالفوه مرة أخرى
وبتذليل كثير من العوائق والصعوبات تمكن السلطان في سنة ١٨٢٦ م
من ترويض التنظيم العسكري الجديد في تركيا . ولكن العلماء لم يزالوا
ينادون بان كل تلك الاصلاحات بدعة سيئة يراد بها تخريب الاسلام ،
وان السلطان قد مرق من الدين وان التطوع في الجندية من هذا الطراز
الحديث مفسدة لايمان المسلمين .

وكان هذا هو الزمان الذي أحس فيه أهل الفكر من الاتراك
بتخلفهم وهوانهم القومي . فأقبلوا يدرسون أسباب رقي الامم الغربية

ويطالعون علومها وآدابها ويمعمقون النظر في صور تنظيمها . وحاولوا أن يدخلوا على قوانين دولتهم وشؤون ادارتهم وأمور تعليمهم ونظام حربهم لإصلاحات يستطيعون بها ان يسايروا الامم الغربية في طريق الرقي . وكان هؤلاء — كما قالت السيدة خانم — أناسا قد أشربوا في قلوبهم الروح الاسلامية ، وكانوا مسلمين صادقين قلبا وذهنا ، وكانوا لاريب يحسون بضعفهم ولكنه لم يغلبهم يوما شعور الذل والهوان أمام الغرب ، ولا كانوا يرتاعون لقوة الغرب ، ولا يقبلون كل ما يأتهم منه بدون تمييز . وإنما كانوا يهدفون الى ان يأخذوا من الغرب ما ينفع ويفيد ، فيصلحوا به نقائص أمتهم ودولتهم ويتمكنوا من مجاراة الامم الاوربية في مضمار الحياة ، وقد قام هؤلاء فعلا باصلاح نظام الدولة وتنظيم الجنود في زمن السلطان عبد الحميد ، وبثوا روح الحياة في آداب أمتهم وفتحوا المدارس والكليات الجديدة ، وأخرجوا في مدة سنوات قلائد جيلا كان تام الاداة في شؤون التفكير والتدبر ، بجانب ما يتصف به من محاسن الثقافة الاسلامية . وقد أبلت هذه الطائفة بلاء حسنا في عمل الاصلاح القومي على رغم المشكلات الداخلية والخارجية حتى عزل السلطان عبد العزيز في سنة ١٨٧٦ . وكان من ثمرات هذا العمل الاصلاحى نبوغ القادة الحريين كعمر باشا ، والساسة المحنكين كمدحت باشا وأقطاب الادب والفكر الصادق الاسلام كنامق كمال وعبد الحق حميد .

ولكن السلطان عبد الحميد الذي تلا في الحكم حوّل مجرى هذه الحركة كلها الى جهة أخرى . فمدة الثلاثة والثلاثين عاما بين سنة ١٨٧٦ وسنة ١٩٠٩ ، التي جرت في أثنائها أمة شرقية أخرى — اليابان —

أشواطاً طويلاً في حلبة الرقي قد أهلكتها هذا السلطان الاتاني المفرض في
إمارة روح الأمة التركية وفي منع رقيها العلمي والمقلي والمدني والسياسي
والتنظيمي . ولا يلائم هذا المقام لان فنقد اعمال هذا الرجل بشيء من
التفصيل . وإنما نكتفي بالإشارة الى انه ضيع زمان البناء والتعمير الذي
كانت كل ساعة من ساعاته ثمينة جداً في عمل الهدم والتخريب ، وطوح
بأجود المقول والأذهن من الأمة التركية . وقد أزجى القدر اليه رجلاً
عبقرياً كجهال الدين الاتاني ولكنه لم ينتفع به وأضاعه . على أن أعظم
الضرر الذي لم يندل الأمة التركية فحسب ، بل شمل العالم الإسلامي قاطبة من سوء
تدبير هذا الرجل هو انه استغل سلطة الخلافة الدينية ونفوذ العلماء
والمشايخ الرجعيين لنقض الدعائم التي أرساها المصلحون الأتراك لمهد
التنظيم ، وصدّ الارتقاء الفكري والأدبي في الأمة التركية والقضاء على
الإصلاحات السياسية والتنظيمية . وكان من رد فعل هذه الخطة السلطانية
القائمة على الإثارة وإهمال المواقب ان ثار الجيل التركي الناشئ ثورة عنيفة
عادوا معها يعتبرون الدين مانعاً للرقي وينحرفون ذهنياً عن شرعة الإسلام
وتحولت النفرة التي انبعثت في نفوسهم — بحق — من أهل الجمود
والظلام الفكري من العلماء والمشايخ . . تحول تيارها في عاصفة الثورة
هذه الى الدين نفسه . فاعتقدوا بانفسهم وحملهم العلماء والمشايخ الجاهلون
على ان يعتقدوا بان الإسلام دين جامد لا يصلح لمسايرة الزمن ولا تجاري
قوانينه تغير الأحوال والأوضاع ، وايس فيه ما يكون له ثبات ودوام
الاهم الا بعض المقائد . فهذا الاستبداد الملكي الممتد على الثلاثة والملايين
عاماً الذي كان لسوء الحظ ذا صبغة دينية جاء يبعث في الجيل التركي

الحديث النزوع الى المذهب المادي والاحاد ، والمزيمية الذهنية أمام
الغرب والتقليد الاعمى للأفكار الغربية والنفرة من الماضي والتضجر من
كل شيء قديم والكرهية الشديدة للخلافة والوحدة الاسلامية - التي
اتخذها السلطان عبد الحميد آلة لاغراضه الدنيئة - وأكد في نفوسهم
انه إن أريد للامة التركية المز والشرف في هذا العالم فلا بد أن تهدم
جميع الاسس القديمة ويبقى عليها صرح القومية التركية على الطراز
الغربي الخالص .

ان ثورة عام ١٩٠٨ دكت عرش حكومة السلطان عبد الحميد خان
وانتقل الامر الى أيدي الشباب الذر المضطرب ذي العقالية المنحرفة .
وهؤلاء كما قالت السيدة خالدة أديب خانم كانوا مختلفين جدا عن رجال
الاصلاح لهد التنظيم . فلم يكن من بينهم رجل واحد بسامي حكام
عهد التنظيم في الاداة العملية والتدبر والتفكير والسمو العقلي . ولا كان
نصب عيونهم تلك الغاية السامية التي كان يطمح اليها أولئك ، ولا كانت
سيرتهم تنسم بتلك القوة والاحكام الذي عرفت به سيرة الماضين ، ولا هم
على شيء من تهذب أولئك المصلحين وحسن تربيتهم ولا فيهم ذلك
الحساس القومي وشعور المز والفخار ، ولا فيهم ملكة أسلافهم في النقد
والامتحان الذي يدركون به الفرق الصحيح بين القديم والجديد .
وانما كان هؤلاء جماعة من شبان لا نصيب لهم من العلوم الاسلامية
ناقصين في التربية الاسلامية ، ولا نظر لهم غائرا في علوم الغرب ايضا .
وقد تمكنت من نفوسهم وأذهانهم عصبية شديدة على دينهم وحضارتهم
وعلوهم وآدابهم وتنظيماتهم الجماعية القديمة ، وبلغت فيهم الروعة اظاهر

التقدم الغربي حداً متناهياً فكانوا يتململون شوقاً إلى أن يبدلوا كل ما
عندهم من العادات والتقاليد القومية . فلما انتقل اليهم أمر الدولة طغى
هذا التيار المحبوس الذي كان قد تعفن من السكون والوقوف طول ٣٣
عاماً متدفقا كالسيل الهاجم . وهذا هو الزمان الذي سطأ فيه على الأتراك
غول القومية الضيقة والمصيبة التورانية، وخبا حماسهم للوحدة الإسلامية
فبدأوا يمينون الدين ويعترضون عليه، ويدعون بشدة إلى قبول الحضارة
الغربية بحذافيرها . ولقطع الصلة بالماضي وزيادة التقرب إلى الغرب
اقترحوا اصطناع الخط اللاتيني للغة التركية . وقامت طائفة من العلماء
الرسميين تصوغ الإسلام في قالب النظريات الجديدة، على رأسها رجل
كفيا كوك الب، وهو الرجل الذي شدد في الدعوة إلى الاتحاد التوراني
ضد الوحدة الإسلامية ونفر الأتراك من تاريخ العهد الإسلامي وأبطاله
المشاهير وعلمهم الاعتزاز بالتر المجمعين القدامي — الذين أبرز
شخصياتهم جنكيز خان وهولاكو — واجتهد لتطهير اللغة التركية من
خصائص الأدب الإسلامي وأكد على تقليد الغرب تقليداً كاملاً،
في المدنية والاجتماع والحضارة والعادات والحياة العملية . فأخذ هذا
الرجل الذي ينزع تلك النزعة ويفكر على هذا الأسلوب مكانة الإمام
المجتهد للجماعة الثورية الجديدة وجعل يحاول مع أتباعه، أن يؤول
التعاليم الإسلامية تأويلاً يمكن أن يثبت به كون كل امر من أمور
الإسلام — اللهم إلا بعض العقائد والمبادئ الخلقية — قابلاً للتغيير
فيسكب في القالب الغربي .

كان بجانب أن الأمة التركية على عتبة مثل هذه الثورة العظيمة،

وكانت هناك - بجانب آخر - علماء الأتراك ومشايخهم الذين لم يكونوا
 يرضون - حتى في هذه الآونة - أن يخرجوا مما ضربوا حوااليهم من جو
 القرن السابع . وكان من جمودهم وضيق تفكيرهم ونزوعهم إلى القديم
 وإياهم الأكيد لمسيرة الزمن ما عهد فيهم أيام السلطان سليم . فكانوا
 يقولون حتى الآن إن باب الاجتهاد قد انغلق بعد القرن الرابع ، والحال
 أن باب الاتحاد الصريح كاد يفتح أمام أعينهم ، وكانوا لا يزالون بدرسون
 ويدرسون في الفلسفة والكلام تلك الكتب التي كان الزمان قد خلفها من ورائه
 منذ خمسمائة سنة وتقدم إلى الامام . وكانوا يلقون على الناس في مواضعهم حتى
 الآن ذلك التفسير القرآني وتلك الاحاديث الضعيفة التي لا شك أن كان
 الناس يستمعون اليها بشوق قبل مائة سنة ، ولكنها جاءت تنفر في هذا
 الزمان العقول الجديدة لا من أولئك المفسرين والمحدثين فحسب بل من
 القرآن الكريم والحديث النبوي نفسه ، ثم إنهم كانوا مصرين على أن
 تنفذ بين الامة التركية تلك القوانين الفقهية التي هي مكتوبة في مجموعات
 الشامي وكنز الدقائق ، وإن كانت نتيجة هذا الاصرار أن يتملص
 الأتراك حتى من اتباع القوانين الاصولية المنصوص عليها في القرآن والسنة !
 فوجز القول أن العلماء والمشايخ ما زالوا - بجانب - ثابتين
 لا يتزحزون على سلوكهم الذي انحدر بالامة التركية من مرحلة عهد
 التنظيم إلى مرحلة الثورة هذه ، وظل الزعماء الثوريون للامة التركية
 - بجانب آخر - يعتمدون عن الاسلام في حياة الفكر والرأي والعمل
 الواقعية ، مع كونهم مسلمين من الناحية القلبية الماطفية . وفي هذا
 العصر وقعت الحرب العالمية الاولى التي جاء فيها مسلمو العرب والهند

يحاربون الأتراك ويقتلونهم جنباً إلى جنب مع أعداء الإسلام ولما قام
الأتراك بعد الحرب العالمية يجتهدون لصون حياتهم القومية من الفناء
الكامل كان في طبيعة من خالفهم في ذلك هو الخليفة القائم وشيخ الإسلام.
لجأت هذه الضربات النهائية قاضية على الروح الإسلامية المضمحلة في
التركي الثوري . ومن نتيجتها ما صرنا نشاهده اليوم من هذه النزعة
التجديدية المتطرفة في تركيا الحديثة . وذلك أن الأفكار الثورية التي
كانت فجأة بعد في سنة ١٩٠٨ ، والتي كانت منعها حروب طرابلس
وبلقان والحرب العالمية الأولى وحملة اليونان من النضوج والكمال بلغت
نضوجها وكاملها على أثر مؤتمر لوزان وصارت تظهر في حيز العمل .
فاختيار الطريقة الغربية في المدنية والاجتماع والتعصب القومي المتناهي
في الأدب واللغة والسياسة والتفريق بين الدين والدولة عقب إلغاء الخلافة ،
وفصل الدين من الدولة - كما قالت السيدة خاتم - وجعله تابعا ومحكوماً
للدولة واختيار القانون السويسري بدل القانون الإسلامي وتغيير القوانين
القرآنية الصريحة في مسائل الوراثة والنكاح والطلاق وتسيير طبقة الاناث
على درب الحرية الذي سارت عليه نساء الغرب بعد الحرب العالمية ، على
رغم تعاليم الإسلام ، كل أولئك نتائج طبيعية لجمود الفناء والجهال
وضلال الصوفية المتبعين للأهواء وأنانية السلاطين المستغلين لمنصب الخلافة
وجهل الزعماء الثوريين بعلم القرآن والسنة . إنه لمن المؤسف جداً أنه
لم ينبغ من بين الأمة التركية في هذا القرن رجل واحد يملك البصر
النافذ في القرآن والفهم الصحيح لروح التعليم الإسلامي الحقيقية ، فيدرس
أوضاع العصر المتبدلة بامعان ويستعمل قوته الاجتهادية السديدة ، ليطبق

مبادئ الاسلام على تلك الاوضاع ، ويخرج نظاماً شاملاً متسقاً يقوم على
أساس الكتاب والسنة ويصلح لمسايرة الزمن .

إن الذين لا يعرفون كل هذه التحولات في التاريخ التركي يمرضون
للقوع في أخطاء عجيبة . فأهل الفكر الديني القديم لا يزالون يسمون
الشبان الأتراك بالكفر والفسق ، ولكنهم لا يعلمون أن علماء الأتراك
ومشايخهم هم الأكثر ذنباً وجريمة من شبانهم أولئك ، فإن جمودهم هو
الذي أبعد الأمة المجاهدة التي ما زالت تذب - وحدها - عن حريم
الاسلام منذ خمسمائة سنة ودفعتها من الحياة الاسلامية إلى القرابية ،
ويخشى أن أمثال هؤلاء الجامدين لا بد أن يدفعوا الامم المسلمة الاخرى
أيضاً إلى ذاك المنحدر . وبجانب آخر لا يزال المتجددون يمرضون على
المسلمين كل ما ينزل عليهم من وحي انقرة كأنه هو الهدى وكان القرآن
قد نسخ ورسالة محمد ﷺ قد انتهت . فلا هداية الآن إلا في حياة
أتاتورك ولا نور إلا في الوحي المنزل من سماء أنقرة ، والحال أن المسكين
أتاتورك ومن يقبمه مصداق قول الله عز وجل : (ما لهم بذلك من علم: إن
هم إلا يخبرون) .



خداع المذهب العقلي

ان التأثير الذي يؤثره التعليم الغربي والحضارة الجديدة في الأفكار الدينية لشباننا الذين يكونون ناقصين في التعليم والتربية الاسلامية أو غير فاضحين ، قد يقدره المرء مما يصدر عن أمثال هؤلاء من الكتابات والخطب بين حين وآخر . ونذكر على سبيل المثال ما اطلعنا عليه أخيراً من المقال الذي قد خرج من قلم شاب مسلم حائز لشهادة البكالوريوس من الولايات المتحدة في الهند . يقول فيه عند ذكر سياحته في بلاد الصين واليابان :

ان الذين يصحبوننا من المسافرين الصينيين هم مدمنون للخمر أ كالون يستطيون لحم الخنزير إلى حد أنهم لا يستطيعون العيش بدونه وها هو ذا السر من وراء ارتقاء النصرانية ، فالصيني بعد من العار اتباع نحلته القديمة مع التعليم الجديد . ولو انه عرف الاسلام لما أحجم عن قبوله ، ولكن الآفة مع الاسلام انه يجرمه من جميع الاطعمة الشبيهة التي يستمرها ، فهو بصير إذن نصرانيا على الرغم منه وليس من المستبعد ان تصبح النصرانية هي الديانة الرسمية للصين فيما يأتي من الزمان . وإني لأؤثر شخصياً ان نخصص المسلمين الحديثي العهد من أهل أوروبا والصين

بعض الترخيص في أمر لحم الخنزير . واني أشك في كونه حراماً قطعياً حتى من نصوص القرآن . بل عندي الامر لا يمدو أن يكون الخنزير قد حرم على العرب بسبب خاص . فاي جناح الآن في استعماله في البلاد التي يكون أهلها مصداق الآية (فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ ...) . على كل حال هذا هو الحكم الوحيد — من أحكام القرآن — الذي لم أدرك بعد علة التحريم العام الذي جاء فيه ، إذ أن هناك من البعد الشاسع بين معدة الانسان وحوافز الاخلاق مالا ينبغي معه أن يتدخل الدين في أمور ماكلنا ومشربنا . ولو أنه يتدخل فيها ويقرء لنا بيان المائدة (Menu) أيضاً ، فلماذا لا يعلمنا الخياطة والحدادة والصرافة كذلك . واني لأعتقد ان السر في عدم ارتقاء الاسلام في العالم هو أنه يسلب المرء جميع حقوقه الانسانية ويتركه جسماً بلا حياة أو طفلاً بلا شعور . فهو يتمض عينيه عن كل ما هو لازم لرقبه في هذه الدنيا . ومن الواجب عندي ان ينحصر الدين في تلك الحدود التي قد حده فيها النصرايون .

ويكتب بعد ذلك عند ذكر أحوال شتأى :

وإذا رأى المرء هذا الخلق الذي لا يحصى من الناس ينعمون برغد العيش والهناء ، فلا يكاد قلبه يشهد أن هؤلاء برمتهم سيكونون حصب جهنم بعد مدة من الزمان ، كأن هذه هي الغاية الوحيدة عند الله من خلقه إياهم . وان كان هؤلاء كلهم — اللهم الا التزرا القليل — منكربين ووثنيين فهل ذنبهم الوحيد الذي يستحقون لاجله ان يخلدوا في جهنم هو أنهم عمروا أرض الله ؟ إن القوم لا يقتلون الحجاج ولا يسلبون أموالهم ولا فيهم سيئة آل لوط ، ولا هم يأكلون مال الغير أو يتأولون الآيات

لا استباحته لانفسهم . لانهم يعيشون حياتهم الوادعة الهادئة بأمن وسلام ،
ولكنهم مع ذلك يستحقون المذاب ! لماذا ياترى ؟ ولماي ذنب ؟

لا شك في ان عقيدة الشرك من الحماقة والسخف . ولكن قولوا
لي : ان آمن المرء بإيحاء من فطرته بذات سامية تميته وتحييه فهل أنتم
تكونون أعداءه ويكون عدوكم لمجرد انه تعلمو ماهية تلك الذات عن
فهمه بقدر ما هي عن فهمنا أيضاً ، أو لمجرد انه لا يعتقد العربية هي اللغة
الالهية ؟ .. بل الأمر في الحقيقة أنه لا يهمكم مثل هذه الامور . إنما
المهم عنكم أن يكون الجلباب على تقطيع خاص ، وتكون المهامة على
هيئة بعينها وتكون اللحية على الذقن بقدر معلوم ، وان يأكل المرء لونا
بعينه من الطعام ، ولا يدخل أبدا المدارس الاهلية لانه لا تعلم فيها لغة
الدين ولا فنون الدين .

ويقول عن ميناء كوبي (Kobe) في اليابان :

بقيت أمشي في شوارع كوبي مدة ساعتين فلم يقع نظري على متسول
واحد ، ولا وجدت رجلا يسئ الحال في خرق بالية . هذا هو مستوى
رفي الامة التي لاتعرف الدين ولا الله .

ويأخذ الفاضل بعد ذلك في الموعظة الحسنة ، على حد زعمه ،
فيقول : —

اعلموا ان الاحسان هو أصل الدين ، ولا يحتاج الاحسان إلى لغة
أو فن . وإنما غاية الطبيعية اننا مسؤولون عن أعمالنا في هذه الحياة
وسنكون كذلك في الحياة الاخرى . وهذا هو الدين الاسلامي في

حقيقة الامر . واما ما عدا ذلك مما سيمتوه « الدين » فهو خداع قد
ابتليت به أنفسكم أو خلط قد وقعت فيه أذهانكم . فاذا ما حصرتم دينكم
في هذين الامرين - أي الاحسان وشعور المسؤولية - وحطمت كل
مارسفون فيه الآن من قيود الشريعة وأغلالها فانكم أيضاً ستركبون
سنام الرقي مع الامم الاخرى ، بل يجب أن يقال : ستودعون ضميراً في
نفوس تلك الامم ، التي ان لم تضع عنها الدنيا في هذه الحياة فلن يضيع
عنها الملكوت السماوي أيضاً . إنكم لستم في أنفسكم أمة كهذه الامم بل
أنتم مصلحون للامم ، ولكن لانجملوا الناس - بالله عليكم - يقولون : ان
الامة الفلانية على قمة المجد والرقي من حيث المجموع ، ولكن المسلمين من
أهاليها هم في حال بؤس وشقاء وإن السبب في شقائهم هذا هو دينهم المجيب .

هذه العبارة النموذج صادق الدلالة لذهنية جيلنا المثقف الجديد . انهم
ولدوا في بيت مسلم ، ونشأوا كمضو مجتمع مسلم ، وارتبطوا بالمسلمين
بواصر التمدن والاجتماع . ولهذا كله قد شبوا على حب الاسلام والنصح
للمسلمين والرغبة في البقاء في دائرة الدين . وقد وقر ذلك في نفوسهم
من حيث لم يريدوا ولم يشعروا ولم يعملوا لذلك عقلهم أو فكرهم . بيد
أنهم قبل أن يحول فيهم هذا الاسلام التقليدي اللا شعوري إلى الاسلام
الاختياري الشعوري بفعل التربية والتعليم ، وان يؤهلوا لان يكونوا
مسلمين عن فهم للتعالم الاسلامية وامتحان لاحكام الاسلام وقوانينه
باستعمالها في حياتهم العملية ، بنشأوا إلى المدارس والكليات الانكليزية
حيث ربيت قواهم الفكرية والذهنية على غير الطريقة الاسلامية للتربية

والتعليم . فاستولت على اذهانهم الافكار الغربية ومبادئ الحضارة الغربية
استيلاء جعلهم ينظرون إلى كل شيء بمنظار الغرب . ويفكرون في كل
مسألة بالذهن الغربي . ولم يعد من الممكن لهم أن ينظروا أو يفكروا
مستقلين عن هذا التأثير الغربي . انهم تلقوا من الغرب درس المذهب
العقلي (Rationalism) ولكن العقل في رؤوسهم لم يكن عقلهم أنفسهم
وانما استعاروه من الغرب . فجاء مذهبهم العقلي المذهب العقلي الغربي
في الحقيقة ، لا المذهب العقلي الحر . وأخذوا من الغرب درس النقد
(Criticism) أيضاً ولكنه لم يكن درساً في النقد البريء الحر ، بل
كان درساً لأن ينتقد كل ما ليس غريباً بمقياس المبادئ الغربية التي يجب
أن يمتقدها حقاً وأرفع عن كل نقد . فلما خرج هذا الجيل من الكليات
متحليين بهذا التعليم والتربية وخاضوا غمار العمل في الحياة ، كانت قلوبهم
وأذهانهم قد وقع بينها بعد المشرقين . كانت القلوب مسلبة ولكن الازهان
غير مسلبة . وكانوا يعيشون بين ظهراني المسلمين وكانت معاملتهم اليومية
أيضاً مع المسلمين وكانوا متصلين بهم بروابط التمدن والاجتماع ، يشاهدون
فيما حولهم أحوال حياة القوم الدينية والمدنية وتعلق بهم أيضاً أواصر
حبهم ونصحهم . ولكن كل ما يملكون من قوى الفكر والفهم وتكوين
الرأي كان قد انسكب في القالب الغربي . فلم تكن تطابقه ضابطة من
ضوابط الاسلام ، ولا عمل من أعمال المسلمين فجاء القوم ينتقدون كل
شيء يتصل بالاسلام أو المسلمين بالمقياس الغربي . فكل ما وجدوه لا
يطابق هذا المقياس اعتبروه خطأ وأمرأ واجب الاصلاح والترميم سواء
أكان من أصول الاسلام وفروعه أم كان من عمل المسلمين فحسب .

ومنهم عنوا أيضاً بدرس الاسلام دراسة قليلة لاجل البحث عن أسباب هذه الحال المتخلفة . ولكنه مادام مقياس تقدمهم وتحققهم غريباً صرفاً فكيف كان للتعليم الاسلامي المستقيم ان يطابق ذهنيتهم الزائفة المعوجة ! إن هؤلاء المتجددين إذا أبدوا آراءهم في الشؤون الدينية فإن السامع يتبين من كلامهم أنهم يتكلمون بلا تفكير أو شعور . فلا المقدمات من كلامهم تصح ولا هم يرتبونها على الاسلوب المنطقي ولا هم يحاولون الاستنتاج السليم . ويبلغ بهم الأمر في ذلك أنهم إذا تكلموا فلا يحددون حتى موقفهم أنفسهم ، بل تراهم يتخذون مواقف مختلفة متضادة في سلسلة واحدة من الكلام ، كانوا يتكلمون الساعة في موقف بعينه ، وإذا في الجملة التالية حولوا هذا الموقف بغتة وجعلوا رأسهم مكان عقبهم وراحوا يتكلمون في الموقف الجديد المضاد . فالاسترخاء الفكري (Loose Thinking) هو الميزة البارزة لمواعظهم الدينية . انهم اذا تكلموا في أية مسألة غير مسألة الدين ، يتكلمون بحماسة وحذر ، ثقة منهم بأنه ان بدا منهم خطأ او زلل في تلك المسألة سيسقط اعتبارهم في أعين أهل العلم . ولكن الدين لما انه لا أهمية له عندهم لا يمتدون بأمره حتى بقدر ان يشعروا بضرورة اعمال الففكر والروية حين التكلم في موضوعه بل هم ينطقون في أمره بكل سهولة وفراغة بال كأن الناطق منهم مضطجع على الكرسي المريح عقب تناول الطعام وهو يتكلم استجماً بالنفس على سبيل التفكه واللهو ، مما لا حاجة له فيه الى مراعاة ضوابط الكلام الجاد .

والشيء الآخر الذي يبدو بارزاً في كتاباتهم هو فقدان المعلومات

وسطحية الافكار . إنهم لا يتجرؤون على ان يتكلموا في غير مسائل الدين بتلك المعلومات الناقصة وبذلك التفكير الفج لانهم يخشون ان يفقدوا اعتبارهم اذا تفوهوا بكلمة واحدة بدون التحقيق . ولكنهم لا يستازمون شيئاً من التحقيق والتعمق والتفكير في أمر الدين ، بل هم يكونون الرأي بكل ما يسقط في أيديهم خلال دراستهم العاجلة . ويمالئون به من غير تحذر ، لانهم لا يخافون حساباً في هذا الموضوع وان حاسبهم أحد فلا بد ان يكون « رجل دين » وقد تقرر وأصبح من مسلمات الامور على سبيل الاصول الموضوع ان « رجل الدين » في كل حال ضيق النظر مظلم الفكر نزاع الى القديم .

فالعبرة المقتبسة آنفاً للكاتب الفاضل - وقاها الله عين الحسود - تحمل كلا من هاتين الميزتين . فقبل كل شيء لا يعلم منها ان كاتبها هل هو يتكلم من موقف المسلم او غير المسلم . وذلك أن كل من تكلم في موضوع الاسلام فلا بد أن يكون له موقف من اثنين : موقف المسلم او موقف غير المسلم . فمن تكلم من حيث هو مسلم ، سواءً أكان راسخ العقيدة (Orthodox) او حر الفكر او في حاجة الى اصلاح ، وجب عليه ان يتكلم داخل دائرة الاسلام ومعناه ان يعتقد القرآن منتهى كل كلام ، والحجة النهائية الاخيرة (Final Authority) ويدعن بما قد قرره الاسلام من مبادئ الدين وقوانين الشريعة . فانه ان لم يؤمن بحجية القرآن ورأى مجال القول في أمر قد نص عليه القرآن ، خرج عن دائرة الاسلام ولم يبق له شيء من منزلته الاسلامية حتى يتكلم في الاسلام . وأما الذي تكلم في الاسلام من حيث هو غير مسلم فله الحق

تماماً في أن ينتقد أحكام القرآن ومبادئه ويعترض عليها كيفما شاء ، لأنه لا يعتبر كتاب الله هو الحجة النهائية ، ولكنه متى وقف هذا الموقف فلا يحق له بعد ذلك أن يتكلم كالمسلم ويفسر للمسلمين أحكام الإسلام ويدلهم على أسباب رقيه . فكل عاقل رشيد متى أراد أن يتكلم في الإسلام فالمرجو منه أن يقطع - قبل كل شيء - بأنه أي الموقفين يختار لنفسه . وإذا اختار موقفاً بعينه فعليه أن يراعي في كلامه مقتضيات هذا الموقف ولا يجيد عنها ، لأنه لا يمكن أن يكون من فعل العاقل أن يتسمى باسم المسلم وفي الوقت نفسه يستعمل حق الاعتراض على المبادئ والقوانين التي جاء بها القرآن ، أو أن يشك في حجية القرآن وفي الوقت نفسه ياتي على المسلمين موعظة حسنة في أمر الدين . إنه الجمع بين النقيضين ، وممناه الآخر أن يكون المرء مسلماً و غير مسلم في آن واحد . ويكون داخل دائرة الاسلام وخارجها في وقت معاً .

ولا يبلغ من سوء ظننا بمنطقية صاحب المقال وكفاءته العلمية أن نتوقع منه أنه كان سيجمع المتزاتين المختلفتين في ذاته في وقت واحد على هذا النحو لو أنه تكلم في غير مسألة الاسلام . إننا لا نتوقع منه مثلاً أن يكون قاضياً في إحدى محاكم حكومة الهند ثم يستعمل حقه في الاعتراض على مجموعة القوانين المنفذة في البلاد ، ولا نتوقع منه كذلك أن يدعي اتباع مذهب من مذاهب الفكر (School of Thought) ثم ينتقد المبادئ التي يقوم عليها ذلك المذهب انتقاداً المعترض المخالف . ولكنه من أغرب الأمور أن صاحبنا قد وقف من الاسلام موقفين متناقضين

جداً ولم يخطر له أنه يغير موقفه مرة بعد أخرى في حديث واحد . فهو بجانب يدعو نفسه مسلماً ويتسمى باسم من أسماء المسلمين وييدي الاسف الشديد لحالة المسلمين المتخلفة ويظهر رغبته في رقي الاسلام وبلقي على المسلمين موعظة «الاحسان» أي «أصل الدين» وبجانب آخر يأتي ويمعترض على المبادئ والقوانين التي يقررها الكتاب الذي هو أساس هذا الدين ومن الشرط اللازم لاسلام المرء أن يؤمن بكونه الحجة النهائية الاخيرة ان القرآن يحرم لحم الخنزير في أربعة مواضع لا في موضع (١) ، ولكن صاحبنا يجب أن يرخص لبعض الناس في أكله . وأعجب من ذلك أن هذا النزوع إلى انترخيص أيضاً لأجل رقي الاسلام ، كأن رقي الاسلام بهم صاحبنا أكثر مما يهم القرآن ، أو كأن هناك إسلاماً خارج حوزة القرآن يود صاحبنا رقيه . إن القرآن الكريم لا ريب يضع للانسان بيان المائدة (Menu) بمعنى أنه يهديه إلى ما يأكل وما لا يأكل وان يفرق بين الطيب والخبيث، ويقول بصراحة: (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب ، هذا حلال وهذا حرام) والنحل : ١١٦ ، ولكن صاحبنا يصصر على أن له الحق في أن يقول هذا حلال وهذا حرام، ويتردد في الاعتراف بأن للقرآن حقاً في أن يجعل الأكل والشرب أيضاً تحت سيطرة الدين. ثم ان القرآن لا يحصر الدين في الحدود التي قد حصره فيها أتباع سينت بال (Saint Paul) - لا أتباع المسيح كما يقولون خطأ - بل هو يضع قوانين اللباس والأكل والشرب والنكاح والطلاق والوراثة والمعاملة

(١) راجع سورة البقرة الآية: ١٧٣ وسورة المائدة الآية ٣ وسورة الانعام

الآية ١٤٥ وسورة النحل الآية ١١٥ .

والسياسة والقضاء والتعزير وما إلى ذلك ، ولكن صاحبنا يفند هذا التشريع القرآني ويعتبره مانعاً لرفي الاسلام ، ، ويعيب عليه أنه يجعل الانسان جسماً بلا حياة أو طفلاً بلا شعور ، ويقترح بأن الدين يجب أن يكون منحصر أفيما حصره فيه النصرايون - بل البولوسيون في الحقيقة - إن القرآن قد وضع بنفسه قوانين الشرع وعبر عنها بحدود الله وأمر باتباعها ولكن صاحبنا يعبر عن حدود الله تلك بالقيود والاغلال ويعتقد كسينت بال أنه من اللازم لرفي الدين واتساعه أن تحطم تلك القيود ، ثم إن القرآن يجعل الايمان الشرط الاول لل لازم لنجاة المرء ويقول عن الذين لا يؤمنون بالله بتصريح (: إناكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) (١) سواء أ كانوا يحصون أم لا يحصون ، و كانوا في رغد العيش أو في بؤس وشقاء . ولكن هذا الفاضل إذا رأى خافاً لا يحصى من الكفار والوثنيين يحبون حياة الرغد والهناء ، فانه لا يشهد قلبه بأن أولئك سيكونون حصب جهنم أجمعين بعد مدة من الزمان ، ولا يفهم أنه أي ذنب قد جنوه سوى أنهم قد عمروا أرض الله . إن السؤال أيها الافاضل أنه كيف يكون لكم أن تبقوا مسلمين وأنتم تخالفون القرآن هذه المخالفة الصريحة في آرائكم ، وأنى يكون لكم أن تكونوا مسلمين ثم تخالفوا القرآن هذا الخلاف الواضح . إن كنتم مسلمين فلا يجوز لكم أن تخالفوا القرآن . وإن أردتم مخالفة القرآن فليس لكم إلا أن تخالفوه من موقف خارج دائرة الاسلام .

إن من لم تطمئن نفسه إلى المبادئ والأحكام ، والقوانين التي يقوم

(١) الانبياء آية ٩٨ .

عليها دين من الاديان، ولم يشهد قلبه بصدقها وقصر عقله عن إدراك علمتها ومصلحتها ، وكان يظن أن بمضها أو أكثرها موضع النقد والاعتراض ، فإمامه طريقان اثنان يختار بينهما : إما أن يترك ذلك الدين ، ليكون له الحق في أن ينقد كل ما يشاء من ضوابطه وأحكامه بحرية ، وإما يجتنب المظاهرة عليه ، إذا هو أحب البقاء في دائرته على رغم عدم طمأنينته اليه . وبدل أن يلبس لبوس المجتهد وينحى على ضوابطه وقوانينه بمول الهدم والتخريب يجب أن يقف منه موقف الطالب للعلم ويجتهد لحل ما يخالجه من الشكوك والشبهات في بابه . أما العقل والمنطق فلا يستسيغ إلا هذين المذهبين من مذاهب سلوك المرء وكل رجل عاقل إذا رأى نفسه في مثل هذه الحال لا بد أن يختار أحد هذين المذهبين لا غير . ولكن صاحب هذا المقال وكثيراً من المثقفين بالثقافة الغربية مثله ليسوا من الشجاعة الخلقية بحيث يختارون لأنفسهم المذهب الأول . وأما المذهب الآخر فهم ينجلون من اتخاذه . ولهذا كله قد اختاروا لأنفسهم مذهباً وسطاً بين الاثنين لا يقبله العقل السليم وهو أنهم يندمجون - بجانب - في جماعة المسلمين ويتمنون تقدم الاسلام ويضطربون أما لسوء حالة الاسلام والمسلمين ثم هم - بجانب آخر - يقولون ويفعلون في مخالفة الاسلام كل ما قد يقوله ويفعله غير المسلم . إنهم لا يحجمون حتى عن القدح في القرآن فضلاً عن تنقصهم للحديث أو الفقه ، ويضربون بموهم جميع الامس التي يقوم عليها ببيان الاسلام . إنهم يدعون أنهم أصحاب المذهب العقلي (Rationalists) ويقولون أنهم لم يكونوا ليقبلوا أمراً ينافي العقل ويخالف المنطق ، وأكبر اعتراضهم على رجال الدين أن القوم لا يستعملون

عقولهم ، ولكن من شأنهم أنفسهم أنهم يقولون في أمر الدين أقوالاً ظاهرة التناقض ويختارون لعملهم وسلوكهم مذاهب متعارضة متضادة حتى يأتي قولهم اللاحق في حديثهم ناقضاً لقولهم السابق . ولا يدري المرء أي نوع هذا من المذاهب العقلية، يرجع إلى هؤلاء المحققين المستنيرين فضل إيجاده .

ونعال الآن فنظر إلى سمة معلومات صاحبنا الفاضل وعمق تفكيره . إن صاحبنا يستلزم لرفي الاسلام أن ترفع قيود الشريعة عن هذا الدين أيضاً كما رفعت عن النصرانية ، فيبقى الاسلام في صورة عقيدة فحسب. وذلك أن الذي قد اتبته له هذا الفاضل من سر رقي الدين المسيحي هو أنه لا توجد فيه قيود الحلال والحرام ولا هناك ضوابط أخلاقية ، ولم يسلب الانسان فيه حقوقه الانسانية ولا ترك جسماً بلا حياة أو طفلاً بلا شعور ، بل قد سمح له فيه بأن يفعل ما يشاء بعد أن يؤمن بالمسيح . ولكن صاحبنا لم يدرك أن الذي يقال له الاسلام هو الذي تضمنه دفتر القرآن . وقد جعل القرآن الاسلام مجموعة الايمان والعمل الصالح . ثم قد وضع القيود للعمل الصالح وسن القوانين وقرر نظاماً عملياً كاملاً للحياة الفردية والجماعية ، لا يمكن أن يقوم الاسلام بدونه كدين وحضارة . وليس بيد مسلم أن ينسخ ذلك النظام ويمحو حدوده ، لأن نسخ ذلك نسخ للقرآن ، ونسخ القرآن هو نسخ الاسلام . وإذا أريد نسخ الاسلام فأني معي هناك للعناية برقيه وتقدمه ؟ إن المرء لا شك حر في أن يتدع ديناً جديداً ويعمل على نشره وترويجه . ولكن كيف يكون له أن يدعو الأمر الذي هو مخالف للقرآن باسم الاسلام ويجعل رقيه رقي الاسلام!.

إن صاحبنا يطلق اسم الاسلام على مجرد العقيدة القائلة بأننا مسؤولون عن أعمالنا في الحياة الأخرى أو في هذه الحياة . ولعله قد فمل هذا رجاء أنه إن حصر الاسلام في هذه الحدود الضيقة أصبح سهلاً ويسيراً وأمكنه الانتشار في الأرض . ولكنه لو تأمل مضامين هذه العقيدة لعلم أن الاسلام بعد أن ينحصر في هذه الحدود لا يمكن أن يتفق مع هواه . وذلك أنه لكي تقام هذه العقيدة المجردة مقام الدين بكامله يجب أولاً أن يؤمن المرء بالحياة الأخرى . ويأتي بعد ذلك مفهوم المسؤولية فيتقاضى أموراً ثلاثة: أولها أن يعين الوجود الذي سيكون الانسان مسؤولاً أمامه، ويدعونه بكونه فوق الانسان . والثاني أن تحدد نوعية المسؤولية ويفرق بين أعمال الحياة من حيث أن كذا وكذا من الأعمال مستفضي إلى النجاح في تلك المسؤولية وكذا وكذا مستفضي إلى الخيبة فيها . والثالث الأخير أنه يجب أن تعين النتائج المختلفة للخبية والنجاح في تلك المسؤولية، لأنه إن كانت نتيجة الخيبة فيها كمثل نتيجة الفوز والنجاح أو لم تكن لأيهما نتيجة أبداً فلا يبقى هناك معنى لنظام المسؤولية . هذه لوازم منطقية لتلك العقيدة التي يجعلها صاحبنا أصل الدين . ولئن أقيم الاسلام على هذه العقيدة حسبما يقترحه فلا شك أنه مستعصر صاحبنا تلك المشكلة التي أراد أن يهرب منها . إذ سيكون من اللازم إذن أن يؤمن المرء بالله، بما يرى صاحبنا الامة اليابانية تصعد بدونه في سلم الرقي . وستكون هناك أغلال الشرع وقيود الأخلاق التي يريد صاحبنا أن تحطم، والتي يكن فيها السر الحقيقي لعدم ارتقاء الاسلام . وستكون تلك السلسلة البغيضة من العذاب

والثواب . وإذا ما رأى صاحبنا مرة أخرى خلقاً لا يحصى من الناس ينعم برغد العيش والهناء بدون الايمان بهذه المقيدة فان قلبه سيأبى أن يشهد بأن أولئك كلهم سيكونون حصب جهنم بعد مدة من الزمان .

لأجل ذلك نرجو من صاحبنا الآن أن يتفضل ويطلق اسم الاسلام على شيء لا يكون فيه قيد ولا منع ولا تكون نتيجة الايمان به وعدم الايمان مختلفة . والذي تكفي فيه عمارة أرض الله للفوز في الدنيا والآخرة، والذي إذا رأى صاحبنا خلقاً لا يحصى من الناس ينعم برغد العيش والهناء بدون الايمان به فيستطيع قلبه أن يشهد بأن أولئك كلهم سيكونون بلا بل الجنة في اليوم الآخر .

إن كون لحم الخنزير حراماً قطعياً بموجب القرآن ليس من مسلمات الأمور عند صاحبنا . فهو يزعم أن لحم الخنزير حرم على العرب لأمر مخصوص . ولكنه لو فتح المصحف ، قبل أن يبوح برأيه هذا لقرأ فيه : (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ . فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (١) ففي هذه الآية قد حرم لحم الخنزير على كل طاعم وبين من علة هذا التحريم أنه « رجس » . أفيراد من كلمة الطاعم هذا الطاعم العربي وحده ؟ وهل يكون الشيء الواحد رجساً للعرب وطيباً لغير العرب ؟ وهل يجب صاحبنا أن يرخص الأمر لآكلي الميتة أيضاً بمض الترخيص . ولئن أراد الفاضل أن يسامح

(١) النحل : ١١٥ .

بعض الأمم في أكل لحم الخنزير فليفعله من عند نفسه ، ولكن من جعل له أن يقول بخلاف النصوص القرآنية أن تحريمه القطعي أمر غير ثابت في القرآن .

من طرائق الاجتهاد التي قد ابتكرها المجتهدون الجدد في هذا العصر أنهم يقولون في كل حكم إسلامي يريدون الخروج عليه أنه نزل خاصة للعرب ، وإن لم تكن في القرآن ولو إشارة خفيفة إلى هذا التخصيص ، ولم يكن عندهم من حجة عقلية أو نقلية على ذلك . وإن استمرت الحال على هذا النحو فلعمل القوم يعودون يوماً فيجملون القرآن كله نزل خاصة للعرب .

أما استدلال صاحب السياحة من الآية: (من اضطر غير باغ ولا عاد) فهو يبلغ من الطرافة أن لا يتمالك المرء من الاعجاب به والتصفيق له . فلعلمه فهم من هذه الآية أنه إذا قرمت أنفسكم إلى لحم الخنزير فكلوه ولكن بشرط أن لا تبغوا أكله على الدوام وأن لا تتخذوا أكله عادة فيكم ، إذ أنه لا يستخرج من هذه الآية مجال الرخصة والمساهمة لأهل أوروبا والصين في أمر لحم الخنزير إلا من لم يكن يعلم معنى الاضطرار ولا كان يفهم المراد من كلمتي الباغى والعادي في هذا المقام . ومن المحال جداً الذي علم أن يتجاسر على مثل هذا الاستنباط . إنه ليس من مفهوم الآية أنه يدخل في حكم (من اضطر) كل من استمرؤوا أكل الميتة والدم المسفوح أو استطابوا لحم الخنزير وتهالكوا عليه ، أو كانوا يأكلون (ما هيل به لغير الله) عادة . ولو كان الأمر كذلك لبطل حكم التحريم . فإن تحريم تلك الأشياء

لو أنه مقصود الذين يمتادون أكلها لبقوا باكلونها حسب عادتهم متمتعين بهذا الاستثناء الوارد في الآية . ولو أنه مقصود الذين كانوا يجتنبون هذه الأشياء بأنفسهم من قبل ، لما كانت لهذا الحكم ضرورة أصلاً أما ما ورد في الآية من الاستثناء المشروط بـ (غير باغٍ ولا عادٍ) مع الاضطرار ، فالمقصود به في الحقيقة هو أنه من كان يوشك أن يموت جوعاً ولم يجد ما يأكله غير حرام ، فيجوز له أن يأكل من ذاك الحرام لجرد حفظ وجوده ، بشرط أن لا يتجاوز حد الرخصة أي لا يتناول منه أكثر مما هو لازم لسد الرمق . ولا تكون في نفسه نزعة إلى البني على حدود الله . وقد ذكر هذا في موضع آخر عند بيان تحريم الخنزير والميتة بالكلمات الآتية: (فمن اضطرَّ في مخمصةٍ غير متجانفٍ لإثمٍ) أي إذا اضطرَّ أحد إلى تناول شيء من هذه المحرمات في حال اشتداد الجوع بدون أن يكون في نفسه ميل إلى الإثم ، فيجوز له أن يأخذ منها قدر الضرورة . فأين هذا من اقتراح صاحبنا أنه لما كان أهل أوروبا والصين مغرمين بلحم الخنزير ، فيجب أن يباح لهم ذلك انتفاعاً باستثناء (فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ) ، وكل ذلك لكي يسهل لهم الدخول في الاسلام . وإن نحن سرنا هكذا في عمل الترخيص والتسهيل في أحكام الاسلام مراعاة لرغائب كل أمة وشهواتها ، اضطررنا إلى إباحة كل من الخمر والقمار والزنا والربا وما إلى ذلك واحداً بعد الآخر . إن السؤال أن الذين لا يريدون أن يتبعوا أحكام الله ويلتزموا حدوده ويحرموا حرامه فأى حاجة إلى إدخالهم

في الاسلام ؟ ومتى كان الاسلام مفتقراً إليهم حتى يساومهم على ذلك بالنقص
والخفض من أحكامه .

إن صاحبنا لم يتفطن بادية ذي بدء إلى تحريم الخنزير . فلما أعمل
فكره في ذلك بعد تبين له أن هناك بوئاً شامعاً بين معدة المرء وحوافز
الاخلاق . فاستنتج من ذلك أنه لا حق الدين بأن يفرق بين الماء كولات
والمشروبات من حيث الحلة والحرمه . وافتضح من رأيه هذا أن مبلغ
معرفة بعلم الحيوان ليس بأحسن من معرفته بالقرآن . أما الجهل بالقرآن
فليس بشيء يخجل له « رجل مثقف متطور » ولكن كل هذا الجهل
بالعلوم التجريبية المصرية (Science) من الخزي والعار حقاً . إن
صاحبنا لم يعرف بعد: ما العلاقة بين النفس الانسانية وتركيبه الجسدي ،
وما العلاقة بين تركيبه الجسدي والغذاء الذي يأكله، ولم يدرك أن الشيء
الذي يعيد إلى الجسم الانساني كل ما ضاع من أجزائه التركيبية ويكون
فيه جميع الأعصاب والعروق، ويبدل جسمه القديم جسماً جديداً بكامله،
ليس عجباً أن يكون لخواصه تأثير في النفس والروح بل العجيب أن
لا يكون لها أي تأثير . وقد كانت دنيا العلم غافلة عن هذه الحقيقة غالباً
فيما سبق ولكن التحقيق الذي تم أخيراً في فن التغذية (Dietetics) قد
انكشف منه أن غذاء الانسان يترتب أثره حتماً ولازماً على أخلاقه
ومداركه الذهنية . فلا يزال العلماء المعاصرون يبحثون في أنه ما هي الآثار
التي تترتب على نفوسنا ومداركنا الفكرية لمختلف ألوان غذائنا . ويبدو
أن معلومات صاحبنا الحائز لدرجة البكالوريوس ليست متمشية مع العصر
(up - to - date) وإلا لم يدع بكل هذه الجرأة أن هناك من حيث
المبدأ والأصل بوئاً بعيداً بين المعدة وحوافز الأخلاق .

خداع المذهب العقلي أيضاً

ان المذهب العقلي ايضاً (Rationalism) والمذهب المادي الطبيعي (Naturalism) هما الامران اللذان لاتزال الحضارة الغربية تقوم بدعايتها وإعلانها بكل قوة وحماس منذ القرنين الماضيين . ان قوة هذا الاعلان وشدة أمر لا يشك فيه أحد . واني يمكن المرء ان يجنب قلبه وذهنه التأثير بشيء يعرض أمام عينيه مرة بعد أخرى ويكرر على سمعه بصفة مستمرة . وإذن قد خضعت الدنيا لتأثير هذا الاعلان فاعترفت بان العلوم الغربية والمدنية الغربية تقومان على اساس المذهب العقلي والمذهب المادي الطبيعي فحسب . والحال ان دراسة نقدية لحضارية الغرب توضح جلياً انه ليست اساسها النزعة العقلية ولا مراعاة نوااميس الطبيعة ، بل يقوم هيكلها كله على الحس والرغبة والاحتياج . وان النهضة العلمية الجديدة لم تعد في الحقيقة ان تكون ثورة على العقل والطبيعة فانها قد هجرت المعقولات الى ما يدخل تحت المادة والحس وجاءت تعتمد على الحس بدل العقل ، وألفت التوجيه العقلي والاستنباط المنطقي والوجدان الطبيعي وقررت — بدل ذلك — النتائج المادية المحسوسة هي المقياس الحقيقي الصحيح لتقييم الاشياء ، وألفت إلهام الطبيعة وإرشادها لتتخذ الرغبة والحاجة هي المادية في شؤون الحياة وجعلت كل شيء لا يمكن ان يوزن او يذرع وهما حقيقة له ، وكل مالا يترتب عليه نفع مادي محسوس أمراً هيناً لا يحفل به وكانت هذه الحقيقة خافية على أهل الغرب أنفسهم في مبتدأ الامر ، فما زالوا يزعمون على رغم مخالفتهم للعقل والطبيعة في

سلوكهم العملي ، ان « الاستنارة الفكرية » التي قد افتتح القوم عهدها الجديد ترجع في أصلها وأساسها الى المذهب العقلي والمذهب المادي الطبيعي . وروح الخفاء بمد ذلك وافتضحت الحقيقة الواقعة ولكنه لم يجترأ أحد على الاعتراف بها ، وبقي القوم يخفون — بكل نفاق — كل ما هم عليه من تقديس المادة واتباع الالهواء والتعبد لمطالب النفس والجسد تحت منار الاستدلال العقلي وادعاء المذهب الطبيعي . ولكن قد تسالت الهرة الآن من الحقيقة — كما يقول المثل الانكليزي — وبلغ من مخالفة القوم للمعقول ومعارضتهم للنواميس الطبيعية ان لا يمكن ان يغطيها ستار ، فجاءوا لذلك يعلنون بثورتهم على العقل والطبيعية كل الاعلان . وقد وقعت هذه الثورة في كل ناحية من نواحي الحياة ، من بيئة العلم والفلسفة الى مادونها من أوساط الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، ويعترف جميع القادة والزعماء لهذا العالم الجديد — اللهم الا نفر من المنافقين — النازعين الى القديم ، منهم — بان الغلبة والسيطرة على حضارتهم هي الرغبة والحاجة فحسب .

وأما المستفربون المتفرنجون من أهل الشرق فينخلفون عن أممهم بعدد بخطوات . وانه لما تقتضيه التربية والتعليم والبيئة الفكرية والعوامل الحضارية والمدنية التي تمت تحت ظلالها نشأتهم العقلية ان ينشأ في هؤلاء أيضاً ذلك التقديس لكل ما هو مادي محسوس وتلك العبودية للرغبات والحاجات . وقد نشأ فيهم كل ذلك بالفعل . ولكن القوم لم يبلغوا من ذلك بعد حيث تسلسل الهرة من الحقيقة . انهم لا شك يظنون يقولون في خطبهم وكتاباتهم انهم لا يخضعون الا لهداية العقل والطبيعة فيجب ان

لا يعرض عليهم الا الاستدلال العقلي المحض ، وانهم لن يدعنوا بشيء
لا يثبت بالادلة العقلية والشواهد الطبيعية . ولكنه تخفى في داخل هذا
الوعاء الظاهر من الدعوى والاعلان تلك الهرة التي لا علاقة لها بالعقل
او بالطبيعة . فان انت حملت مقالاتهم تبين لك ان عقولهم تمجز عن
ادراك المعقولات ومشاهدات الوجدان الطبيعي ، وأن الذي يدعوه
هؤلاء « الفائدة العقلية » ان استقصيت حقيقة علمت ان المراد به هو
« الفائدة التجريبية » . و « الفائدة التجريبية » هي ما يكون له جرم
ووزن ، وما يمكن ان يعد او يقاس . فكل مالا يمكن أن تبين لهم
منفعته بصورة الاعداد الاحصائية او بالوزن في كفة الميزان او بالقياس
بالذراع ، لم يكن هؤلاء ليعتبروه نافعا ومفيدا . وما دام الامر لا تثبت
لهم منفعته على هذا الوجه المخصوص فان اتباعه عند القوم أمر يعبرون
عنه بـ « الطريقة اللامنتطقية » . وأما إلهام الطبيعة الذي هم يدعون اتباعه
فتفتضح حقيقة أنه أيضاً بقليل من النقد والتحليل . وذلك انه ليس المراد
بالطبيعة عندهم هو الطبع الانساني ، بل المراد هو الطبع الحيواني الذي
يخلو من الوجدان وشهادة القلب المدرك ولا يشتمل الا على الحس والرغبة
ومطالب النفس والجسد . فالمتبر المتمد به عندهم هو مجرد الاشياء التي
يمكن ان تؤثر في الحواس وترضي الرغبات وتفي بمطالب النفس والجسد
والتي تقع منفعتها تحت مشاهدتهم على الفور ، وتغيب مضرتها عن الانظار
أو تبدو في رأيهم أنل وأهون من جانب المنفعة . وأما الاشياء التي هي
من مقتضيات الطبع الانساني والتي يحس بأهميتها المرء في وجدانه ، والتي
ليست منافعها أو مضارها حسية مادية بل هي روحانية معنوية ، فهي كلها
او هام وخرافات وأمور هينة لا يكثر لها ، ومن الرجعية والتوهم

والاظلام الفكري ان يهتم بها المرء في شيء بل يقر حتى بوجودها .
فبجانب كل هذا الانحراف عن العقل والطبع ، وبجانب آخر ذاك
الادعاء لمراعاة مقتضيات العقل والطبيعة . ويبلغ من افلاس العقل نفسه
انه لا يحس أبداً بهذا الجمع بين النقيضين الصريحين !

إن أنل ما ينبغي ان ينال المرء من فائدة التعليم والتهذيب الفكري أن
لا يبق في أفكاره تشابك ، ولا في آرائه اضطراب وتنافر ، بل يتسنى
له ان يختار أسلوباً واضحاً قوياً للفكر والرأى ، يرتب المقدمات على
الوجه السديد فيستخلص منها النتائج الصحيحة ، ويسلم من الوقوع في
الاطغاء الواضحة كالجمع بين النقيضين وخلط مواضيع البحث ، ولكننا نجد عامة
أصحابنا المثقفين — اللهم لا من رحم ربك — محرومين من هذه الثمرة
الباكورة للتربية العقلية فهم لا يكونون من الحصانة والرشد بحيث
يحددون موقفهم الصحيح قبل ان يبدأوا البحث في مسألة فلسفية ،
ويفهمون بعد ذلك مقتضيات هذا الموقف وبراغونها فيما يختارون من
خطئة المناقشة والاستدلال حتى تأتي متضامنة مع موقفهم ذلك . وانت
إن تتكلم معهم أو تقرأ ما يكتبون تشمر لأول وهلة ان افكارهم فيها
كثير من المماثلة والتعقيد ، وان الرجل منهم يبتدىء البحث في مسألة
ما من موقف بعينه ، فإذا خطا في البحث خطوات حول موقفه الاول
الى موقف ثان مختلف ، وبعد خطوات مزيدة في البحث اتخذ موقفاً ثانياً
جديداً . منهم لم يتعلموا حتى الآن كيف تنتخب المقدمات بروية وتدبر
لأبواب الدعوى ، وكيف ترتب على الأسلوب المنطقي . فالفقاري

لكتاباتهم أو السامع لكلامهم لا يدري من أول حديثهم إلى آخره ماذا أراد الباحث الفاضل في الحقيقة وما هي المسألة التي كان يقصد بحثها وما الذي أثبتته وبرهنه . والسبب لهذا كله أن اتجاه الحضارة الجديدة وما يتبعه من اتجاه التعليم المصري هو في الأغلب إلى الشؤون المادية والحسية . إن هذا التعليم لا شك ينير الرغبات في النفوس ويقوي إحساسها بالمطالب والضرورات ويؤكد أهمية المحسوسات في القلوب ، ولكنه لا يربي العقل والذهن ولا يشحذ مقدرة النقد والتمييز . وينفل كل الاغفال عن تهذيب النفس وتنوير الأفكار . وهو فوق كل ذلك يخل بالتوازن العقلي في المرء بما يبعث فيه من الميل المتطرف إلى الماديات ، فالذين يخرجون من الجامعات متحليين بهذا التعليم فلا ريب يغلبهم الزعم بكونهم عقليين ومفكرين ، وهذا الزعم هو الذي يجعلهم ينقدون كل شيء نقداً عقلياً ويجحدون بكل ما لا يسوغ منها في عقولهم ، ولكن ذهنهم يكون في الحقيقة منحرفاً عن مقتضى العقل ولا تكون فيهم الأهلية المطلوبة لتصفية مسألة ما على الطريق العقلي الصحيح ، أو تكوين رأي سديد في أمر من الأمور . وتظهر هذه « النزعة العقلية » غير المنطقية أكثر ما تظهر في المسائل التي تتعلق بالدين ، لأنها هي المسائل التي تصطدم بمبادئ الروحانية والخلقية والاجتماعية والعمرانية بنظريات الغرب في كل نقطة وفي كل مكان !

تكلم مع رجل مثقف بالثقافة الانكليزية في مسألة دينية ، واجمله — على سبيل الامتحان لذهنيته — يعترف قبل كل شيء بأنه مسلم . ثم

امرض عليه حكماً شرعياً مدعماً بسند ، تجده يهز كتفيه ويقول كمنطقي
مؤمن بالعقل : هذا من خرافات رجال الدين . ائتوني بحجة عقلية على
الأمر . وإن لم يكن عندكم تلك الحجة وكان كل ما بيدكم مقصوراً على
المنقول . فاعفوني من الاتفاق معكم في الأمر . وهذه الجملة أو الجملتان
من كلام الرجل تفضح السر أن الرجل لم يتشمم رائحة المذهب العقلي ،
ولم يعرف المسكين حق بعد التعليم والتربية العلمية المستمرة على السنوات
الطوال أنه ما هي المقننات العقلية لطلب الحجة وماذا تكون المنزلة
الصحيحة لطلب الحجة والبرهان . إن المرء يمكن أن يقف تجاه الاسلام
موقفين اثنين لا غير : أحدهما أن يكون مسلماً والآخر أن يكون كافراً .
وإن يكن مسلماً فمعنى إسلامه أنه قد آمن بأن الله هو الإله المعبود وأن
محمداً ﷺ رسول من عنده ، وقد أقر بأن كل ما بلغه الرسول عن ربه
سيتمعه بدون سؤال أو نقاش . فلم يبق له إذن أن يطلب الحجة العقلية في
كل واحد من الأحكام الشرعية على حدة وليس له من حيث هو مسلم
إلا أن يحقق في حكم بعينه هل أمر به الرسول أم لم يأمر . ومتى أثبت
بالحجة العقلية أنه قد أمر به الرسول فليس له إلا أن يخضع له ويتبعه .
إنه يجوز له أن يطلب برهاناً عقلياً للحكم لطمأنينة قلبه وزيادة بصيرته فيه ،
ولكن بعد أن يطأطئ رأسه لاتباع ذلك الحكم أما اشتراط الحجة العقلية
للاطاعة ، ورفض الاطاعة إذا لم تنهياً تلك الحجة أو لم تطمئن إليها النفس
فمعناه أنه يجحد بحكمية الرسول وسلطته ، وهذا الجحود يستلزم
الكفر ، والحال أنه اعترف بكونه مسلماً عند ابتداء البحث . فالآن إذا

اختار لنفسه موقف الكافر فموضعه الصحيح ليس داخل دائرة الاسلام بل خارجها . ويجب أن يكون — قبل كل شيء — من الشجاعة الأخلاقية بحيث يخرج من دائرة الدين الذي لا يؤمن به في حقيقة الأمر . فإذا فعل اعتبر حقيقاً بأن يطلب الحجة العقلية وبأن يجاب إلى طلبه .

هذه القاعدة من مقتضيات العقل السليم ولا يقوم بدونها تنظيم أو ضابطة في هذه الدنيا . ولا يمكن أن تقوم حكومة في الأرض — ولو لساعة — يطالب كل فرد من أفراد رعاياها بالحجة العقلية على حكمها ويرفض اتباعه بدون تلك الحجة . وكذلك لا يمكن أن يكون جيش ما جيشاً بمعنى الكلمة إذا سأل كل جندي منه عن السبب وراء أمر القائد، وجعل اطمئنان قلبه نفسه شرطاً في اتباع كل ما يؤمر به . ولا يمكن أن تقام مدرسة أو كلية أو نقابة وبالجملة أي نظام اجتماعي على مبدأ يحاول اقناع كل فرد من الأفراد على حدة ، ولا يطاع أمر من أموره مالم يطمئن إليه كل واحد من أفراد ذلك النظام . وإنما الحق أن كل نظام يدخل فيه المرء يدخل بهذه المفروضة الأساسية البدائية أنه يعتقد بالسلطة العليا لذلك النظام اعتقاداً كلياً وبذعن لحاكميتها . لذلك ما دام المرء جزءاً لهذا النظام فإنما واجبه أن يطيع تلك السلطة العليا سواء اطمأنت نفسه إلى أمر جزئي من أوامرها أم لم تطمئن . إن عصيان المرء لأمر من أوامر السلطة على سبيل الاجرام شيء مختلف ، ويمكن أن يبقى المرء داخلًا في نظام مع عصيانه لبعض جزئياته . ولكنه إن جاء يتطلب اطمئنانه الذاتي وبشرطه لاطاعته في جزئية بعينها من تلك الجزئيات مها

صغرت ، فانه قد أبى - في الحق - الاقرار بحكم السلطة العليا . وهذا إن ارتكبه رجل في نظام حكومة حاكمته السلطة باتهام الغدر ، وإن ارتكبه في جنديّة سيق إلى محكمة القضاء العرفي ، وإن فعل ذلك في مدرسة أو كلية اتخذ الاجراء لطرده منها ، وإن اقترفه في دين حكم عليه بالكفر . وذلك بأن مثل هذه المطالبة بالحجة العقلية لا يسمح بها لأي فرد في داخل أي نظام من النظم . وليس المقام الصحيح لمثل هذا الطالب للحجة داخل ذاك النظام بل خارجه . فعليه أن يخرج من دائرته أولاً ثم يعترض عليه كما يشاء .

هذه القاعدة هي الأصل والأساس في تنظيم الاسلام . فإن الاسلام لا يصدر الأحكام قبل كل شيء ، بل هو يدعو الانسان إلى الايمان بالله والرسول ، ويركز على هذا كل ما هناك من الأدلة والحجج . فهو يعنى بأن يقنع الانسان بكل حجة عقلية وكل شهادة من شهادات الفطرة الانسانية بأن الله الواحد هو إلهه ، وأن محمداً ﷺ رسول من عنده . فكل ما شئت من البحث والتدقيق العقلي فلك أن تعالجه في هذه المسألة الجوهرية ، ولئن لم تطمئن نفسك إلى الاسلام بأية حجة أو دليل ، فلن يكرهك أحد على الدخول فيه ولا يجري عليك حكم من أحكام الاسلام . ولكنك متى اخترت لنفسك هذا الدين بعد ذلك البحث والامتحان ، كنت في منزلة « المسلم » . ومعنى « المسلم » هو المطيع الخاضع . ولم يكن من اللازم إذن أن تعرض عليك الحجة والبرهان لكل أمر من أوامر الاسلام وتكون إطاعتك لتلك الاوامر موقوفة على طمأنينتك القلبية . وإنما

كان واجبك الاول بعد أن أصبحت مسلماً أن تطأطئ رأسك لاتباع كل ما يبلغك من أوامر الله ورسوله . (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا) (١). إن الإيمان وطلب الحجة العقلية كشرط في الإطاعة والإذعان أمران متناقضان لا يسوغ العقل السليم اجتماعهما أبداً . فالذي هو مؤمن لا يمكن أن يكون طالباً للحجة بحكم منزلته هذه ، وأما الذي هو طالب للحجة العقلية على هذا النحو ، فلا يمكن أن يكون مؤمناً (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) (٢).

إن العمل الجبار الذي قد قام به الاسلام في محيط الإصلاح والتنظيم يرجع الفضل فيه كله إلى هذه القاعدة المتينة . فالذي نهى عنه الدين بعد تثبيت الإيمان في القلوب ، انتهى عنه جميع المؤمنين . والذي أمرهم به جرى العمل عليه بأشارة واحدة في ملايين من بني آدم ولو أنه وجب تقديم الحجج العقلية لكل أمر من أمور الدين وتوقفت إطاعة الأوامر على تبين المنافع والمصالح لكل أمر ونهي ، لما أمكن أن يتحقق إلى يوم القيامة ذاك الإصلاح لاخلاق الإنسان وذلك التنظيم لأعماله الذي تم على يد النبي ﷺ في مدة قليلة لا تربو على ٢٣ عاماً .

على أنه ليس المراد بذلك أن أحكام الاسلام مخالفة للعقل أو أن حكماً منها صغر من أحكامه الجزئية يخلو من حكمة أو مصلحة ، وكذلك لا يعني

(١) النور : ٥١ .

(٢) الأحزاب : ٣٦ .

ذلك ان الاسلام يطلب من متبعيه تقليداً أعمى ويمنعهم من البحث عن الاسس العقلية والفطرية لآحكامه ومن تفهم مصالحها وحكمها . بل الحقيقة هي على عكس ذلك . والتدبر والتفكير لازم لاتباع الاسلام على الوجه الصحيح المرضي . لأن الانسان كلما أدرك حكمة الأحكام ومصلحتها أكثر كان اتباعه لها أصح وأكمل . ومثل هذا التفهم والتبصر لا يصد عن الاسلام بل هو يشجع عليه . ولكنه شتان ما بين التحقيق العقلي الذي يتبع الطاعة والامتحان العقلي الذي يتقدم الطاعة ويكون شرطاً مشروطاً فيه . فالمسلم بطبيع قبل كل شيء إطاعة غير مشروطة ثم يجتهد لإدراك مصالح الأحكام . وليس من الضروري ان يحيط فهمه بمصلحة كل حكم . وإنما قد حصل له في الحقيقة اطمئنان تام إلى الوهية الله ورسالة الرسول . وهو يريد مزيداً من الطمأنينة في الجزئيات متوخياً للبصيرة الكاملة . وإن حصلت له هذه الطمأنينة شكر الله ، وإن لم تحصل له ، ظل بطبيع الأحكام في بابها بلا حرج في النفس بفضل ذلك الاطمئنان الحاصل له بالله والرسول . فأين هذا الطالب للحجة العقلية من ذاك الطالب الذي يقدمه المرء عند كل خطوة ، ويقدمه مع الايدان بانه إن اقتنع بتلك الحجة سيقبل على الطاعة والا سيرجع على أعقابه .

وقد صادفنا أخيراً عبارة قد نشرتها جماعة مسلمة تشتمل على المثقفين بالثقافة الجديدة العليا من المسلمين . وليست معرضة عن الدين ، بل هي - عند نفسها - تقوم بخدمة دينية جليلة . فمن الامور التي تقوم بنشرها وتبليغها باسم « الاصلاح الديني » انها تمنع المسلمين من التضحية أيام عيد

الاضحى من كل سنة وتقترح عليهم أن الاموال التي يهلكونها في ذبح
الانعام يجب أن ينفقوها لاعانة الهيئات والمؤسسات الاقتصادية وتربية
الايامى والايامى وتهيئة المعاش لذوي البطالة . وقد اعترض على هذا
التبليغ رجل من المسلمين لم يبلغنا مقاله كاملا ، فالذي قيل جوابا عليه في
هذه المسألة هو ما يأتي :

« انه ما عدا اللجوء إلى النقل والتقليد لم نر أحدا يلقي لنا الضوء
على المصالح العقلية والتجريبية من وراء عمل التضحية هذا ولئن
أطلعنا فاضل قبل هذا كله على الناحية العقلية مما يعتقده من وجوب
التضحية لاستحقاقنا الشكر والامتنان ! »

هذه العبارة مثال لذهنية الرجال الذين يدعون أنفسهم « متعلمين
مثقفين » فبجانب ذلك الادعاء الشديد للمذهب العقلي ، وبجانب آخر
هذا الاظهار السافر لمخالفة مقتضى العقل ، فهاتان الجهلتان الاثنتان اللتان قد
خرجتا من قلم الباحث الفاضل تشهدان بأنه لم يحدد موقفه الصحيح قبل
الكلام ، فان كان يتكلم من حيث هو مسلم ، فواجبه أن يخضع أمام
« المنقول » قبل كل شيء . ويكون له بعد ذلك أن يطلب الحجة العقلية
بعد أن يطاطب رأسه لاطاعة أما إن كان ذلك منه شرطا في إطاعته فليس
له حق في أن يتكلم في موقف « المسلم » . فمثل هذا الطالب للحجة العقلية
يجب أن يتخذ موقف غير المسلم أولا ثم له أن يعترض على ما يشاء من
أحكام الاسلام ومسائله . ولكن لن يكون له عندئذ ان يلبس جلباب
الافتاء فيصدر فتواه في أمر من أمور المسلمين الدينية . أما صاحبنا
الفاضل فيتخذ كلا من هذين الموقفين المتعارضين في آن واحد ، ولكنه

لا يفي بالمقتضيات العقلية حتى لاوقف واحد منها . فبجانب لا يقوم الرجل
مقام المسلم فحسب بل يتبوأ منصب المفتي الديني ، وشأنه بجانب آخر أنه
يستخف « بالمنقول » . وإذا أثبت له كون الحكم « حكماً دينياً » بواسطة
النقل فانه يأبى أن يتبعه ويشترط لذلك ان يلقي الضوء على مصالح هذا
الحكم العقلية والتجريبية قبل كل شيء . ومعناه أن الرجل ان يقبل
حكماً ما لمجرد كونه حكم الله والرسول ، بل سيقبله نظراً إلى فوائده
العقلية والتجريبية . ولئن لم تبين له تلك الفوائد أو لم يرها الرجل
« فوائد » بما عنده هو من المقياس ، فانه لا بد أن يرفضه وينادي بمخالفته
ويجعله حكماً « فكداً » لا معنى له غير ملائم لروح العصر ، بل شيئاً مضرراً
وتقليداً إسرافياً ، ويبذل جهده كله لصدد المسلمين عن اتباعه . وبأيت شعري
أي عقل هناك يستسيغ الخلط بين هاتين الخطتين المتناقضتين والموقفين
المتعارضين ؟ ولو فرض أن مطالبة صاحبنا بالحجة العقلية أمر جائز صحيح
الا يجب قبل ذلك أن يبرهن أن صاحبنا من ذوي « العقول » ؟

إن الفائدة « العقلية » و « التجريبية » ليس المراد بها في الحقيقة
شيء معين معلوم ، بل هي شيء نسبي إضافي . وذلك أن عقل رجل من
الرجال يعتبر شيئاً ما نافعاً ومفيداً وعقل الرجل الآخر يحكم على نفس
الشيء حكماً بخلافه ، ويأتي الثالث فيقرر بنوع من المنفعة في ذلك الشيء
ولكنه لا يعيره اهتمامه بل يظن شيئاً آخر أكثر منفعة منه . وبجمال
الاختلاف أوسع في دائرة الفوائد التجريبية . فإن « الفائدة » أمر يختلف
فيه نظرية كل امرئ عن الآخر . وبناء على هذه النظرية يرتب المرء
تجاربه نفسه أو تجارب الغير فيحكم عليها بانها مفيدة أو غير مفيدة . ثم

هناك رجل يطلب النفع العاجل ويظن المصرة العاجلة شيئاً واجب الحذر
 فلا بد أن يكون اختياره مختلفاً عن اختيار الذي ينظر إلى عواقب
 الأمور . وثمة كثير من الأشياء فيها نوع من المنفعة ونوع آخر من
 المصرة ، فيختارها رجل لأنه يرضى قبول المصرة لأجل الفائدة المرجوة
 منها على جانب آخر ، ويجتنبها ثانياً لأنه يرى أن مضرتها أكثر من
 منفعتها . ثم يوجد هناك كثير من التعارض بين الفوائد العقلية والتجريبية
 فمن الأشياء ما هو مضر من ناحية التجربة ، ولكن العقل يحكم بأنه ينبغي
 أن تتحمل مضرته لأجل ما فيه من فائدة عقلية كبرى . كما أن هناك
 من الأشياء ما هو مفيد من الناحية التجريبية ولكن العقل يفتي بأنه
 يجب اجتنابه لتفادي ما فيه من مصرة عقلية . وما دام كل هذا التعارض
 بين أحكام التجربة وأحكام العقل ، فليس من الممكن أن يلقى الضوء
 على الفوائد العقلية والتجريبية لشيء ما على نحو يجعل جميع الناس
 يتفقون على كونه مفيداً ولا يبقى مجال الإنكار لدى أحد . ولا يقف
 الأمر على التوضيح وحدها ، فأى عمل من الأعمال الدينية كالصلاة
 والصوم والحج والزكاة وسائر الأوامر والنواهي الشرعية هو الذي قد
 ألقى الضوء على فوائده العقلية والتجريبية بحيث يكون الناس قد عادوا
 يرونها لامعة كالشمس المشرقة ، ويكونون بأجمعهم قد اعترفوا بها وجروا
 على التزامها . ولو كان الأمر كذلك لما بقي على وجه الأرض اليوم تارك
 للصوم والصلاة ولا منكر لأحكام الحج والزكاة . وهذا هو السبب في
 أنه لم يقف الإسلام أحكامه على فتوى العقل والتجربة لدى كل فرد ،
 بل وضع أساسها على الطاعة والایمان . فالمسلم لا يؤمن بالفوائد العقلية

والتجريبية بل هـ —و يؤمن بالله والرسول . وليس مذهبه أن يقبل شيئاً بعد أن تثبت له فائدته من ناحية التجربة والعقل وأن يجتنب شيئاً بعد ما تبرهن له مضرته على محك العقل والتجربة ، بل مذهبه أن كل حكم يثبت من عند الله والرسول هو واجب الاتباع وكل حكم لا يثبت على هذا النحو لا يتبع !

فالسؤال الجوهرى في هذا الوضع كله هو أنه هل آمنت بالعقل والتجربة أم بالله والرسول ؟ فإن كانت الأولى فلا علاقه لك بالاسلام ، ومن جعل لك ان تتكلم كالمسلم وتشير على المسلمين باجتنب « تقليد » من تقاليد الارض غير ذات الزرع بدعى سنة . وان كانت الاخرى فلا يجب أن تكون موضوع البحث الفوائد العقلية والتجريبية بل ينبغي أن يبحث ويرى : هل التضحية مجرد تقليد قد ابتدعها المسلمون أو هي عبادة قد رضىها الله لعباده وأجراها الرسول في أمته ؟!

تخافت مذهب التجدد

قد تناول الاستاذ (ن) مجلتنا الشهرية «ترجمان القرآن» بنقد تفصيلي في عدد يونيو من مجلته المعروفة ، فنشكر له هذا الصنيع . ومع أنه ليس من المعمول به عامة أن يناقش النقد الذي يظهر في الجرائد والمجلات ويعقب عليه بمثله ، ولكن الناقد الفاضل لما أنه قد أبدى في نقده هذا أفكاراً وآراء تتصل بالمبادئ والأصول المخصوصة لمذهب التجدد الذي هو يعرف به ، ومن أهم مقاصد مجلة «ترجمان القرآن» إصلاحها وتصحيحها ، زى من اللازم أن ننتهز أول فرصة سانحة لابتداء الرأي في موضوعها . يكتب الاستاذ (ن) :

« إن الغرض من إصدار هذه المجلة « أي مجلتنا ترجمان القرآن » ظاهر من اسمها ، وهو عرض مطالب القرآن وتعاليمه على الناس في صورتها الصحيحة المشرقة . ولا شك أن هذا الغرض مفيد ولا ينكر نفعه أحد . ولكن - كما أشار إليه رئيس التحرير الفاضل نفسه - ليس يسهل تحقيقه في العصر الحاضر . وذلك أن المصور الماضية التي كان الدين فيها عبارة عن مجرد تقليد السلف واتباع القديم لم يكن يصعب على المرء فيها أن يتولى عمل المصلح والمبلغ ، ولكن الآن وقد جاءت العلوم الجديدة والاكتشافات المصرية بأسلوب مبتكر للعمل والتفكير فأصبغت على الأذهان نعمة حرية

الفكر والرأي ، لا يمكن لدين من الأديان أن يحتفظ بوجوده الآن
لمجرد أنه يدعو إلى عمل كان يسير عليه السلف ويعرض فكراً كان يفكر
في مثله الماضون .

فبينما كان البحث يدور فيما مضى حول وحدانية الله فقد أصبح الآن
حق وجود الذات الإلهية محل نظر . وبينما كانت تثبت هداية النبي فيما
مضى بما أتى من المعجزات ، فقد كادت « المعلوم المغناطيسية » الآن تخرج
آلافاً من الرسل والأنبياء بحجة إتيان تلك المعجزات . وكان الواعظ
قبل هذا الزمان يجوز له أن يرفع نظره إلى السماء ويدعو إليه العرش
والكرسي ، ولكن اليوم وقد تحقق أن السماء ليست بشيء لم يكن عمله
ذلك ليفيد اليقين . وموجز القول أن هذا العصر لم يعد عصر « الذين
يؤمنون بالغيب » بل هو عصر « الذين يؤمنون بالتجربة والملاحظة » . وليس
من الهتين في هذا الوضع الحرج أن يقوم رجل لمناصرة الدين وحمايته على
حين أن فكرة الدين نفسه قد أضحت غير مقبولة .

ويكتب بعد ذلك :

« إن القرآن الكريم ينقسم باعتبار معانيه إلى أقسام ثلاثة : فالأول
يحتوي على تعليم الأخلاق ، والثاني هو الذي قد عرضت فيه العقائد ،
والثالث هو المشتمل على القصص والتمثيل . أما القسم الأول فلا حاجة
هناك إلى أن يكتب فيه المرء ويسوق الحجج والبراهين في بابه ، لأن
التعليم الأخلاقي يكاد يكون سواء في جميع النحل والأديان ، ولا يحصى
عن الاعتراف بأن تعليم الدين الإسلامي في باب الأخلاق لا يختلف ولا

يقصر عن تعليم الأديان الأخرى . أما القسمان : الثاني والثالث فيجب ولا شك أن يوليها الباحث أكثر العناية ، لأنها هما اللذان قد جاءت العلوم الجديدة والاكتشافات العصرية تبث الريبة والشك في أمرها في نفوس الناس . والواقع أنه إن وفق رجل في إزالة كل هذه الشبهات من أذهان الجيل الحديث ، فإنه سيكون حقيقة بأن يدعى مجدد هذه المائة .

« لذلك من نصحننا لصاحب المجلة أن يجعل على صفحاتها باباً مستقلاً مختصاً بهذا الموضوع ، يستقصي فيه جميع الآيات القرآنية التي نزت بخصوص العقائد والقصص ، ويعين معناها ومدلولها على الوجه الصائب المقبول ، ويدفع بذلك تلك الاعتراضات التي يوجهها الآن أهل العلم والتحقيق الجديد . »

ويكتب في ختام نقده :

« وإنا ندعو صاحب المجلة أن يتدبّر - قبل كل شيء - بالكلام على حقيقة الوحي والإلهام لأنه على فهمها يقف فهم حقيقة كلام الله ، وبالكلام على مسألة المعاد لأنه على حلها يتوقف اختيار المرء للطريقة الدينية أو اللادينية . ونحن نحب أن نرى أي معنى يعنيه صاحبنا للكلام الإلهي والمعاد . وسنعرض بعد ذلك شبهاتنا واعتراضنا في الموضوع . وإن فازت جهود صاحبنا في إزالتها سررنا بالأمر جداً ، لأن شناعة « الإيمان التقليدي الاضطرابي » التي قد وقع فيها كثير من الناس من أكبر أسبابها عقيدة المعاد أيضاً . »

هذه مقتبسات من مقال الناقد الفاضل . وإنا نترك المسائل الفرعية

والجزئية التي قد ألم بها في نقده وتتناول بالبحث المسائل التي تتصل بالاصول.
إن صاحبنا قد قسم مباحث القرآن الكريم على أقسام ثلاثة . ولكننا
نستطيع أن نقسمه على قسمين اثنين ييسر وسهولة . فالقسم الاول يحتوي
على الامور التي هي خارجة من حدود علمنا أو هي فوق إدراكنا والتي
لا نستطيع أن نحكم بكونها صحيحاً أو خاطئاً بالجزم ، وإنما يدعونا القرآن
إلى أن نؤمن بها على الغيب . والقسم الثاني يتضمن الامور التي لا تخرج
من دائرة علمنا ولذلك يمكننا أن نحكم في أمرها حكماً جازماً قطعياً .
فيدخل في القسم الاول: الوجود الالهي والصفات الالهية ، والملائكة والوحي
والكتب السماوية وحقيقة النبوة والبعث بعد الموت ونظام العقوبة والثواب
في اليوم الآخر وما عدا ذلك من الامور التي تعلو على حدود العلم
والادراك الانساني ، مما ورد في القرآن الكريم في ضمن القصص والتاويل ،
سواء أ كانت هذه الامور فوق الادراك الانساني العام بحكم نوعيتها أم
كانت كذلك لكوننا لا نصلح لأن نحكم بصدقها وصدقها ما دمننا في هذه
المنزلة العقلية والعلمية التي نحن فيها الآن . وأما القسم الثاني فيدخل فيه
جميع الامور التي ترتبط بمبادئ تعليم الحكمة وتركيب النفوس وتنظيم
الحياة الانسانية في الاسلام .

وحسبما يرى الناقد الفاضل لا حاجة هناك إلى البحث في القسم الثاني
لأنه يتساوى فيه الاسلام والديانات الاخرى . وإنما البحث يجب أن
يأشر في القسم الاول وحده لأنه لم تطرأ على النفوس حالة الريبة والتردد
إلا في تلك الامور التي تدخل في هذا القسم . أما السؤال عن السبب

في انبعاث هذه الريبة والتردد في تلك الاثـمـور فيجب عنه صاحبنا بأن
الناس في الزمان الماضي كانوا يؤمنون بالغيب لجـهـالـتـهم وتقديسهم للقديم .
ولكن الآن قد جاءت العلوم الجديدة والاكتشافات المصرية بأسلوب
مبتكر للعمل والتفكير وأسبغت على العقول نعمة حرية الفكر والرأي
لذلك لم يعد هذا العصر عصر « الذين يؤمنون بالغيب » بل هو عصر
« الذين يؤمنون بالتجربة والملاحظة » .

وهذا الرأي يقوم على أخطاء . أولها عدم التفطن للفرق الحقيقي
بين العصر الماضي والعصر الحالي . ومن سوء الحظ أنه قد وقع لا الاستاذ
(ن) وحده ، بل طائفة كبيرة من أمثاله في الظن الخاطيء أن مشعل
الدين كان لا يمكن أن يضيء إلا في ظلام العصر الماضي ، ومن المحال
جداً أن يضيء في هذا العصر الذي قد أشرقت فيه شمس العلوم الجديدة .
والحال أن العلوم العقلية التي يعبر عنها صاحبنا بضياء الشمس لا تخص هذا
الزمان وحده ، بل أن ضياء هذه العلوم قد برقت له الأبصار في الزمان
الغابر أيضاً ، وكان الذين برقت أبصارهم للألأئها في الزمان الغابر أيضاً
يظنون أن مشعل الدين لا يمكن أن يبقى مضيئاً الآن ، إذ أن العلوم التي
كانت بمنزلة « العلوم الجديدة » في ذلك الزمان والاكتشافات التي تعتبر
« الاكتشافات المصرية » عندئذ كانت — على حد زعمهم — قد جاءت
بأساليب مبتكرة للعمل والتفكير وأسبغت على العقول نعمة حرية الفكر
والرأي على وجه لم يدع مجالاً للقوم لأن « يؤمنوا بالغيب » في عصرهم
المتنور . أفلم تحدث هذه الحالة في تاريخنا من القرن الثاني بعد الهجرة إلى
القرن الرابع ؟ وهل رأيت أنه لما انتشرت في البلاد الاسلامية أفكار

افلاطون وأرسطو وبيقوريس وزينو وبرقليس والامسكندر والفردوسي وفلاطينوس ومن سواهم من علماء الفلسفة والحكمة ، فطلع عليها بذلك عصر التفكير الفلسفي والاجتهاد العقلي الجديد ، ألم تظن طائفة من الناس حينئذ عين ما تظنه الآن طائفة منا ؟ وهل لم تدفع الناس موجة « حرية الفكر والرأي » و « الاسلوب المبتكر للعمل والتفكير » في ذلك الزمان إلى الريبة والشك في عقائدهم الدينية ؟ ولكنه ماذا حدث بعد ذلك ؟ حدث أن وجدت تلکم المسائل النظرية والقياسية الكثيرة التي عرضها الفلاسفة وآمن بها كثير من الناس باطلة مخطئة بعد ، وأمست شمس الحكمة والعلوم التي كان الناس يرون مشعل الدين يخفق ويتضاءل أمامها منكسفة مظلمة في دورة واحدة من دورات الحداث ، وانقلبت « العلوم الجديدة » عندم علوماً متقدمة ، ولم تبق في « اكتشافاتهم المصرية » قوة لا بداع « الأساليب المبتكرة » للعمل والتفكير . وأصبحت الأساليب المبتكرة التي كانت ابتدعتها فيما قبل قديمة مزمنة . وانتهى الأمر إلى أن الاستنباطات العقلية التي قد باشرها القوم بناء على إيمانهم وثقتهم الكاملة باكتشافات عصرهم والتي أسسوا عليها مذاهب الفلسفة والحكمة ، قد بلغ من هوانها اليوم أن لا يتخرج من تنميد أكثرها طالب عادي من طلاب هذا العصر .

فالآن إذا كان يزعم أحد أن مشعل الدين كان يمكن أن يضيء في ظلام العصر الماضي ولكنه لا يمكن أن يضيء في عصر النور هذا ، فانه ليخيل إلينا أن التاريخ يعيد نفسه . والأشياء التي يسمونها اليوم بالعلوم الجديدة ، و « الاكتشافات المصرية » ويدعون بناء عليها أموراً ادعتها

أسلافهم في الغابر ، انا نعتقد أن أكثرها سيلقى المآل الذي لقيته «العلوم الجديدة» و«الاكتشافات المصرية» لعمد السالفين، وإن هذه الأساليب المبتكرة للعمل والتفكير أيضاً ستبلى وتندرس لا محالة مع مرور الزمن . وإن أنت أمنت في جميع هذه العلوم والاكتشافات التي هي مفخرة الجيل المتجدد الحاضر ، وسألت عن أمرها الرجال الذين هم محققو تلك العلوم ومعالجو تلك الاكتشافات أنفسهم علمت أن هذه أيضاً — كالعلوم الماضية — تحوي عنصراً قليلاً جداً من الحقائق اليقينية التي يمكن أن يقال عنها بثقة انه لا إمكان لبطلانها فيما بعد . وأما ما سواهم من مضامين تلك العلوم فكلها ظنون وأقيسة ونظريات وشكوك واحتمالات عقلية قد يقال عنها بجزم انه كلما خطا الزمان خطوات نحو الرقي لبست هذه «العلوم الجديدة» و«الاكتشافات المصرية» كسوة الخلوقة والقدم وعادت «الأساليب المبتكرة للعمل والتفكير» التي هي مدينة بوجودها لهذه العلوم والاكتشافات تترك المجال لأساليب مبتكرة أخرى .

فإذا كان الواقع هكذا فليس هناك ما يجمل عاقلاً ذا حلم وبصيرة يخاف انه — وقد جاءت «العلوم الجديدة» و«الاكتشافات المصرية» بالأساليب المبتكرة للعمل والتفكير وأسبغت على العقول نعمة «حرية الفكر والرأي» — فماذا يكون مصير الدين ! وإنما شأنه أن يتمتع تلك العلوم والاكتشافات بنظرة فاحصة ليعلم أن جوانبها التي هي متعارضة مع الاسلام هل هي يقينية في نفسها أم لا . فان كانت من اليقينيات حقاً وكانت بجانب آخر متعارضة مع المعتقدات الحقيقية التي يقوم عليها

الدين ، كانت هناك أزمة ولا شك وتساءلت نفسه هل يؤمن بالدين او بتلك النتائج اليقينية للبحث والتحقيق . ولكنه ان كانت تلك الجوانب المتعارضة مع الدين مجرد أقيسة ونظريات ، او كانت مما يدفع المرء الى الريبة والشك فحسب ، لم يتهيب من تصادمها مع الدين ، لانه ان كان الدين قائماً على دعائم اليقين والاذعان فلا عبرة بالظن والقياس والشك والتردد بازائها . وان كان الدين شيئاً مبنياً على الظن والقياس ، فهذا الظن والقياس هو الاساس للنظريات العلمية الجديدة أيضاً . فم يرجع أحدهما على الآخر ؟

ان التهيب للعلوم الجديدة والاكتشافات المصرية والنظر الى الدين بقصد الاصلاح والترميم انما هو مذهب من قد رسب في نفوسهم ان كل جديد هو العلم والاكتشاف ومن اللازم لمسايرة العصر أن يتقبله المرء أو يؤمن به وان كان مجرد قياس او نظرية وكان القوم لم يمتحنوه على محك النقد الصحيح ببصيرة علمية نافذة . وهؤلاء هم الذين قد ولعوا بابتداع الاساليب المبتكرة للعمل والتفكير وان كانوا لا يعرفون كيف تبدع تلك الاساليب وأي الاساليب تكون رشيدة معقولة وأنها تكون مسخيفة صبيانية . وكذلك أضحى الادعاء لسبوغ نعمة « حرية الفكر والخيال » من خصيصة أهل النظر السطحي ، ولكنهم لا يعلمون ان مجرد حرية الفكر والشعور فتنة وحالة خطيرة ان لم يصحبها علم واسع محكم ونظرة بالغة عميقة وذهن متوازن صحيح الفكر . وكل هذا مما لا تجود به الفطرة للناس بالسخاء الذي يفرضونه في هذه الايام .

والنظرية الثانية التي قد تولدت من هذه النظرية هي أنه لم يعد هذا العصر « الذين يؤمنون بالغيب » بل هو عصر « الذين يؤمنون بالتجربة والملاحظة ». وانا لم نستطع حتى بعد كثير من التأمل ان ندرك المقصود الحقيقي الذي عناء القائل من وراء كلمته هذه . ان كان المقصود ان هذا العصر لا يؤمن فيه بشيء يدخل في نطاق الغيب ولا يعالج بالتجربة والملاحظة ، فهو خطأ بالمرة . لان معناه بعبارة أخرى ان الناس في هذا الزمان قد ارتضوا ان يعيشوا داخل الحدود التي يمكن ان تكون تجربتهم ومشاهدتهم فيها وسيلة لا اكتساب العلم والتي يمكنهم ان يستخدموا فيها حواسهم ، وان الانسان قد ترك التفكير فيما يخرج من تلك الدائرة من الامور وألغى ان يحكم في بابها بالقياس والاستقراء . ولكن كل من أتاحت له ولو نظرة عاجلة في « العلوم الحديثة والاكتشافات العصرية » ان يقبل هذا القول . دع الفلسفة وعلوم ما بعد الطبيعة التي تبحث تماماً في أمور الغيب . وخذ العلم التجريبي وأموره الطبيعية التي انما يعتمد عليها صاحبنا حينما ينادي بالايان بالتجربة والملاحظة ، بأي ناحية من نواحي هذا الفن لا يتوقف تحقيقها على الاقرار بالقوة والطاقة الكامنة ، وقانون الطبيعة ، والمادة والنسبة والعلة والمعلول وما اليها من الامور . وأي علم من علوم الطبيعة لا يؤمن بهذه الامور ؟ ولكن اذهب الى خبير من اكابر خبراء العلوم التجريبية واسأله : أي هذه الامور هو يعلم حقيقة وأنها قد أدرك كنهه بحواسه ؟ وأنها قد جرب أصل وجوده وشاهده بأمر عينيه ؟ وأنها يمكنه ان يقدم الثبوت القطعي لوجوده ؟ ان لم يكن هذا كله من الايمان بالغيب فأني شيء هو ؟ .

وقد يكون المعنى الآخر لكلمة صاحبنا ان هذا الزمان لا يؤمن فيه
الا بالشيء الذي قد جربه وشاهده جميع البشر والذي هو عند جميع
أفراد النوع الانساني بمنزلة الحاضر والمشهود . ولكن هذه الكلمة
لا تخرج من فهم امرىء عاقل . لانه من البديهي ان جميع المعلومات
الانسانية ليست حاصلة للأفراد الانسانيين على حدتهم وانفرادهم ، بل ان
جانها الاكبر يتخصص فيه الجماعات المقيمة والافراد المعلومون ، وتكون
كل شعبة من هذه المعلومات المخصصة في حكم « الحاضر » للعالمين
الاخصائيين في موضوعها وفي حكم « الغائب » لسائر أفراد البشر .
ويضطر الجمهور الى ان يؤمن — على الغيب — لذلك الرجل أو لتلك
الطائفة التي تكون خيرة فيها .

وقد يكون المفهوم الثالث لهذا الحكم الكلي ان كل امرىء في هذا
الزمان لا يؤمن الا بما يدخل تحت تجربته أو مشاهدته الشخصية ولا
يؤمن بشيء يكون له في حكم الغيب . ولكنه قول لا يمكن ان
يخرج من ذهن الانسان شيء أسخف منه . وذلك ان امرءاً بهذه الصفة
لم يوجد على الارض في الماضي ولا هو يوجد اليوم ولن يوجد كذلك
الى يوم القيامة . وإن كان مثل هذا الرجل موجوداً في الواقع فلا يحجمن
صاحبنا من الايمان اليه ، لان هذا الاكتشاف سيكون أكبر وأهم من
سائر الاكتشافات العصرية .

فمن أي وجه نظرت في هذه الجملة التي نقلناها لصاحبنا لم تجدوها
تقارب الصدق . وإن التجربة والملاحظة لنفسها شهادة بأن عصرنا هذا
أيضاً عصر من يؤمنون بالغيب ، كما أن العصر الماضي . والشيء الذي

يقال له « الايمان بالغيب » لم ينج منه الانسان قط ولا هو يستطيع ان ينجو منه أبداً . وكل امرئ يؤمن بالغيب — وهو مضطر لان يفعل ذلك — في تسع وتسعين وتسعمائة ، بل أكثر ، في كل الف من أمور حياته . وهو إن أخذ على نفسه أن لن يؤمن الا بما يأتي تحت تجربته ومشاهدته فانه سيضطر الى ان يقصي عن ذهنه كل تلك الذخيرة من المعلومات التي قد أنزلها في ذهنه منزلة العلم واليقين اعتماداً على الغير ، وان يلغي كل تلك الوسائل لاكتساب العلم التي هي خارج تجربته او مشاهدته نفسه . وستكون هذه حالة لن يمكنه ان يعيش فيها ، فضلاً عن ان يقوم بعمل من أعمال هذه الحياة ، لذلك لا يمكن النفي الكلي للايمان بالغيب ولا الايمان الكلي بالتجربة والملاحظة في هذا الزمان ، وايضاً لا يرجي إمكانية أبداً في زمان أنور وأشرق من هذا الزمان . وانما الانسان مضطر لاحالة في كل زمان وفي كل حال الى ان يؤمن بكثير من الاشياء بدون تجربة ومشاهدته نفسه اعتماداً على الغير فمن الامور ما يؤمن به المرء لاخبر المتواتر الذي وصل اليه فيه كأن يهلك الانسان اذا أكل السم . فهذا لم يجربه كل امرئ لنفسه بأكل السم ولا شهد آخر بأمر عينه يموت بأكله . ومنها ما يضطر المرء الى الايمان به لرواية رجل أو بضعة رجال يوثق بهم ، كاعتماد القضاة والحكام على الشهادات ، فهم إن لم يفعلوا ذلك لا يمكن أن يتحرك دولا ب القضاء ولو لساعة . كما أن هناك أموراً يضطر الانسان إلى الاقرار بها لأنه يعرضها خبير اختصاصي في فنها . وهذه الحالة يمر فيها كل طالب علم في كل مدرسة وكل كلية ، فانه إن لم يؤمن الطالب — على الغيب — بالبحوث والاكتشافات والنظريات التي يقدمها أكابر الخبراء في ذلك الفن لم يخط خطوة إلى

الأمام في طريق العلم، ولا استطاع أن يتقدم في عمله الى المنزلة التي تؤهله هو نفسه - كأولئك العلماء والخبراء - لأن يبحث في الحقائق العلمية .

فالثابت إذن أننا نؤمن للغير إيماناً بالغيب - ونحن مضطرون الى أن نؤمن كذلك - في تلك الأمور التي لم نكتسب العلم فيها بتجربتنا ومشاهدتنا الذاتية ، وقد اكتسبه غيرنا . فيواجهنا بعد ذلك سؤال واحد ، هو الذي يتوقف عليه الفصل في هذه القضية وهو أنه : لأي شخص يجب أن نؤمن ، وفي أية مسألة ؟ ومن المسلم به مبدئياً أنه في كل أمر من مثل هذه الأمور يجب نؤمن الرجل أو للجماعة التي نطمئن إلى أنها تملك أصح الخبرة وأكملها فيه وتتهياً لديها أحسن الوسائل لمعرفة . فتبعا لهذه القاعدة العامة لا يستشير المريض محامياً بدل الطبيب ، ولا يذهب المرافع الى مهندس بدل المحامي . بيد أنه يقع الاختلاف في مسائل الإلهيات والروحانية وينشأ السؤال أن هذه المسائل هل يقبل المرء فيها آراء علماء الفلسفة وأساتذة العلوم العقلية أو آراء الهداة الدينيين والروحانيين للعالم الانساني ؟ أي هل يؤمن المرء في موضوع الوجود الإلهي والملائكة والوحي والالهام والروح والحياة بعد الموت والعذاب والثواب في اليوم الآخر وما الى ذلك من أمور الغيب ، هل يؤمن في كل ذلك بما يقول امثال كانت واسبنسر وآين شتاين وبرجسان أو بما يدعو إليه الدعاة كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ؟ فالذين ينادون « بحرية الفكر والرأي » يميلون الى الطائفة الاولى ويمتحنون دعوة الانبياء عليهم السلام على المحك الذي أخذوه من تلك الطائفة - طائفة الفلاسفة والمفكرين - فكل ما ثبت عليه آمنوا به ، لا لأن الانبياء - عليهم السلام - قد دعوا إليها ، بل

لأنها قد حازت قبولاً لدى الحكماء والفلاسفة ، ومن سوء الحظ أن مثل هذه الأمور قليلة جداً بل هي تكاد تنعدم . وأما ما وجد زائفاً على المحك رفضوه كشيء لا اعتبار له . وبخلاف ذلك إن الذين يدعون « أنصار القديم وأتباع السلف » يذهبون إلى أنه ليس من الصحيح أن يستفسر أهل الإلهيات والروحانيات عن المسائل الطبيعية والعقلية ولا من الصحيح أن يستفسر أصحاب العلوم الطبيعية والعقلية عن الإلهيات والروحانيات . وإنما يختلف اختصاصها وتبين دائرتا عملها ، ومن الخطأ الأساسي الأول أن يستطلع المرء في علم من العلوم آراء خبير في غير ذلك العلم . إن الحكماء والفلاسفة منها كان لهم من عمق البصر في العلوم العقلية فانه لا تسمو منزلاتهم في العلوم الإلهية على منزلة عامي ، وليس عندهم من وسائل المعلومات في بابها إلا ما يملكه كل امرئ عادي . وإنما تختص هذه العلوم بالأنبياء عليهم السلام ، فهم الخبراء الاختصاصيون فيها ويبدم وخدم الوسائل الحقيقية لمعرفة . لذلك يجب أن يؤمن المرء في أمور الإلهيات والروحانيات بالأنبياء عليهم السلام وخدم . وإن كان لك مجال المناقشة والبحث في هذا الخصوص فهو في أنه هل هم صادقون وذوو البصيرة التامة في العلوم الإلهية أم لا ؟ ولكنه إن ثبت أو أثبت لك أنهم في الحقيقة كذلك ، يتحتم عليك عندئذ أن تؤمن بكل ما قاله أولئك عن علمهم وبصيرتهم . ويكون إنكارك لها وسوق الأدلة والحجج بخلافها كمثل إنكار أعمى لوجود الشمس وتقديمه الحجج لامتناع وجودها تكذيباً للبصراء . فمثل هذا الرجل منها كان فيلسوفاً عظيماً عند نفسه فإن الرأي الذي سيراه ذلك البصير الذي يرى الشمس بعيني رأسه في هذا الأعمى الفلسفي الجاحد لا يحتاج إلى بيان .

وعسى أن تعترض أن الذي قد قاله الانبياء عليهم السلام في أمور الغيب لا تصدقه « العلوم الحديثة » و « الاكتشافات المصرية » ، ولذلك قد ابتلي الناس بحالة « الريبة والحيرة » و « بالايان التقليدي الاضطرابي » ، ولكننا نسأل أي تلك الحقائق اليقينية من تلك العلوم والاكتشافات هي التي تتعارض مع الاسلام ؟ إن كانت هناك مثل هذه اليقينيات فهاتوها لنطلع عليها ونفكر في أننا هل نؤمن بالقرآن أو بالعلوم الحديثة والاكتشافات المصرية . وإن لم تكن ، ولن تكون ، كما يبدو من كلمات « الريبة والحيرة » و « الايمان الاضطرابي » ، التي جاءت في كلام ناقدنا الفاضل . فهل العلوم الحديثة والاكتشافات المصرية لا تملك الا أسلحة النظريات القياسية والظنية التي اعتمداً عليها قد أعلنت الحرب على الدين ، والتي قد جاء بريقها - لا قوة فتكها - يجعل « أنصار حرية الفكر والرأي » يؤملون ان الدين اذا سمع بها هلع جزعاً واضطر الى التخلي عن المضمار . انك مهما أوليت هذه العلوم والاكتشافات من الاهمية فلا تنسى ان هذه لم تكن لتفيد اليقين في أمور الغيب . اقصى ما يكون من تأثير هذه العلوم فيك ان تصاب « بالريبة والحيرة » فتقول انه لا يمكن لنا ان نحكم في أمور الوحي والالهام والبعث بعد الموت والجزاء والمقاب في اليوم الآخر ووجود الملائكة ووجود الذات الإلهية حكماً قاطعاً بالنفي أو بالإثبات . ولكنه ليس من الممكن ان تنفك هذه العلوم في شيء في الخروج عن حالة « الايمان التقليدي الاضطرابي » ، والتمتع بنعمة الكفر المفيدة برد اليقين لأن هذه العلوم لا تزودك بحجة للجحود القطعي بالأمور المذكورة آنفاً . وإن شيئاً ما

لا يكفي للقطع بعدم وجوده ان يحتج بأنه لا برهان هناك لوجوده .
« فالريية والحيرة ، اذن هو المنزل النهائي الاخير الذي تنتهي بك اليه
علومك الحديثة واكتشافاتك العصرية . ولكنه أسوأ المنازل من الناحية
العقلية والذهنية . وان العلوم التي لا تستطيع أن ترفد الانسان براحة
اليقين ، بل تتركه حيران في موضع لا يجد فيه ملاذاً لطمأنينة والهدوء
والتي تدفع به الى ورطة والايان التقليدي الاضطرابي ، لكونه لا يجد برد
اليقين في مذهب الكفر ، لاريب أن هذه العلوم أسوأ للانسان من الجهل .

وان كان ثمة ما يخرج الانسان من هذه الازمة فهو الايمان بالغيب
وحده . فإنك إذا آمنت بأن فلاناً من عباد الله نبي واعتقدت أنه يملك
البصيرة الكاملة في العلوم الإلهية ووثقت بأنه لا يكذب أبداً فإنه لا يبقى
لك مجال للحيرة والارتباب في أمور الغيب ، ويقوم اعتقادك على أساس
محكم من اليقين والاذعان لا يصدمه علم من العلوم الحديثة ولا شيء من
الاكتشافات العصرية ولا أسلوب مبتكر للعمل والتفكير ولا غلبة حرية
الفكر والرأي في كل مكان . ولذلك قد صرح الله تعالى في القرآن
بأن هذا الكتاب هدى المتقين ، ومن أولى صفات المتقين أنهم يؤمنون
بالغيب . (هدى المتقين الذين يؤمنون بالغيب) « البقرة : ٣ » . فهذا الايمان
بالغيب هو الذي يقوم عليه بناء الدين بكامله . وان هدمت الجذر والاساس
فانك لا تستطيع ان تهتدي في أمر المعتقدات الدينية الاساسية التي لا وسيلة
عندك لمعرفة حقيقتها الى رأي تكون موقناً بصحته ويكون باستطاعتك
أن تقنع الغير أيضاً بصدقه .

ويبقى السؤال الأخير في هذا المقام وهو أنه ما هي الوسيلة لتحقيق ان رجلاً بعينه نبي في الواقع وله البصيرة الكاملة في العلوم الإلهية ، وهو من الأمانة والصدق بحيث ان أخبرنا من أمور الغيب بأشياء تخرج عن حدود عقلنا وتسمو على منتهى علمنا نؤمن له ونصدق ما يعرض ونستطيع ان نقول بجزم انه لا يكذب ؟ هذا السؤال يتوقف حله على أمرين اثنين : أولهما أن نمتحن السيرة الشخصية لذلك الرجل بأشد وأقصى ما يكون من المقياس الذي تمتحن به سيرة إنسانية ، والآخر أن نأخذ من دعوته تلك الأمور التي لا تخرج عن دائرة علمنا والتي يمكننا أن نحكم فيها حكماً عقلياً بجزم ، فننظر فيها نظر الدارس المتأمل . فإن ثبت لنا كنتيجة الامتحان لسيرته وللجوانب المدركة من دعوته أنه لا نظير له في صدق المقال وأنه بجانب ذلك يعلم في جميع نواحي الحياة العملية والفكرية تعالماً مكتملاً من الحكمة والسعادة والخير لا يستطيع العقل الانساني أن يجد فيه مغزاً من أية ناحية ، فلا مبرر هناك لئلا نعتقه صادقاً ونظن به سوءاً أنه قد اختلق كل هذا الكذب والتزوير من وجود الإله والملائكة والعرش والكرسي والوحي والالهام والبعث بعد الموت والجنة والنار لمجرد أن يخدع به الدنيا بدون أن يكون عنده علم بذلك .

لذلك فالخطأ الثالث الذي وقع فيه الاستاذ (ن) لأنه لا يعتبر القسم الأول (أي القسم الثاني حسب تقسيمنا) من القرآن جديراً بالبحث ، ويظن بعد ذلك أن هذا الجانب تتساوى فيه جميع النحل والأديان او تكاد ، ولا يختلف تعليم الدين الاسلامي في بابه عن تعليم الأديان الأخرى . أو يقصر دونه . وبخلاف هذا كله نقول إنما يتوقف الفصل بصدق القسمين

(الثاني والثالث) (أي القسم الاول حسب تقسيمنا) على أن نمتحن
سيرة النبي محمد ﷺ ونستعرض القرآن الكريم فننتقد منه ذلك القسم
الذي لا يتعلق بأمور الغيب وألا نكتفي بقول ان هذا القسم من التعليم
الاسلامي لا يختلف عن تعليم الأديان الاخرى او يقصر دونه ، بل ثبتت
بالأدلة والبراهين أن هذا أسمى وأرفع وأجل من كل ما يوجد منه عند
الأديان الاخرى غير الاسلام . وما دمنا لا نقطع بشيء في هذه المرحلة
من البحث ، فإن من الخطأ المبدئي أن ندخل في المرحلة الثانية (المتعلقة
بأمور الغيب) منه . وبدون تسوية البحث في هذه المرحلة الاولى لا يمكن
التسوية في مرحلة الامور الغيبية أبداً .

ويريدنا الاستاذ (ن) أن نبحث في المعاد والكلام الإلهي ،
والآيات التي تتعلق بالمقائد والقصص . ولكن هذا البحث له عندنا وجهان
اثنان وهما يتعلقان بفئتين مختلفتين : احدهما الفئة التي لا تؤمن برسالة
النبي ﷺ ، فهي تشك لذلك في هذه الامور والاخرى التي تؤمن برسالته
ﷺ ولكن تخالجه شكوك وشبهات في أمور الغيب . فمساليب البحث
والمناقشة مع هاتين الفئتين تختلف وتباین . لذلك مادمنا لا نعلم الى أي
الفئتين ينتمي المعارض لا بسمنا ان نتباحث معه في الموضوع .

وذلك ان الفئة الاولى لا يجدي معها البحث والمناقشة - حول المعاد
والكلام الإلهي وسائر أمور الغيب لأنه ليس من الممكن الوصول الى
النتيجة بالبحث في الفروع مع بقاء الاختلاف في الاصل والجوهر .
فالامور التي نحن نؤمن بها من المعاد والكلام الإلهي وما يتعلق بوجود

الإله وصفاته ليس إيماننا بها وإذعاننا في بابها آتياً من أن تحقيقنا العقلي أو تجربتنا ومشاهدتنا الذاتية قد أعطتنا علماً قطعياً يقينياً في تلك الأمور لا يمكن أن تقام في وجهنا حجة عقلية بخلافه . ولو كان الأمر كذلك لكان من الميسور أن نبحث في تلك المسائل بالاعراض عن البحث في الرسالة . ولكن الواقع أن أساس إيماننا وإذعاننا بتلك الأمور هو اعتقادنا بأن محمداً ﷺ صادق في قوله وأن كل ما عرضه علينا مما يتصل برسالته ويكون القرآن الكريم من عند الله هو حق لا مرية فيه . ومن هذا الأصل يتفرع قولنا بأنه ما لم نجعل رجلاً منكراً لرسالة محمد ﷺ يقر ويدعن بهذه المسألة الاساسية لن نباشر البحث معه في مسألة فرعية .

وأما الفئة الثانية فانا لانعرف لها حقاً في أن تؤمن بجانب رسالة محمد ﷺ وتتكلم بجانب آخر في أمور الغيب من جهة ان ما جاء في القرآن وما نبأ به محمد ﷺ هل هو صحيح أم خطأ ؟ وذلك انها حالما تقف هذا الموقف من تعاليم القرآن والنبي تدخل في عداد الفئة الاولى . ولو ان المرء من الفئة الثانية حقاً فانه يتحتم عليه ان يسلم بأن كل كلمة جاءت في القرآن صحيحة وأن كل ما عرضه محمد ﷺ سليم الخطأ . وإنما يحق له ان يتكلم في هذا كله من جهتين : اولاهما انه هل جاء هذا وهذا في القرآن في واقع الامر ام لم يجيء ، وهل قال النبي ﷺ هذا وهذا في الواقع ام لم يقل ! والاخرى ان الذي قد ثبت مجيئه في القرآن والسنة ماهو مفهومه الصحيح !

وأمر آخر نريد ان نتكلم عنه في الختام هو ان الاستاذ (ن) قد اقترح ان يفتح في مجلة « ترجمان القرآن » باباً للمناظرة وأظهر من نيته

انه سيعرض فيه ما يمتريه من الشكوك والشبهات . فأما شغل المناظرة المصطلح عليه عامة فقد اجتنبناه دائماً وزيد ان نجتنبه في هذه المجلة ايضاً لأننا لا نود نقاشاً لا تكون غايته سوى الرياضة الذهنية والصراع العقلي . وأما المناظرة العلمية التي يكون المقصود من ورائها التحقيق والاثبات والتي يخوضها الفريقان بالرغبة الصادقة في أن يظهر ا ما هو الحق عندهما ويؤمننا بما يثبت انه حق ، فنحن مستعدون لها في كل حين . فلا اعتراضات والشبهات التي ستعرض على صفحات مجلة الاستاذ (ن) ستنقل بلفظها كاملة على صفحات « ترجمان القرآن » ويحجب عليها . وكذلك من المرجو أنه إن تناول الاستاذ (ن) جواب « ترجمان القرآن » بالنقد نقل الجواب المنتقد بلفظه على صفحات مجلته ، حتى يطلع قراء المجلتين على جانبي البحث كليهما ويتمكن من أن يكون في الأمر رأياً بأنفسهم أيضاً . وإن عرض جانب واحد من البحث واجتناب عرض الجانب الآخر هو عندنا اعتراف بالضعف الشخصي !



ملاحظة :

ومما عسى ان يروق القراء علمه أن هذا المقال أجب عليه الاستاذ (ن) بأن ألقى مبادلة مجلته بمجلتنا « ترجمان القرآن » ، وهي لا تزال ملفاة حتى اليوم . إن من الناس من يحسنون خداع شبيبتنا بمزخرف من القول والرأي . ولكنهم إذا دعوا إلى البحث الاصولي الجدي على الطريقة العلمية المحضة فانه قلما ترسخ قدمهم في هذا المضمار . (المؤلف)

النقص الأساسي نخططنا التعليمية

إن مجلس الجامعة المسلمة بعليكره قد وجه عنايته في جلسته السنوية الماضية (المنعقدة في ابريل سنة ١٩٣٦) إلى أمر هام كان يستدعي العناية منذ بعيد، وهو إصلاح الطريقة الناقصة لتعليم علوم الدين والإلهيات وضرورة بث الروح الإسلامية الحقيقية في طلبة الجامعة . أما تعليم العلوم الجديدة والآداب والفنون الغربية فقد تهيات له في جامعات الحكومة أحسن الاسباب ، مما يساوي على الأقل ما يوجد منها في جامعة عليكره فلم يكن المسلمون في حاجة إذن إلى تأسيس جامعة خاصة لهم لهذا الغرض وحده . وإنما الامر الذي جعل المسلمين يفكرون في تأسيس جامعة مستقلة لأبناء أمتهم والذي نالت هذه الفكرة لأجله رضى الناس هو كون المسلمين يريدون أن يستفيدوا من التعليم الجديد ويبقوا مع ذلك « مسلمين أيضاً » ، وهذا مالا تحققه الكليات ولا الجامعات الحكومية ، وهذا هو الذي احتاج المسلمون لأجله إلى جامعة اسلامية لهم . ولكنه إن لم يكن هذا المقصود متحققاً حتى في جامعتهم أنفسهم ، ولم يتخرج منها من حاملي الشهادات العليا إلا مثل من يخرجون من الجامعات الحكومية حذو القذة بالقذة ، ولم ينبغ في هذه إلا مثل من ينبغ في تلك الجامعات

من « السادة الافرنج الملونين ، أو الوطنيين الهنديين ، أو « الملاحدة -
الشيوعيين ، فأى ضرورة هناك لإنشاء جامعة مستقلة وإدارة شؤونها
بصرف ملايين من الروبيات ؟

هذا السؤال كان من اللازم أن يوضع موضع العناية والاعتبار منذ
البداية . وأول ما كان يجب أن يفكر فيه حينما ابتدأ العمل بإنشاء الجامعة
هو أنه ما الحاجة بنا إلى جامعة مستقلة . وما المنهاج لقضاء هذه الحاجة
في الوقت الحاضر .

ولكنه قد صدق من قال يصف المسلمين في هذا العصر : انهم قوم
يعملون أولاً ويفكرون ثانياً . فالذين كان بهم شغف بإنشاء الجامعة
كانوا مشغوفين بإنشاء الجامعة فحسب ، ولم تكن في ذهنهم صورة واضحة
منها . فلا يعينهم كيف ينبغي أن تكون الجامعة المسلمة وما هي الميزات
التي يصح ان تدعى معها جامعة باسم « الجامعة المسلمة » . فكان من
نتيجة هذا العمل المنفصل عن التفكير أن تأسست في مدينة عليكره أيضاً
جامعة من نفس الطراز الذي أنشئت الواحدة منه في اكره والثانية في
لكنو والثالثة في داکا من قبل . ولتناسبة صفة « المسلمة » في عنوان
الجامعة أدخل جانب من علوم الدين في برامج تعليمها ، حتى اذا سأل
سائل عن السبب في إلحاق صفة « المسلمة » هذه باسم الجامعة عرضت
عليه مقررات هذه العلوم من القدوري ومنية المصلى والهداية برهاناً على
« اسلامية » الجامعة . ولكن الواقع انه لم يراع في تأسيس هذه الجامعة

وتشكيلها ما تنفرد به عن غيرها من الجامعات الحكومية وتكون «جامعة إسلامية» بكل معنى الكلمة .

من الممكن أن يكون النهج والشفف الشديد بعمل التعبير لم يدع القوم في بدء الامر يفكرون في أمر التصميم الصحيح الملائم ولكن المعجب أنه قد مضت على تأسس الجامعة خمسة عشر عاماً ولم يشعر أرباب تعليمنا «ولو مرة واحدة» : ماذا كانت الغاية المقصودة من بناء الجامعة وإلى اين يسير هذا الموكب المولى عن وجهته . ومما تدل عليه الاحوال منذ البداية ان هذه الجامعة لا هي جارية على النهج الذي يجب ان تجري عليه جامعة إسلامية ، ولا هي آتية بتلك النتائج التي كانت مطلوبة منها حقاً . فلا فرق بين طلبتها وطلبة جامعة حكومية . ولا يوجد في جوها شيء من السيرة الإسلامية والروح الإسلامية والسلوك الإسلامي ، كما ينعدم فيه التفكير الإسلامي والعقلية الإسلامية . ولعله ليس واحداً في المائة عدد الطلبة الذين قد تخرجوا من الجامعة بوجهة نظر إسلامية وبمطمح رجل مسلم والذين قد أهلهم التعليم والتربية في هذه الجامعة بأن يستعملوا علمهم وقواهم العقلية فينبثوا في حياة الأمة المسلمة روحاً حماسية جديدة ، أو يقوموا — على الأقل — بخدمة علمية او عملية نحو أمهم . ولو أن نتائج تعليم هذه الجامعة كانت من النوع السليبي فحسب ، لكان الامر. ولكن المؤسف انه يوجد بين خريجي الجامعة والطلبة المتعلمين فيها عدد ضخم من الشبان الذين ليس وجودهم ذا منفعة للإسلام والحضارة الإسلامية بل هو ذو مضرّة لها. فهو لا ليسوا أجانب فحسب عن الروح الإسلامية بل هم

قد انحرفوا عنها وهاجروها . ولا يوجد فيهم مجرد الجفاء للدين والاعراب عنه ، بل قد نشأ في نفوسهم نوع من الكراهية له . وقد ركبت أذهانهم تركيباً جاوز بهم موقف التشكك إلى موقف الجحود والإنكار التام . فعادوا يتمردون على الأصول الأولية التي يقوم على أساسها بنيان الإسلام ومنذ قريب قد ألم ببعض أحوال الجامعة في خطاب شخصي له شاب خريج من الجامعة المسلمة نجاة من الوقوع في الارتداد لسلامة طبعه ، وقد كان أشرف عليه . وهذا الخطاب لم يكتب للنشر ولا هو كتب خاصة لبيان أحوال عليكره . لذلك نرى أن ما جاء في هذا الخطاب هو صورة صحيحة غير مموهة لبواطن أمور الجامعة . فيكتب صاحب الخطاب يسرد حالة ارتقائه الذهني :

إنني واجهت في جامعة عليكره تلك الفئة النازلة بالعالم الإسلامي من الخارج ، وهي التفرنج . ووقفت أمام منزله الارتقائي النهائي ، وهو الشيوعية ، وكنت قبل هذا لأعد التقليد الغربي شيئاً ذا خطر . ولكن تجاربي في عليكره عرفتني الحقيقة . ففي هذا المركز الكبير في قلب الهند الإسلامية رأيت عدداً لا بأس به من الأفراد الذين قد ارتدوا عن الإسلام وأصبحوا دعاة متحمسين للشيوعية . ورأيت أن كثيراً من أفراد هذه الجامعة هم الاساتذة . وهؤلاء يغوون كل فطن زكي من الطلبة الواردين في الجامعة فيوقعونه في شر كهـم . والقوم لم يختاروا الشيوعية لانهم يريدون حماية وإسماف المدمين والفلاحين والمهال ، فهذه حياتهم وطرق معاشهم الاسرافية تكذب ما يدعون ، بل هم قد اختاروها ليستطيعوا أن يبرروا انحلالهم الخلقي وميولهم الاحادية وتفكيرهم

المهلل (Loose Thinking) تحت جناح حركة عالمية . وقد اتخذت
أنفسي بالشيوعية أولاً اذ زعمت انها طبعة غير رسمية (un - authorized
Edition) للإسلام . فلما درستها بشيء من الوعي والتفكير علمت انه
مشتان ما بين مقاصدها الاساسية ومقاصد الاسلام

ويتضح جلياً من هذا البيان أن التعليم والتربية في جامعة عليكرة ليس
ناقصاً فحسب بل هو مثمر من النتائج ما يخالف وبضاد تلك المقاصد التي
نادى لأجلها السير سيد أحمد خان ومحسن الملك ووقار الملك بضرورة
جامعة مسلمة ، والتي احتفى لأجلها المسلمون ببناء هذا المهد احتفاءً حاراً
وشاركوا في تأسيسها بما هو فوق استطاعتهم .

وماذا تقول في مهندس صنع سيارة ولكنها اذا حركت جمعت تسمى
إلى الخلف بدل أن تجري إلى الامام ؟ وما رأيك في فنية المهندس الذي
ظل يلاحظ ان السيارة التي صنعها تتحرك حركة مقلوقة بصفة دائمة
مستمرة ، ثم لم يشعر بأن هناك فساداً في تركيب السيارة . وأغلب
الظن أنك لن تصادف مثل هذا المهندس الميكانيكي في دنيا الواقع . ولكنك
تستطيع أنك تقدر فنية المهندسين التعليميين لاشك من أنهم تصدوا
لاختراع «ميكانة» تعليمية يراد بها أن تتحرك نحو الغاية الاسلامية ، ولكن
«الميكانة» التي صنعوها أضحت تتحرك في الجهة الماكسة له على الخط المستقيم
وظلت تتحرك في تلك الجهة الخاطئة مدة خمسة عشر عاماً على التوالي ،
ولكنهم لم يشعروا بذلك ولم يتساءلوا يوماً واحداً أنه أي نقص هناك في
تصميمهم وتركيبهم بل لم يشعروا بأنه هل هناك من خطأ في تركيبه
آلم لا ؟ .

وبعد كل هذا الخطأ والفساد المستمر عبر السنوات الطوال قد تذكر مجلس الجامعة أن : « من مقاصد الجامعة الاولى أيضاً أن تبث في طلبتها الروح الاسلامية » وعينت لجنة من سبعة رجال لهذا الغرض قد عهد اليها أن « تدرس وضع الحالة الحاضرة في الجامعة فتقترح لتعليم العلوم الدينية والالهية وسائل مستجدة راقية تلائم حاجات العصر ، ويمكن أن تعرض بها التعاليم الاسلامية على طريقة أحسن وأرضى » .

أمر حسن ولا شك ، وخطة طيبة مباركة ! ولا يعد ضالاً من يفضل بياض النهار ويعود مع المساء كما يقول المثل . فان كان مهندسون التعليميون قد تنبهوا حتى في هذه المرحلة المتأخرة أن « ميكائيلهم » التعليمية قد ركبت تركيباً خاطئاً وأنه ليس السبب في حركتها على عكس الجهة التي كانت مقصودة من صنعها هو مجرد المصادفة والاتفاق بل هو الفساد في تصميمها وتركيبها ، فإننا مستعدون لان نقول لهم : دعوا ما مضى وتعالوا الآن فتفطنوا للاخطاء التي كانت في تصميمكم السابق ، فركبوا « الميكانة » الآن على تصميم آخر صحيح . ولكننا نشك في أنه قد شعر القوم شعوراً صحيحاً بخطئهم . فنراهم لا يعترفون بأن هناك فساداً جذرياً في عمل بنائهم وإنما تأثروا بالصورة الرهيبة الظاهرة لنتائج عملهم ولا يزالون ينظرون إلى الاحوال بنظر سطحي غير متعمق .

وإننا ندعو الله أن تكون شهادتنا هذه في غير محلها . ولكن تجاربنا الماضية تحملنا على مثل هذا الشك .

إنه في منتصف القرن الماضي ، حينما كان الانحطاط الممتد على القرنين قد أدى إلى انقلاب سياسي رهيب ، ظهر من الغيب بضعة رجال

لينقذوا من الفرق سفينة المسلمين المضطربة . وكان ذلك الوقت لا يسمح
بكثير من التأمل . ولم تكن اذ ذاك فرصة للتفكير في أنه على أي تصميم
تصنع السفينة الجديدة القوية بدل هذه السفينة القديمة المحطمة . وانما
كانت المسألة عندئذ أن هذه الأمة التي قد أشرفت على الفرق كيف
تنقذ من الهلاك ؟ فقامت فئة من هؤلاء المصلحين تصلح وترمم تلك
السفينة القديمة . فرتبت من جديد ألواحها السابقة وسدت ما تخللها من
الفروج ورفت أشرعها الرثة وجعلتها صالحة ليملاها الهواء فتجري
السفينة . وقامت فئة أخرى فاكترت سفينة بخارية جديدة ، فحملت
عليها عدداً كثيراً من المتعرضين للفرق وراحت لسبيلها . وبهذا التدبير
نجحت الفئتان كلاهما في دفع النكبة المفاجئة . ولكن هذين التدييرين
نجحا من حيث أنهما عالجا المشكلة بحسب الضرورة العاجلة الشديدة
فأنقذوا الغارقين من الهلاك . ولم يكن كل ما فيها من الحكمة والكياسة
الا محدوداً عند هذا الحد . فالذين يريدون الآن أن يبقوا على هذين
التدييرين في شكلهما الحاليين مع أن ساعة الخطر قد مضت ، فإن منهج
عملهم يخالف الحكمة والكياسة . وذلك أنه ليست السفينة الشراعية
القديمة تصلح لأن يركبها المسلمون ويسابقوا الامم التي تحملها السفن
الميكانيكية ذات ألف الضعف من طاقة مركبهم ، ولا السفينة البخارية
المكتراة تصلح لأن تحمل المسلمين إلى غايتهم المقصودة ، لان هذه
السفينة وإن كانت ذات جهاز مستحدث وسير سريع ومحرك ميكانيكي ،
الأنها سفينة الاجانب في كل حال ، وتصميمها وتركيبها إنما يلائم

مقاصدم ويلبي حاجاتهم فحسب . ثم ان ربانها وملاحيها أيضاً من أولئك القوم . لذلك لا نتوقع أبداً من هذه السفينة أن تجري بنا إلى الغاية التي نطمح إليها ، بل نحن نخاف لسرعة سيرها أن تبعد بنا هذه في الجهة المخالفة بأعجل من ذي قبل ، وتقصينا عن غايتنا المقصودة يوماً بعد يوم . أما وقت الضرورة العاجلة فقد أصاب من قام ليرمم السفينة القديمة ولم يخطيء من أنقذ الفارقين من الهلاك باكتراء سفينة أجنبية . ولكن الآن ، وقد ذهب الخطر العاجل ، يخطيء من يصر على ركوب تلك السفينة القديمة المرممة ويخطيء كذلك من يأبى مفارقة السفينة الأجنبية المستعمارة .

إن الزعيم الحقيقي والمصلح الصحيح هو الذي يتولى الاجتهاد الفكري ويتخذ من التدابير ما هو أكثر ملاءمة للوقت والمناسبة . والذين يتبعونه بعد ذلك يكونون مقلدين بلا تفكير . فهم يظنون يسرون على الطريق الذي كان اختارها مراعاة للظروف ، بدون اجتهاد أو فكر حتى بعد انقضاء تلك الظروف ولا يفتنون أن الذي كان الامثل في الماضي هو في الحال الحاضرة غير الامثل . فبعد أولئك الزعماء الذين كانوا في القرن الماضي لا يزال متبعوهم يصرون على انتهاج ذلك الطريق الذي تركهم عليه أولئك ، مع أنه قد زالت الملابس التي اختار فيه أولئك هذا الطريق . والحاجة الآن هي أن يعمل الاجتهاد الفكري فتتخذ طريقة جديدة للعمل .

ومن سوء الحظ أننا لا نرى أية من الفئتين مجتهدة . وإن اجتهد أحد من أهل السفينة القديمة بأقصى ما يمكنه من الجراءة فهو يعلق فيها عدداً من المصاييح الكهربائية ، ويفرش فيها أثاثاً من النمط الجديد ويركب فيها «ميكانة» بخارية صغيرة لا تنفع إلا أن تصفر من بعيد كمثل الصفارة البخارية فيخدع الناس إن هذه السفينة القديمة قد أصبحت جديدة ميكانيكية . وبجانب آخر ، إن أهل السفينة الجديدة وإن كانوا راكبين في مركب الجانب ، وتجري بهم السفينة بسرعة هائلة إلى الجهة المخالفة إلا أنهم قد رفعوا أشعة قليلة من الطراز القديم على ظهر باخرتهم الجديدة صنع القرن العشرين ، حتى يخدعوا المسلمين - ويخدعوا أنفسهم كذلك - بأن هذه السفينة أيضاً سفينة إسلامية قد جرت نحو كعبة الله من طريق لندن .

إلامَ يا ترى هذا التقليد الأعمى وهذا التظاهر الزائف بالاجتهاد ! قد مر طوفان ، وقد اقترب جداً طوفان آخر . ونحن نشاهد إرهابات لانقلاب سياسي آخر في الهند، كما أنه تتخذ الآن في أقطار العالم الأخرى وسائل للانقلاب يخشى أن تؤدي إلى انقلاب مفاجيء أعظم وأهلك أضعافاً مضاعفة ، قبل هذا الانقلاب المتوقع في الهند . وستكون هذه الانقلابات المنتظرة مختلفة تماماً في نوعيتها وشدتها عن ثورة ١٨٥٧ الكبرى . والذي نراه الآن من حالة المسلمين الحاضرة من حيث العقيدة والايان والاخلاق والاعمال لا يجعلنا نظن ونتفاءل أنهم سيتحملون صدمة واحدة من صدمات الطوفانات الآتية بخير وسلام . ذلك لأن سفينتهم القديمة

لا تصلح لأن تقاوم طوفاناً هائلاً ينبعث في هذا العصر الجديد ، وربما تفككت ألواحها وتمزقت أشرعتها بلطمة واحدة من لطحات الامواج النائرة . أما سفينتهم المستعارة فهي أكثر خطراً من القديمة ، والذين قدر كبوا فيها نخشى عليهم أن يذهب بهم أول موج من الطوفان بعيداً عن الملة الاسلامية ويطرحهم لأبد الآباد - لا قدر الله - في أعماق الضلال . لذلك قد آن الأوان لأن يبرح المسلمون سفينتهم القديمة المتضعضعة وينزلوا أيضاً من السفينة الأجنبية المكتراة ، ويصنعوا لأنفسهم بدل ذلك سفينة تكون مركبة من أحدث الآلات والأدوات وتكون « ميكاتها » كالتي تنصب في أقوى وأسرع سفينة عصرية ولكن تصميمها يجب أن يكون تصميم « سفينة إسلامية » خالصة ، وتكون دفتها بيد الرباين والمهندسين الذين هم عارفون بمعالم الطريق الموصل إلى كعبة أهل الاسلام .

وندع الآن اسلوب الاستعارة والتعريض ونتكلم في الموضوع بلفظة صريحة مباشرة .

إن الحركة التعليمية التي انبعثت من عليكره بقيادة السير سيد أحمد خان - عفا الله عنه - كان من غايتها الموقفة أن يتأهل المسلمون لاصلاح أمرهم الدنيوي بحسب حاجات هذا الزمن الجديد . وذلك أن يتحلوا بالتعليم الجديد . فيستقنقذوا حياتهم الاقتصادية والسياسية من البوار ، ولا يتخلفوا عن الشعوب الأخرى في الاستفادة من الوضع الحديث لإدارة شؤون البلاد . ولعله لم تسمح الظروف عندئذ بأكثر من هذا . وهذه الحركة وإن كانت بجانب فوائدها مضار وأخطار ،

ولكنه لم تكن لدى القاعين بهذه الحركة فرصة لأن يفكروا في هذا الجانب ويتخذوا خطة تعليمية صارمة تسلم من تلك المضار وتجمع المنافع كلها ، ولا كانت تهيأ لهم آئذ وسائل وأسباب يمكن بها تنفيذ خطة تعليمية من ذلك النوع. لذلك كله دفع المسلمون عندئذ إلى المنهج التعليمي الذي كان رائجاً في البلاد مراعاة لضرورة الساعة . ولتفادي الأخطار أدخل فيه عنصر من التعليم والتربية الإسلامية ، لم يكن يلائم في شيء التعليم الجديد والتربية الجديدة .

كان هذا تديراً موقئاً وكفى ، لجؤوا إليه لمكاخة النكبة المفاجئة من القور ، ولكن الآن قد انقضت الظروف التي كانت تتطلب تديراً عاجلاً . وقد تحقق أيضاً النفع الذي كان يقصد بهذا التدبير ، وأيضاً ظهرت ظهور الواقع الملموس تلك الأخطار التي كانت عندئذ متوهمة فحسب . وهذه الحركة لا ريب أصلحت من أمر دنيانا بعض الشيء ، ولكنها أفسدت ديننا أكثر مما أصلحت من دنيانا . وذلك بأنها نشأت من بيننا « الافرنجيين المولودين » وولدت فينا طبقت من « الانجلو محمديين » (Anglo - Mohammadans) و« الانجلو هنديين » (Anglo-Indians) ممن يتضاءل في نفسياتهم العنصر «المحمدي» و« الهندي» ويغلب العنصر « الانكليزي» . ثم إنها ضيعت الطبقتين العليا والمتوسطة من أمتنا - وهما في الحق الاعضاء والجوارح الرئيسية في كياننا القومي - وباعتها من الوجهين الظاهر والداخل لحضارة أوربا المادية بشمن بخس هو أن يحرز بعض المناصب وبعض الالقاب وبعض الكراسي التشريعية لرجال يتسمون

بأسماء المسلمين . فانا نتساءل في هذا الوقت : هل يجب أن تبقى خطتنا التعليمية هكذا على الدوام ؟ وإن كانت هذه هي خطتنا الدائمة الباقية فلا نحتاج لأجلها إلى جامعة عليكرة ، بل هناك في كل مدينة كبيرة من مدن الهند جامعة عليكرة يتخرج منها « الانجلو محديون » و « الانجلو هنديون » بسرعة . ولا ندري لماذا نطلب هذه المزرعة المستقلة لحصد هذا الزرع المسموم . وأما إن كان المقصود تبديل هذه الحالة فلننظر نظرة الطبيب الفاحص : ما هي أسباب الفساد في حقيقة الأمر وما هو التدبير الصحيح لمعالجته ؟

إن التأمل في مزاج التعليم والتهديب الجديد وفي طبيعته يوضح أنه ينافي مزاج الاسلام وطبيعته كل المناقاة . فان نحن قبلناه كما هو وروحناه في أجيالنا الناشئة ، أضعناهم للأبد . فانكم في هذا التعليم الجديد تعلمونهم الفلسفة التي تحاول أن تحل لغز هذا الكون بغير الايمان بالله ، وتعلمونهم العلم التجريبي (Science) الذي هو منحرف عن المعقولات وتابع للمحسوسات ، وتعلمونهم في التاريخ والسياسة والاقتصاد والقانون وسائر العلوم العمرانية تعليماً يختلف من أصولها إلى فروعها اختلافاً كلياً عن نظريات الاسلام ومبادئه العمرانية . وإنكم تربونهم كذلك في الأغلب تحت تأثير حضارة هي متعارضة مع حضارة الاسلام من حيث روحها ومقاصدها ومناهجها . فأي شيء بعد ذلك يجعلكم تؤملون في أجيالكم أنهم سوف ينشؤون على دينهم ، وسيكون نظرم نظراً إسلامياً ، وستكون سيرتهم إسلامية وحياتهم حياة إسلامية ؟ إنه لا يتلاءم مع هذا التعليم

الجديد تعليم القرآن والحديث والفقه على الطريقة العتيقة المتوارثة ولم يكن عمل التطعيم هذا يأتي بشعرات طيبة . وإنما مثله كمثل أن تنصب الاشرعة البالية في باخرة انكليزية من الطراز الجديد لا أجل الاظهار والاعلان وحده . فلم تكن الباخرة الاوربية تعود بهم هذا التدبير باخرة إسلامية أبداً .

لذلك إن كنتم تريدون حقاً أن تتخذوا من جامعة عليكرة جامعة مسهلة فمليكم أن تعيدوا النظر في تعليم العلوم والفنون الغربية . ولا يصح أبداً أن تنبئ هذه العلوم كما هي بدون إصلاح أو تعديل ، لأنه ينطبع أثرها على أذهان طلبتنا الصافية الساذجة انطباعاً يعودون به يؤمنون بكل شيء غربي ولا تنشأ فيهم ملكة النقد ، وإن نشأت في واحد من ألف متعلم ، وذلك أيضاً بعد أن يقضي جانباً كبيراً من عمره بعد فراغه من التعليم الجامعي ، في دراسة متممة ويبلغ مرحلة من العمر لا يكون فيها أهلاً للقيام بخدمة عملية جدية . فالمطلوب إذن أن يبدل هذا المنهج التعليمي ، وذلك أن تعرض جميع العلوم الغربية على الطلبة بعد عملية من النقد تكون من زاوية النظر الاسلامي الخالص ، حتى يسهل التمييز ، فيطرح عند كل خطوة ما هو ناقص من تلك العلوم ، ويقبل ما هو نافع فحسب .

وبجانب هذا يجب أن لا تأخذوا العلوم الإسلامية أيضاً من الكتب القديمة كما هي بدون تعديل . بل يجب أن تفرزوا منها ما هو دخیل فيها من آثار المتأخرين ، وتأخذوا ما يبقى بعد ذلك من مبادئ الاسلام الابدية ومعتقداته الحقيقية وقوانينه الثابتة غير المتبدلة ، فأزولوا روحها

الحقيقية في القلوب وابعثوا فكرها الصحيح في الازهان . ولا نظن
أنكم تجدون برامج تعليمية مهيأة لهذا الغرض ، بل لا بد أن تهبطوا كل
هذا بأنفسكم من جديد، إن تعليم القرآن الكريم والسنة النبوية فوق كل
شيء ، ولكنه يجب ألا يكون هذا التعليم من مجموعات التفسير والحديث
القديمة ، ويجب كذلك أن يكون المعلمون لهذه العلوم رجالا قد تعمقوا
القرآن والسنة وأدركوا مغزاها. ويلزم أيضاً التعليم القانوني الاسلامي،
ولكنه في هذا العلم أيضاً لن تجدي الكتب المتقدمة . وسيكون محتوماً
بعد ذلك أن تدخلوا مبادئ نظام الاقتصاد الاسلامي في تعليم الاقتصاد،
ومبادئ القانون الاسلامي في تعليم القانون ونظريات الحكمة الاسلامية
في كتب الفلسفة ، وحقائق فلسفة التاريخ الاسلامية في تعليم التاريخ،
وأن تدخلوا هكذا في تعليم كل علم وفن عنصراً إسلامياً من حيث
العنصر الرئيسي الغالب المسيطر !

هذا وواجب بجانب ذلك كله أن تغفوا كل من انضم في أسرتكم
التعليمية من الملاحدة والمتفرنجين . ومن حسن الحظ أنه قد انبعث في
الهند جماعة من الافاضل ، هم بجانب بصيرتهم النافذة في العلوم الجديدة
مسلمون صادقون بقلوبهم وأذهانهم ونظرم وتفكيرهم . فالمطلوب أن
يجمع شتات هؤلاء النوابغ ويعهد اليهم تصميم باخرة إسلامية بكل جديد
من الآلات والادوات .

ولعلك أن تقول : كل هذا صحيح ولكنه لن يسمح بذلك الحاكم
الانكليزي . وهذا صحيح إلى حد ما . ولكن ينبغي أن نطرح عليه هذا

السؤال : أي الرجلين تؤثر ؟ المسلم الخالص أم الشيوعي الخالص ؟ لانك لا بد أن تختار واحداً بينهما من الاثنين . أما المسلم من طراز الانجلو محمدي ، الذي ظهر حوالي سنة ١٩١٠ فلا يمكن أن يوجد إلى بعيد . فان كنت تريد الآن أن تجد أجيال المسلمين الناشئة واقعة في حضن الشيوعية تماماً فائت على عدائك للإسلام وستجد النتيجة لهذه الخطة ماثلة أمام عينيك عما قريب . وإن لم تكن تريد ذلك فاعلم أنه لا يمكن أن يحارب تيار الشيوعية الجارف ، لا في صفوف المسلمين وخدم بل في جميع الهند ، بالدعاية الفارغة وبرامج الاذاعة للريفيين ، وإنما هذا التيار لا يستطيع أن تدفعه إلا قوة واحدة - هي قوة الاسلام !



المنهج السديد لتعمير كيان الأمة

إن الإصلاح والثورة يقصد من ورائها جميعاً إصلاح حالة فاسدة . ولكنه يكون هناك فرق جوهري بين محرّكاتها ومناهج عملها . فالإصلاح يكون ابتداءً من التروي والتفكير . وذلك أن المرء يدرس الأوضاع القائمة بقلب هادئ وبروية وإيمان نظر ، ويفكر في أسباب الفساد وقيس حدوده ويبحث عن تدابير لإزالته . وإذا تصدى لمحوه فلا يستخدم قوة الهدم والتخريب إلا إلى الحد الأدنى الذي لا بد منه . وأما الثورة ، بخلاف ذلك ، فيكون ابتداءً من السخط والغضب واضطراب الحقد والإلحاح على النقمة . فيؤتي بفساد آخر في رد فساد أول ، ويقاوم التطرف الذي أدى إلى ذلك الفساد بتطرف آخر يأتي فيقضي على الحسنات أيضاً مع السيئات . ولا شك في أنه يضطر المصلح في كثير من الأحيان أن يصنع مثل ما يصنعه الثوري . فكلاهما يأخذ مبضع الشرح ويعمد به إلى الموضع المألوف من الجسم . ولكن الفرق بين الاثنين هو أن المصلح يقدر من ذي قبل أين الفساد في الجسم وكم هو ؟ فيستعمل مبضعه بقدر لا بد منه لإزالة الفساد ، ويهيء بجانب عمل شرحه بلسماً شافياً لكي

يضعه على الجرح من الفور. ولكن الثوري - بخلاف ذلك - يعمل مبضعه في الجسم في فورة الغضب بدون حيلة أو حذر ، ويروح بقطع أجزاءه بدون تمييز بين الصالح منها والفساد. ولا يخطر بباله أن يستعمل البلسم ، وإن خطر فبعد أن يكون أثخن في القطع والبتر ويتنبه لخطئه في العمل عقب ما يضيع جزءاً كبيراً من الجسم .

وفي الأعم الأغلب أنه حيثما تكثر المفسد وتنحط حدود القصد ، يخون الناس الصبر والاحتمال ولا يدعهم الاذى الذي يلحقهم من الأوضاع الفاسدة يفكرون في الأمر بقلب هادئ ، ويجتهدون للإصلاح . فنقوم في هذه الظروف عامة حركات ثورية بدل حركات إصلاحية ، ويقوم صراع حاد بين الرجعيين والثوريين ، مما يهيء الخطب الجزل لنار الغضب والحقد والنار ، فيبلغ الفريقان منتهى الخصومة والعناد ، وكلاهما يخفق صوت الحق والصدق . فيرى بجانب أنه تستنفد القوة في حماية الباطل على الحق ، ويرى بجانب آخر أنه يتحامل القوم على المذنب والبريء ، بدون تمييز بين الحق والباطل . فإذا تمت الغلبة للثوريين في عاقبة الأمر فهم يأتون فيبيدون كل شيء كان بيد الرجعيين ، سواء أكان حقاً أم باطلاً وصحيحاً أم خاطئاً . وتتقدم الثورة كالسيل الجراف تكتسح أمامها اليابس والاخضر بدون تمييز. وبعد كثير من الهدم والتخريب ومتى عاد العقل الى نصابه فإنه ينبعث حينئذ الشعور بضرورة التمييز . ولكن العقلية الثورية تتكرر في هذا أيضاً بدعاً من الأساليب ، فتحاول أن تترك كل شيء راجع بين المحافظين ، ولا تعتبر لشيء ما عيباً أكبر من أنه

ينتسب إلى النظام القديم . وان كان بذاته صائباً . وهكذا يحاول القوم أن يبنوا بنيان الحياة على المبادئ الثورية الجديدة لمدة من الزمان . ولكنه عندما يتعب الذهن الثوري من تلك التجارب الجديدة وتعاقب الخيبة والفشل ، يعود في آخر المطاف الى موقف الاعتدال الذي كان يقصده المصلح منذ ابتداء الامر . ويصدق الشعر الفارسي :

كل ما يفعله العاقل يفعله الاحق كذلك . ولكن بعد كثير من الفوضى والاضطراب !

ان المثال الابرز لما ذكرناه آنفاً هو الثورة البولشوفيسكية . وذلك أن الحالة الفاسدة السيئة للنظام المدني القائم في روسيا الملكية لما تناهت في الفساد حتى أصبحت لا يطاق عليها الصبر ، ظهرت في وجهها كرد عمل حركة ثورية ، وبدأت النظريات الاشتراكية والديمقراطية الاوربية تفشو وتنتشر في روسيا . فقامت الحكومة وصنائعها من الطبقات تستعمل القوة والعنف الاستبدادي للاحتفاظ بما تتمتع به من المنافع غير الشرعية . فكان من النتيجة أن أخذ الثوريون يحترقون غضباً وحقداً ، لا على الاستبداد الملكي والتقسيم غير العادل للثروة فحسب ، بل على كل نظام التمدن الذي كان توارثه القوم منذ قرون . وتأدى الامر إلى أن تقمص الهيولي الماركسي شخصية لينين ، فذلك عرش حكومة زار ، ونسفت نفسها جميع المبادئ السياسية والاقتصادية والمدنية والاخلاقية والدينية التي يقوم عليها المجتمع الروسي فيما قبل الثورة . وبعد كل هذا الهدم والتخريب ابتداءً تعمير مجتمع جديد على مبادئ شيوعية مبتكرة . وبذل البناؤون

الجدد كل ما يملكون من قوى التفكير في محاولتهم ائلا يدخل في بنائهم الجديد أي شيء من باقيات الطبقة البورجوازية . حتى أمروا « الاله » أيضا بالخروج من حدود روسيا للبحال . ولكنه مع مرور الزمن قد أخذ الجنون الثوري يهدأ أخيراً ويحمل محله العقل البناء . وأخذت تلك البولشوية المتطرفة التي كانت عاملاً فعالاً في نشأة الثورة تعود الى نقطة الاعتدال .

ومثل هذا التطرف ظهر في زمان الثورة الفرنسية أيضاً . إذ نهض رجال الثورة ليهدموا في سورة هيجهم كل ما هو صالح أو فاسد مما يتعلق بالنظام القائم ، ووضعوا مبادئ انقلابية جديدة ، فروجوها في البلاد ، ولكنه كان من عاقبة هذا الطوفان الثوري المتشدد أنه لم يمكن إلى الآن أن يعود المزاج الفرنسي السياسي والمدني والاخلاقي الى نقطة الاعتدال ، ولا يجد المرء في أية ناحية من نواحي الحياة الفرنسية القومية ذلك الرسوخ والاحكام الذي يوجد عند الانكليز .

ومثال آخر لهذا التطرف هو الانقلاب التركي . حيث اجتهدت مثل هذه العقلية الانقلابية أن تجعل من أمةٍ أخرى مختلفة تماماً عن الأولى ، بين عشية أو ضحاها ، بقوة سحرية . ولتحقيق هذا الغرض كما أخذ الانقلابيون المبضع بيدهم فانهم في محاولتهم لشرح المواضع المأووفة قطعوا الأجزاء الصالحة الصحيحة أيضاً من جسم الأمة ، وركبوا في مكانها أعضاء جديدة مستوردة من أوروبا ، حتى استبدلوا بالعقل القديم أيضاً عقلاً متتوراً جديداً تحت قبة أوربية . ولكنه مع مرور الزمن عاد الاتراك الانقلابيون يفهمون أنه لا يصح ما اتخذوه إلى الآن من القاعدة

الكلية التي تحكم بأن كل قديم سيء وكل جديد حسن مرضي . ولم يجدوا
بدأ بعد ما خسروا وأخفقوا في أكثر التجارب الجديدة من ان يدعوا
الافراط ويرجعوا إلى بعض الاعتدال .

كل هذا قد قلناه نظراً إلى ان المسلمين الهندين أيضاً يقفون الآن
أمام هييجان ثوري . وقبل أن تظهر النتائج الوخيمة لهذا الهييجان نريد
ان ندعو كلتا الطائفتين من المحافظين والثوريين إلى الفكر والتأمل .

إن فساد الاحوال في هذا القطر الهندي يماثل ما كان منه في تركيا
وسائر الممالك المسلمة وما يوجد هناك حتى الآن . فان الطبقة التي تتولى قيادتنا
الدينية منذ قرون قد جعلت الاسلام شيئاً جامداً غير متحرك . ولعلها
لم تبدل « النتيجة » المعلقة أمامها منذ القرن السابع . إنهم لاشك يدرسون
ويدرسون في مباحث فلسفتهم وكلامهم أن العالم متغير وكل متغير حادث ، ولكنهم
قد أغمضوا عيونهم في الحقيقة عن تغير العالم وتقلب العصر وتطور
الزمن وجريانه . انه قد تبدلت الارض غير الارض ، وتغيرت حالات
الدنيا وأفكارها وميولها ونظرياتها من صورة إلى أخرى وتقلبت
شؤون التمدن ومسائله تقلبات متعددة ، ولكن هداتنا لا يزالون يتصورون
أنفسهم بعد في تلك البيئة التي كانت تسود قبل خمسة أو ستة قرون .
إنهم لم يتقدموا خطوة مع الزمن ، وبقوا غير متأثرين بالتطورات الحديثة
ولم يعنوا بالمسائل المتجددة للحياة ، وظلوا يحاولون أن يمنعوا أمتهم أيضاً
عن مسايرة الزمن ، بل يجذبوها من المستقبل إلى الماضي . وهذه المحاولة
لم تكن لتنجح إلا إلى حين ، فنجحت بالفعل . ولكن مثل هذه المحاولات

لا يمكن أن تنجح دائماً . وكيف يمكن لامة تتصل بالدنيا وتعاملها أن لا تتأثر بأفكار العالم ومسائل الحياة المتجددة ، فإن لم يتقدمها هدايتها في هذه الحياة المعاصرة ولم يرشدوها في السبل الجديدة العقلية والعلمية والعملية فمن الطبيعي أن تنجاف هذه للخروج من قيادتهم .

إن هذا الفساد أساسه في الحقيقة شيء آخر ، هو أن هدايتنا الدينين أمعنوا في الفروع إلى حد أنهم تركوا الاصول وراء ظهورهم . ثم جاءت الفروع فحلت محل الاصول وتفرعت عنها مئات وآلاف من الفروع الجديدة واعتبرت أصل الاسلام . والحال أنه لا أهمية لها أصلاً في الدين . إن ببيان الملة الاسلامية أقيم في الحقيقة على هذا الترتيب ، وهو أن القرآن الكريم هو الأساس والطابق الاول ، تتبعه وتنبني عليه السنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ، ويأتي بعد السنة اجتهاد أهل العلم والبصر في الدين . ولكنه لسوء الحظ قلب هذا الترتيب رأساً على عقب ، وأصبح الترتيب المبتدع أن الاول هو اجتهاد ذوي البصيرة والعلم من عصر معين معلوم ، والثاني سنة النبي ﷺ والثالث الأخير : كتاب الله ، وهذا الترتيب المقلوب البدع هو المسؤول عن كل هذا الجرد الذي قد جعل من المسلمين شيئاً ساكناً لا يتحرك .

من من المسلمين يستطيع أن يجهد بفضل الأئمة الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والمحدثين رحمهم الله ومن ينكر راحة علمهم وعلو منزلاتهم؟ ولكنهم على كل حال كانوا بشرأ . وكانوا يملكون من وسائل اكتساب العلم ما هو حاصل لامة بني آدم . ولم يكن يأتيهم الوحي . وإنما كانوا

يستعملون عقولهم وبصيرتهم ليسبروا غور كلام الله وسنة رسوله، فكل ما تحقق عندهم من المبادئ كانوا يستنبطون منها الفروع للقوانين والمعتقدات. فاجتهادهم هذا يجوز أن يكون عوناً لنا ونور هدى يسمي بين أيدينا، ولكنه لم يكن ليتخذ بذاته أصلاً ومصدراً وإن الإنسان سواء اجتهد بمجرد رأيه أم بالاستفادة من كتاب من الكتب السماوية فإن اجتهد لا يمكن أن يكون قانوناً أبدياً وقاعدة حتمية لازمة للعالم، لأن العقل والعلم الإنساني يتقيدان أبداً بقيود الزمان.

وان كان هناك من يجل عن كل قيد من قيود الزمان والمكان فهو إله العالم وحده. فهو الذي عنده العلم الحقيقي ولا يطرأ على علمه مثقال ذرة من التغيير بتقلبات الزمان. وهذا العلم الأبدي أودع منه ما أودع في آيات القرآن الكريم وفي صدر النبي الذي جاء به، وإذ أن القرآن والسنة الثابتة هما اللذان يمكن أن يكونا المأخذ والمنبع الذي يستنبط منه البشر في كل زمان ومكان علوماً وأفكاراً وقوانين بحسب أحوالهم المخصوصة وبمراعاة حاجاتهم وضروراتهم. وما دام العلماء المسلمون يكتسبون العلم من هذا المأخذ ويحلون المسائل العلمية والعملية باجتهادهم المستند إلى التفكير الصحيح، بقي الإسلام يسير الزمن. ولكنهم لما تركوا التدبر في القرآن وألغوا التحقيق والتفحص في الأحاديث، وراحوا يقلدون السلف من المفسرين والمحدثين تقليداً أعمى، واتخذوا اجتهاد الفقهاء والتكلمين الماضين قانوناً أبدياً لا يغير أو يعدل، وتركوا اكتساب العلم مباشرة من القرآن والسنة وجعلوا الفروع التي استنبطها السلف هي الأصل مكان أصول الكتاب والسنة لما حدث هذا كله، وقف سير الإسلام بفتة وجلت قدمه تتراجع إلى

الوراء بدل أن تخطو إلى الامام . وغدا حملته وورثته ينغمسون في شرح وتفسير العلوم والمسائل القديمة بدل أن يهدوا العالم في ميادين العلم والعمل الجديدة وأصبحوا يتجادلون في الفروع والجزئيات ويبتدعون مذاهب جديدة ويتشيعون فرقا في المباحث العقيمة التي لا تجدي ، ووزعوا الكفر والفسق على المسلمين بسخاء جعل العالم يشهد منظر الذين « يخرجون من دين الله أفواجا » بعد أن كان شهد في الماضي منظر الذين (يدخلون في دين الله أفواجا) وعاد المسلمون « رحماء على الكفار أشداء بينهم » في كل مكان بدل أن يكونوا (أشداء على الكفار رحماء بينهم) ، وأضحت الحالة التي ذكرها القرآن بالنسبة للكفار والمنافقين بكلماته (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) حالة المسلمين أنفسهم .

فمن رد فعل هذه الحركة الرجعية ما نجده اليوم بصورة هيجان ثوري رهيب . انه لما أحس المسلمون أن هدايتهم الدينيين لا يقومون بواجب القيادة نحوهم ، بل هم يجرونهم إلى الوراء بدل أن يتقدموا بهم إلى الامام ، صاروا يتحررون من سلطانهم ويمهون في كل واد كأنهم جند بلا قائد . فجاءت طائفة منهم تهم الدين نفسه لاخطاء حملة الدين وهفواتهم ، تعتبره أكبر عائق في سبيل رقيها وتنادي علانية بأن يترك الدين وتقلد الأمم الراقية . وجاءت ثانية فجعلت شعارها شتم العلماء والهداة الدينيين ، كأن فلاح المسلمين ورفقهم موقوف الآن على هذا السب والشتم ، والوقعة في الاعراض . وقامت طائفة ثالثة فأخذت في عملية القطع والبت في الدين . وجاء آخرون فأطلقوا لسان القدح في الفقهاء والائمة . وجاء منهم من ضم الحديث أيضاً إلى الفقه فميرها جميعاً . كما جاء من أحس بضرورة

التعديل والترميم في أحكام القرآن وتعاليمه أيضاً . ومنهم من نادى بفصل الدين عن الدنيا ، فقال : ان الدين يجب أن ينحصر في العقائد والعبادات . وأما الامور الدنيوية فلا يكون فيها دخل للدين وقوانينه .

وهكذا قد قامت جماعات مختلفة لاصلاح تلك الاحوال الفاسدة . ولكن اتجاهاها ليس إلى الاصلاح ، بل إلى الثورة والانقلاب . إنها لم تفكر بقلب هادئ سليم في انه ما هو الفساد الحقيقي ؟ ومن أين أتى ؟ وإلى أي حد يمتد ؟ وما هي الصورة الصحيحة لاصلاحه ! انها أحست بالفساد بمجرد الظن والقياس ، فأخذت الموضع وجلت تعمله لحسمه بدون حيلة أو تدبير ، وان كانت نتيجة أن يذهب المريض أيضاً مع ذهاب المرض .

ان الممالك المستقلة قد يقال بالنسبة اليها — وبصح هذا القول إلى حد — أنه لا يكون فيها مناص من حركة ثورية ، لانه تكون فيها إحدى الطوائف قابضة على السلطة الفعلية ، ولا يمكن للطائفة الاخرى أن تنزع هذه السلطة من أيديها إلا بحركة ثورية شديدة . وبلاحظ مع ذلك أنه متى وقعت على زعماء الثورة مسؤولية القيام بشؤون الحكم ، فإن تجارب الوقت والزمان تصحح أذهانهم وترجع عقولهم إلى الرشد في مدة قليلة جداً ، فيضطرون إلى أن يعودوا من الافراط إلى القصد والاعتدال . ولكنه يجب أن لا ننسى أننا في هذا الوقت في حال المبودية فتختلف أحوالنا عن أحوال الممالك المستقلة اختلافاً كلياً ، هنا لا نحتاج — أولاً — إلى حركة ثورية ، لاننا لانخاف معارضة قوية شديدة لا تنجح في وجهها حركة اصلاحية معتدلة . وثانياً انه إن جرت في البلاد الآن حركة ثورية

فنجحت في أهدافها ، فانه لا يرجى منها أن تعود إلى القصد والاعتدال
لزم من طويل ، لان رجال ثورتنا ان يكون على كواهلهم مسؤولية تثقلها
وترد تطرفهم إلى الاعتدال . وعلى هذا ان تكون عاقبة بقاء حركة
ثورية — بل بعبارة أصح — بقاء حركات ثورية متعددة إلى زمن بعيد
إلا أن تنزل الأسس التي يقوم عليها المجتمع المسلم ، ولا يثبت
مكانها أساس محكم رصين يمكن أن يبنى عليه نظام اجتماعي من
جديد . ومما لا يصعب فهمه وتصوره انه حين يهدم ويشنت النظام الاجتماعي
لهذه الامة التي هي في حال الضعف والعبودية من قبل ، فأني هوة سحيقة
من الانحطاط الخلقى ستهوي اليها وتنتهي إلى قرارها .

وهذا هو السبب في أننا كثيراً ما نضطر إلى ان نقاوم الثوريين بالقوة
والشدة أكثر من الرجعيين . وإلا فأننا أيضاً نوافقهم في الشعور بضرورة
إصلاح الأحوال الفاسدة ، وإننا أيضاً نود أن يحول هذا الجحود الذي
قد لازم الإسلام إلى الحركة والنشاط ولكنه ليس من الحيلة الصحيحة لبعث
هذه الحركة ان تترك الشوائب الاسلامية ، وتتبنى الطريقة الافرنجية للحياة .
ولا من حيلته أن يتناول الدين بالقطع والبت بدون علم وتحقيق وبدون
تأمل وتفكير . ولا من حيلته ان تهدم بلا ضرورة تلك المباني التي
أقامها المجتهدون الماضون بجهدهم ومشقتهم . ولا من تدبيره أن تلقى
بمجموعة الاحاديث النبوية كلها في النار — عياذاً بالله — ولا أن يعمد
الانسان إلى الكلام الالهي لينتقص منه ويزيد عليه بحسب عقله . كل
هذه الحيل والتدابير لا تضمن الاصلاح ، بل هي تؤدي إلى فساد اكبر
مما كان . وليس العلاج الناجح للحالة الفاسدة القائمة إلا ان يصحح من

جديد ذلك الترتيب الذي قد قلب ، وهو أن يوضع القرآن الكريم موضع القيادة والارشاد الذي كان له في الواقع ، وتعرف للحديث تلك المكانة التي كان جعلها له النبي ﷺ هو نفسه وأصحابه وأهل بيته على عهد النبوة ، وتنزل مآثر الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والمحدثين بتلك المنزلة التي قررناها اولئك الافاضل بأنفسهم . وذلك ان تستفيدوا منها وتستنبقوا منها مالا حاجة هناك إلى تبديله ، ولكن لاتظنوا أبداً أن كل ما قد خرج من أقلامهم هو القانون الأبدي الذي لا يمكن تبديله أو ان كتبهم وآثارهم قد أغنتنا عن التدبر في القرآن والتحقيق في الأحاديث النبوية ، أو أنه قد انقلب بدم باب اكتساب العلم من الكتاب والسنة مباشرة .

فلو أن هذا الترتيب الصحيح يقام من جديد ، فلا جرم أن سيتحرك القطار الاسلامي الواقف ، لان السبب الحقيقي لهذا الوقوف والجمود أنه قد نحت القاطرة الهادية من أمام القطار وجعلت في المكان الخلفي . وكذلك أبعد السائق عن موضعه وأجلس في بعض العربات الخلفية ، ووضعت الثقة كلها في العربة الامامية واعتقد أنها ستسير بنفسها وتجبر سائر القطار أيضاً معها . وهذا محال !

على أن هذا العمل لا حاجة فيه إلى غضب أو احتياج . وإنما الغضب يجوز حيث يرتكب خطأ أو ظلم بالعمد . وأما ما وقع هاهنا فلم يتعمده أحد . ولا يستطيع أحد أن يقول أن العلماء كانوا قد اجتمعوا في مكان ليتآمروا على أن يدخلوا على الاسلام هذا الجمود ويوقفوا ركبته المتحرك . إنما هذا كله نتيجة ذلك الانحطاط الذي لا يزال يطراً على القوى العلمية والعقلية والفكرية لجميع الأمم المسلمة كطروئه على قواها السياسية

والمسكزية والاقتصادية والمدنية منذ القرن السادس أو السابع للهجرة .
فهذا الانحطاط كما أخذ في المسلمين روح الجهاد قد أمت فيهم روح
الاجتهاد أيضاً ، وكما أنه تبدلت نظرياتهم في جملة مسائل الحياة ، تبدلت
نظرياتهم كذلك في الأمور الدينية والعلمية . وبقيت جميع قواهم
الذهنية يستولي عليها الهمود والخود مع الايام بغير شمول منهم . فهذا كله
مما لا يصح أن يهتم به العلماء ولا متبعوهم . وان شئت اهتمت به الفطرة .
ولكنه لا هذا الاتهام يجديك شيئاً ولا الغضب ولا فورته الهدامة . إنما
الصورة الصحيحة للـالـجة الاصلاح أن تبحثوا بنفس هادئة
رزينة عن أسباب المفاسد وحدودها ، وتحولوها بالحكمة والتدبير الموفق
إلى المحاسن !



طلائع الثورة على الدين

كل أمة تشتمل على طبقتين : إحداهما العامة والاخرى الخاصة .
اما طبقة العامة فمع أنها كثيرة العدد ومنها تتألف القوة العددية للأمة
ولكن العقول المفكرة الهادية لا تنبع منها فهؤلاء لا يكون لهم حظ من
العلم أو قوة اقتصادية تذكر . ولا هم في شيء من العز والجاه ولا بيدم
سلطة الحكم . لذلك لا يكون تسيير الأمة من شأنهم . وانما شأنهم أن
يسيروا خلف من يسيرهم . وكذلك لا يكون هؤلاء ممن يضمون طرائق
العمل ويمهدونها ، بل هم يسرون على ما يمهد لهم من الطرق . أما
الواضعون للطرق والمسكرون لجميع الأمة عليها فهم في الحقيقة الخواص ،
وهم الذين يحمل كل قولهم وكل فعلتهم من ورائه قوة العقل والثروة
والعز والحكم . وتضطر الأمة إلى اتباعهم طوعا وكرها . لذلك يصح
القول : ان القوة الحقيقية لأمة مالاتكون في عامتها ، بل في خاصتها .
فهؤلاء هم الذين يتوقف عليهم صلاح الأمة وفسادها ، يؤدي رشدهم
إلى رشد الأمة بكاملها ويؤدي ضلالهم إلى ضلال الأمة جمعاء . فمق
كانت الأمة في إقبال نبغ من بينها خواص يسرون على الصراط السوي
ويسرون الأمة معهم عليه . (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) (وأوحينا اليهم
فعل الخيرات) . ومق كانت الأمة في إدبار ابتداء الفساد فيها من خاصتها

الذين يتأثر بضلالهم وفساد أخلاقهم عامة أفرادها فيعمون جميعاً في الضلال وسيئات الاعمال . (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول ، فدمرناها تدميراً) .

وتدعى الخاصة في المصطلح القرآني « المترفين » وهم الذين يكونون في نعمة واسعة من عند الله . ويشهد الله عز وجل بأن هؤلاء المترفين هم الذين يرتكبون أولاً الفسق والفجور والظلم والمدوان في البلاد ، ثم تبلى البلاد كلها بالسيئات .

وأي شك في هذه الشهادة الإلهية . انظر إلى أمتنا نحن . فقد نتج الفساد فيها عن مترفيها لا غير . منهم هجروا الطريقة التي كانت طريقة الأئمة الهادين بمقتضى الأحكام الإلهية وبدؤوا يتبعون السبل الشيطانية . فهم الذين جروا على أرشاء القيود الشرعية اتباعاً لاهوائهم ، وجعلوا عباد الله يعبدونهم شأن الفراعنة والقيصرية ، وهم الذين عودوا أمتهم الخضوع الملوك والامراء بدل الخضوع أمام الله وعلّموا الرقاب التي أمرت بأن تسجد لله وحده كيف تسجد للعباد . وهم الذين زينوا المعاصي والذنوب لآمتهم بارتكابهم إياها في القصور الزاهية والأزياء الفاخرة . وبأكلهم الحرام عودوا أفراد أمتهم أن يأكلوا الحرام ويؤكلوه وهم الذين استخدموا العلم للضلال والمقل للفساد والفتنة الممكر والاثمار ، والثروة لا شراء سلعة الايمان والحكم للظلم والمدوان ، والقوة للاستكبار . ثم هم الذين سدوا معظم الطرق الشرعية إلى نيل المصالح والحقوق وإلى الترقى والصعود ، ودفنوا الناس على أن يحتالوا لنيل مقاصدهم بالرشوة والتملق والكذب والمكيدة وما إلى ذلك من الطرق المهيينة .

وبالجملة ليس هنالك من فساد خلقي أو عملي لم تكن نشأته من هؤلاء
المترفين . انهم أساءوا استعمال ما آتاهم الله من النعم ، فضلوا وأضلوا .
كان كل هذا واقعاً منذ القرون ، وكان كيان المسلمين القومي ينخر
فيه الفساد الخلقي الداخل في أحشائه ، ولكن القلوب على الاقل كانت
عامرة بنور الايمان . وانه وان تضاعل الاتباع لاحكام الله والرسول إلا
أن عظمة الله والرسول كانت باقية في الصدور . ومهما خالف القوم
القانون الاسلامي فان احترام القانون لم تخل منه نفوسهم . ومهما ازداد
الانحراف من الحكم الاسلامي فانه لم يتجرأ أحد على البغي عليه . وكل
ماعداه الاسلام حقاً كان يمد من الحق لاشك وان غلا القالون في الامراض
عنه واتباع الباطل ، ولم يتجاسر أحد على أن يمد ما هو حق في الاسلام
باطلاً وما هو باطل فيه حقاً ، ويجعل واجبه لغواً وعبثاً وجائزاً مكروهاً
وحراماً حلالاً بل مستحسنًا ويجعل إثمة عملاً صالحاً . ولا ريب أن كان
الناس يركبون الاثم وتدنس أعراضهم بلوؤم الجرائم وكانوا يتعدون حدود
الشرع ويمعنون في مخالفة القوانين الاسلامية ، ولكنهم على هذا كله
كانوا يشعرون بالخجل في أنفسهم وتندى جبينهم حياء ، وكانت نفوسهم
تعتز على الاقل بانهم يعصون الله والرسول .

ومرد ذلك إلى ان حضارة المسلمين على كل ما يوجد فيهم من انحلال
المقائد وفساد الاعمال كانت تقوم على تلك الدعائم والاركان التي رفعها
الاسلام . ومع ان استيراد الافكار اليونانية والفارسية في المجتمع المسلم
نشر كثيراً من الضلال الا ان هذه الافكار الطارئة لم تنجح إلى حد أن
تقلب وجهة نظر المسلمين وتجعل تركيب عقليتهم شيئاً متنافياً مع الاسلام

ولم يبلغ من تأثيرها فيما لديهم من قوى العقل والفكر والتمييز ان يتركوا
النظر بنظرة المسلم والتفكير بذهن المسلم . وكذلك ان ارتقاء المدنية
والحضارة وان انحرف كثيراً عن السبل التي خططها الاسلام ، بتأثير
المؤثرات الخارجية ، إلا أن المبادئ التي رفعت عليها قواعد هذه الحضارة
والمدنية بقيت موجودة في أساسها ، ولم تحل محلها مبادئ الحضارة والمدنية
الآخرى المعارضة . وفسد كذلك نظام التعليم الراجح بين المسلمين كثيراً
ولكنه كان للعلوم الدينية فيه مكان ملحوظ أبداً . ولم يكن أي فرد
متعلم من المسلمين يكون غير عارف بالعلم الاساسي الابتدائي — على
الاقل — للعقائد الاسلامية والاحكام الشرعية والتقاليد المالية .

وضعت سيطرة القانون الاسلامي على حياة المسلمين العملية ولكن
شؤونهم بالجملة بقيت تحت سلطان قانون واحد هو القانون الاسلامي .
وملخص القول انه على الرغم من كل المفسد والمساويء الراجعة بين
المسلمين كان الاسلام تأثير بالغ في افكارهم وأخلاقهم وأعمالهم . فكانوا
يؤمنون بمبادئه حنفاء لا يميلون إلى شيء آخر . ولم تكن المبادئ المخالفة
للالسلام نجحت في الدخول في حظيرة إيمانهم على الاقل . وكانت القيم
الاخلاقية والعملية التي قررها الاسلام لم تتغير إلى حد أن تنقلب رأساً
على عقب وتقوم مقامها قيم أخرى .

ولكنه لما انتزع الحكم من أيدي المسلمين في القرن التاسع عشر
ورأى مترفو هذه الامة أنه يكاد يضيع عنهم الجاه والمنزلة والعز والاحترام
والثروة والاموال ، مع ماضع من الحكم والامر ، وأنه ما من وسيلة
للاحتفاظ بكل ذلك واستدراك ما فات منه في حالة العبودية سوى تعلم

علوم الغرب وتقليد حضارة الغرب ، أصاب سيرتهم وسلوكهم تغيير آخر لم يكن في حقيقة الامر تغييراً خصب بل كان انقلاباً . فان التغيير معناه تبدل الشيء . ولكن « الانقلاب » معناه التقلب والانكباب . فالمسلمون انقلبوا حقاً في قلوبهم هذه المرة إلى حد ان انقلبت عقليتهم وانقلبت نظرياتهم وتحول اتجاههم من الاسلام إلى الطريقة الافرنجية التي تقف في الجهة المعاكسة للاسلام .

فلما ابتدأ هذا الانقلاب جعل ذلك الخجل والندم الذي كان يشعر به المسلم عند عصيانه للقوانين الاسلامية يزول ويتلاشى . وعاد المسلمون لا يحسون أبداً أنهم يتجاوز حدود الشرع يرتكبون إثمًا أو خطيئة . وحل محل الندامة والخجل على مرور الايام التجرد والوقاحة . فغدوا يرتكبون كل نوع من عصيان القانون علناً ويفتخرون به بدل أن يندموا عليه . ولكن تيار الانقلاب هذا لم يقف عند هذا الحد ، وانما الذي أصبح يسمع ويشاهد اليوم في مجالس المسلمين المتفرنجين المستغربين يتخطى حدود الوقاحة ويشير إلى علامات البغي الصريح على الاسلام . وقد آل الامر اخيراً إلى أن الرجل الذي يخالف القانون الاسلامي لا يخجل من فعلته بل يخجل من لا يزال إلى الآن يتبع ذلك القانون البالي القديم ؛ فكأن المذنب والمجرم الآن ليس من يخرج على القانون الاسلامي بل الذي يلتزمه . وأصبح المسلمون اليوم لا يكتفون بان يجتنبوا الصوم والصلاة بل هم يتباهون في ذلك ويشجعون على تركها ، فيسخررون من الذين يصلون ويصومون في هذا العصر المتنور ، ويرجي من المصلين والصائمين — خصوصاً إذا كانوا من الطبقة المتعلمة المثقفة —

ان يهودوا في يوم من الأيام نادمين على فعلتهم . وصار من الرأي الان انه ليس اجتناب الصوم والصلاة بل التزامه هو العار الذي يجب ان يستحي منه . وقد بلغ الامر من ذلك انه ان ظهر عيب او معرة في رجل يلتزم الصلاة فانه يتناوله القوم بالسخرية والظعن ويقولون : لا غرو فان حضرتنا من المصلين . كان السبب في صدور ذلك العيب من الرجل ليس غير العمل الذي قد عده الله عز وجل ناهيا للفحشاء والمنكر وجعله النبي ﷺ أفضل الاعمال كلها .

وليس هذا البغي والخروج عن الدين موقوفاً عند الصلاة والصوم بل قد تجاوزهما إلى جميع شؤون الحياة على التقريب . فالآت يعبر عن التزام الاحكام الإسلامية بـ « الرجمة الدينية » و « الرجمة الدينية » في مصطلح عصرنا الجديد عبارة عن مركب حاد من ضيق النظر وإظلام الفكر والجهالة والسفاهة والتزوع إلى القديم . وبكلمة أخرى إن المسلم الراسخ الاعتقاد المتبع للشرعية اسمه في المصطلح المصري « رجل الدين الرجمي » . و « رجل الدين الرجمي » هو الذي يكون بعيداً عن التهاذب والاستنارة الفكرية ولا يكون أهلاً للاندماج في المجتمع المذهب . فهذا لقلب يهون في جنبه كل الشتائم وإذا أراد « أفرنجيوننا السود » أن يبيدوا كراهيتهم للذي يتبع الدين فانهم بدل أن يستعملوا لذلك كلمات متعددة يودعون بفضهم ونفرتهم كلها في كلمة واحدة هي « رجل الدين الرجمي » ، وهي جماع كل عيب .

وليس من الحجة الكافية اليوم لتبرير قول أو فعل أنه موافق للقرآن

والسنة ، وإنما يقوم ويرفض سند القرآن والسنة المسلم نفسه ، لا غير المسلم ، نعم المسلم الذي قد أصبح لسوء الحظ مثقفاً مستنيراً ، ثم لا ينجل على ذلك شيئاً بل يرى أنه ينبغي الذي قدم تلك الحجة الدينية أن ينجل ويستحيى . ودع القول في سند القرآن والحديث وحجتها ، إنما شاهدنا أن امرءاً إذا عرض على تلك « الطبقة المثقفة المستنيرة » باسم الاسلام فانه تمجده نفوسهم وينشأ فيها تعصب شديد عليه ، لكنه إذا عارض نفس الأمر باستدلال عقلي أو باقتباس من كاتب غربي فانهم يصيحون : آمنا وصدقنا . فاسم الاسلام يلقي في أذهان « المسلمين المتفرنجين » منا أنواعاً من الشكوك ويحملهم على الظن أنه إذا اقترن أمر بالاسلام فلا بد أن يكون فيه ضعف أو مغمز . وكأن سند القرآن والحديث الآن لا يقوي لهم أمراً في أعينهم بل هو يجعله ضعيفاً مفتقراً إلى الحجة والبرهان .

وكانت هذه الآفة قبل سنوات منتشرة في رجالنا وخدم ، وكانت نساؤنا بأم من منها . وإنما نستطيع أن نقول بالنسبة للحضارة الاسلامية على الأقل أن الحريم^(١) هو الملجأ الأخير الذي يدافع الاسلام فيه عن مدنيته وحضارته . ولا ريب أن من المصالح الكبرى التي جعل الاسلام المرأة من أجلها من وراء الحجاب أن يتطهر على الأقل ذلك الصدر الذي يتغذى بلبانه الطفل المسلم ، فيبقى مشرقاً بنور الاسلام وأن يحفظ على الأقل ذلك الحجر الذي يترى فيه الطفل المسلم من تأثير الكفر والضلال وفساد الأخلاق والأعمال ، وأن يقام حول ذلك المهد الذي يجنساز فيه

(١) حريم الرجل : ما يدافع عنه ويحميه ، ومنه سميت نساء الرجل بالحريم .

الجيل المسلم منازل حياته البدائية جو إسلامي خالص ، وأن تحرس من فعل المؤثرات الخارجية تلك الحدود البيئية — على الأقل — التي ترسم فيها على ذهن الطفل وقلبه الصافي أولى نقوش التعليم والتربية والمشاهدة . « فالحریم البيتي ، إذن هو أحكم وأمنع قلعة للحضارة الإسلامية ، بنيت في الحقيقة لأجل أن تلجأ إليها هذه الحضارة متى انهزمت ونكصت من الميدان الخارجي . ولكن الأسف أن هذه القلعة أيضاً قد بدت فيها أمراض الخراب . وأصبحت آفة « الطريقة الافرنجية » تدخل في البيوت أيضاً . وذلك أنه عاد متروفا المتفرنجون يجرون النساء أيضاً معهم إلى مزدحم الحياة لكي يتسممن بذلك السموم الذي قد سرى قبل ذلك في الرجال . وها هن بنات أمتنا ترسل الآن إلى معاهد التعليم الغربي لكي يتلقين فيها دروس الضلال وسوء الاعتقاد وفساد الأخلاق والحضارة الافرنجية ، كما أرسل إليها أبناؤنا من قبل ، فتلقوا منها كل ذلك وجاؤوا خارجين على الإسلام .

وهذه الخطوة الأخيرة سوف تكون — في رأينا — مكتملة لذلك الانقلاب الذي قد أشرنا إليه آنفاً . وليس هذا من ظننا وقياسنا بحسب ، بل قد شاهدنا إمارات تكميل هذا الانقلاب بعينينا هاتين وسمعنا عنها باذنينا هاتين . وقد آل الأمر إلى أن المرأة المسلمة تخرج من بيتها مسافرة متبرجة جاعلة أحكام القرآن والسنة الصريحة وراء ظهرها ، فتتناول الغداء والعشاء في الفنادق الاوربية وتجلس في صف الرجال في قاعة السينما وتمشي في الأسواق من محل إلى آخر وتبيع وتشتري . وآفة الآفات أنها تأتي كل هذه الأعمال خلافاً للشرع الإسلامي ولا تقدم أو تستعحي عليه

يل تذكر أعمالها هذه بكل غر وسرور وتوجه الملام إلى تلك العفيفة التي أبت أول الأمر أن تترك الحجاب الشرعي اتباعاً للقانون الاسلامي، ولما نزعها زوجها إلى الخارج بالعنف فانها استجيت من التفرج بين ظهري الرجل ولم ترض أن تطوف في الأسواق وتحضر حفلات العشاء والرقص في فنادق (تاج) و (جرين) وتتزه في المصايف والشواطىء لم ترض ذلك ولم تؤثره على الاشغال البيتية الرتيبة التي كلفها بها الله ورسوله . ومعنى ذلك أن روح الخروج على الاسلام قد جاوزت الرجال إلى النساء أيضاً وهن أيضاً أصبحن يعتبرن اتباع القوانين الاسلامية - لاعصيانها - شيئاً تندم عليه المرأة المسلمة وتنجل . فانا لله وإنا إليه راجعون . وإنا نقسم : إن كنتم أنتم الذين تربيتهم في حجور الامهات السابغات الصالحات قد انحدرتم إلى هذا كله فماذا يكون إذا افتقدت نساؤكم أيضاً الغيرة الايمانية وتحطين حدود الاطاعة لله والرسول ، وماذا تكون حال الاجيال التي مستنشأ في حجور أولئك الانسات المتفرنجات الجديديات ؟ وقل لي بالله إن الاولاد الذين سيرون أول ما يفتحون أعينهم آثار الحياة الافرنجية فيما حولهم ولن تقع عيونهم البريئة على مظهر من مظاهر الحضارة والتمدن الاسلامي . ولن تقرر مسامهم كلمات الله والرسول ولن ترسم على ألواح ذهبنهم وقلوبهم الصافية إلا نقوش الطريقة الافرنجية منذ أول يوم هلم يكن أن يرجى منهم أن يكونوا مسلمين في عواطفهم وأفكارهم وأخلاقهم وأعمالهم أو في أي شيء آخر ! .

إن المرحلة الاولى للجريمة ما هي أن يرتكبها الانسان ولكن يعتبرها

جريمة ويندم عليها . مثل هذه الجريمة انما تستحق العقاب بحسب نوعيتها ودرجتها فحسب ، بل هي قد تغفر ارتكبتها إذا تاب الى الله وندم على ما فعل ، لأن مثل هذه الجريمة تعتبر من مظاهر ضعف الانسان .

والمرحلة الثانية للجريمة هي أن يتولى كبرها الانسان ثم يعد فعله هذا حسنة « لا سيئة » ، فيعلن به بكل خفة ومعنى هذا ان الرجل ليس في قلبه احترام لذلك القانون الذي قد قرر ذلك الفعل جريمة .

والمرحلة الاخيرة النهائية للجريمة هي ان لا يكتفي الانسان بان يرتكب ما يخالف قانونا من القوانين ، بل يستعد جريمته تلك جائزة وعملاً مستحسنًا باعتبار قانون آخر يخالف ذلك القانون ، ويستهزئ بالقانون الذي يقرر فعلته تلك جريمة ، ويخطيء متبعيه . مثل هذا الرجل لا يعصي القانون فحسب بل هو يهينه ويرتكب البغي عليه .

كل من أوتي حظاً من العقل السليم لا بد أن يسلم بأن الانسان إذا وصل إلى هذه المرحلة النهائية فانه لا يمكن أن يبقى في حدود القانون الذي قد بنى عليه علناً . ولكن ما أخبت الشيطان الذي يقنعكم بأنه يمكن أن تظلوا مسلمين مع إهانتكم للاسلام وتهكمكم به وتمييزكم لاتباعه وتصوبيكم لمصيانته . فبجانب ها أتم أولاء تستبجحون ما يستحسنه الله والرسول وتستحسنون ما يستبجحانه ، وتعدون صواباً ما يجهلانه إثمًا وتعدون ذنباً ما يجهلانه ثواباً ، وتسخرون بما يأمران به وتمصون ما يضمنان من قانون ، ثم لا تخجلون عليه بل تخجلون - على العكس - ممن يتبع ذلك القانون ، وبجانب هذا ادعائكم أنكم تؤمنون بالله والرسول

وتعمر قلوبكم عظمتها وتبعون الدين الذي يرتضيانه - أي الاسلام - .
فهل يمكن لذي عقل أن يقبل أن هذا الادعاء الفارغ مع ذلك العمل أمر
يصح ويجوز. ولئن كان من الممكن أن يجتمع الانكار بالايان والاهانة
بالتعظيم ، وإن كان من الممكن أن يحترم المرء أحداً ويستهزئ به في
الوقت نفسه. وإن كان مما يتصور أن المرء الذي يفتخر بالخالفه ويمد الاتباع
حقيقاً باللائمة يكون متبهماً ومطيعاً قانتاً ، فانه لا بد أن يدع عن
بأن البغي هو الاطاعة عينها وأن الاهانة هي التعظيم نفسه وان الانكار
هو الايمان في الواقع ، وان الذي يحقرك ويركلك برجله هو في الحق
يعظمك ويكرمك وان الذي يسخر منك هو الذي يحترمك وان الذي
يفندك ويدعوك كاذباً هو الذي يصدقك !

إلا أن الاسلام ليس بشيء غير الاطاعة . ولا تتحقق الاطاعة
الحقيقية بغير الايمان، وأولى مقتضيات الايمان أنه إذا بلغ المرء أمر من أوامر
الله والرسول خضع له خضوعاً ولم يسهه أن يرفع رأسه بازائه . (لئما كان
قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا
وأولئك هم المفلحون) (١) . ثم ان هذا الخضوع يجب أن يكون عن
طوع ورضى ، لا عن كراهية ، حتى ولا يجبد المرء في قلبه من حرج
أو سخط على ما يأمر به الله والرسول . ومن تظاهر بالخضوع والتسليم
ووجد في نفسه حرجاً من كل هذا فانه ليس بمؤمن ، بل في زمرة
المنافقين . (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت

(١) النور : آية - ٥١ .

المنافقين يصدون عنك صدوداً^(١). (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك
فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا
تسلياً)^(٢).

ولكنه من رفض اتباع الامر علانية وهجر شريعة الله والرسول
ليتبع القوانين الاخرى واعتقدها صحيحة وحقاً ، وبجانب اتباعه لتلك
القوانين سخر من شريعة الله والرسول وقبح إطاعتها والتزامها فانه
لا يمكن أن يكون مؤمناً وإن كان يدعو نفسه مسلماً بلسانه ويتسمى
باسم من أسماء المسلمين وكان اسمه مقيداً في ثبت المسلمين في سجل الاحصاء.
وذلك أن المرء يمكن أن يبقى مؤمناً مع ارتكابه لمعصية ولكن بشرط
أن يعتبر معصيته معصية ويندم عليها ويسلم بذلك القانون الذي قد ارتكب
عصياناً لضعف كامن في فطرته . ولكنه إذا كانت مع المعصية الوقاحة
واللجاج وكان المرء يتباهى بها ويستحسنها ويلوم من يحجم عنها ، فان
هذه المعصية لعمر الله لا يمكن أن يبقى بمدها الايمان أبداً ، وعلى المرء
قبل أن يدخل في هذه المرحلة أن يقضي ويقطع : هل أنه يريد أن يبقى
في دائرة الإسلام أو يجب أن يغادرها ويدخل في إطاعة القانون الذي
قد انشر صدره لاطاعته !

ومن فضل الله على هذه الامة أن عامة المسلمين بمأمن بمد من هذا
التيار العنيف للطريقة الافرنجية والثورة الاحادية. فلا تزال قلوبهم عامرة

(١) النساء آية - ٦١ .

(٢) النساء آية - ٦٥ .

باحترام الله والرسول وهم الذين يوجد فيهم اتباع القوانين الإسلامية كثيراً أو قليلاً . ولكن سلوك الخاصة كما أثر من قبل في أخلاق هؤلاء وشؤونهم ، كذلك يخشى أن يصيب سلوكهم هذا الجديد إيمان هؤلاء الضعاف بتأثيره المهلك . وإن السرعة التي يزداد بها ميل العامة المسلمين إلى ترك الصوم والصلاة واقتراف المنكر والمنهي وتقليد الطرق الأفرنجية والتفرج بالالاعاب والمعارض المسرحية والسينائية التي تعرض الحضارة الأفرنجية بمظهر خلاب ، هي في الحق منبهة على الخطر المخشي الآتي . ولئن لم يقوم عوج مترفينا في الفكر والرأي وبقي عدولهم عن صراط الإسلام المستقيم على ما هو عليه الآن ، فإنه لا يبعد اليوم الذي تبتلى جميع الأمة فيه بهذا الضلال وتحقق سنة الله التي أشار إليها القرآن بقوله : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً)

الفساد الاجتماعي

من القواعد الكلية التي أثبتتها القرآن أن الله تعالى ليس بظالم ، حتى يهلك أمة بلا سبب وهي تعمل صالحاً (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)^(١) وليس المراد بهذا الإهلاك والتدمير أن تقلب طبقات البلاد ويورد العمران الانساني حياض الموت فحسب ، بل من صور الافناء والتدمير أيضاً أن يشنت أمر الامم وتكثر قوتهم الاجتماعية وتضرب عليهم الذلة والعبودية والخزي. وبحسب هذه القاعدة القرآنية لا يصيب أمة ما أي نوع من أنواع الدمار والخراب إلا إذا تركت منهج الخير والصلاح وأخذت تسلك مناهج الشر والفساد والعنوة والمصيان ، وبذلك ظلمت نفسها بنفسها . وان الله تعالى حيث ما ذكر في كتابه أمة أصيبت بعذاب وهلاك قد ذكر بجانب ذلك جرميتها أيضاً لإثباتاً لتلك القاعدة ، حتى يتبين للناس أن وبال أعمالهم السيئة هو الذي يفسد دنياهم وآخرتهم (فكلوا أخذنا بذنبه..... وما كان الله ليظلمهم . ولكن كانوا أنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)^(٢) .

والأمر الآخر الذي يستخرج من هذه القاعدة هو أنه لا يكون

(١) هود - آية ١١٧ .

(٢) النكبات - آية ٤٠ .

باعت الهلاك والدمار هو الفساد الفردي بل هو الشر والفساد الاجتماعي القومي . ومعنى ذلك أنه إن كانت المفاصد الاعتقادية والعملية إنما توجد متفرقة في الافراد وكان مستوى الأمة الديني والخالقي رفيعاً من حيث المجموع بحيث يحجب مساوئ الافراد، فهنا يمكن من فساد سيرة الافراد على حدة تظل الأمة من حيث المجموع محتفظة بكيانها ولا تحل بها فتنة عامة تجر عليها الهلاك بأكملها . ولكنه متى جاءت المفاصد الاعتقادية والعملية تتجاوز الافراد إلى الأمة بأسرها وتخدر شعور الأمة الديني والاخلاقي إلى حد أنها أصبحت صالحة لأن يزكو فيها الشر والفساد بدل الخير والصلاح فان العناية الإلهية عندئذ تنصرف عن هذه الأمة، وتأخذ هذه بالهبوط من علياء العز إلى درك الهوان ، حتى تحين الساعة التي يهبج فيها غضب الله عليها فيدمرها تدميراً .

وقد جاء في القرآن الكريم كثير من أمثلة هذه الامم . فتلك أمة نوح عليه السلام قد أهلكت حين تأصلت فيها مفاصد الاعتقاد والعمل وجعلت تنمو وتنتشر في المجتمع كله ولم يبق من أمل في أن شجرتها الخبيثة ستنتج ثمراً صالحاً أبداً . فاضطر نوح - عليه السلام - إلى أن ينادي ربه : (رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا . إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنِيمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) (١) .

وتلك عاد أهلکوا حينما بلغ الشر والفساد من نفوسهم بحيث أصبح المفسدون الظالمون الأشرار زعماءهم وحكامهم . ولم يبق لأهل الخير

(١) نوح - آية ٢٦ .

والصلاح من متسع في نظامهم الاجتماعي (وتلك عادٌ جحدوا بآيات
رَبِّهم وعصوا رُسُلَه ، واتبَعوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) (١) .

وأمة لوط - عليه السلام - قد أخذها الله بعذابه عندما بلغ من تبلد
حسهم الخلقي ووقاحتهم ونذالتهم ان عادوا يرتكبون الفواحش علانية في
المجالس والأسواق . ولم يبق فيهم شعور بكون الفواحش فواحش
(أَلَا إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ
الْمُنْكَرَ) (٢) .

وأهل مدين ذاقوا عذاب الله عندما أصبحت الأمة كلها خائنة غاشة
سيئة المعاملة . ولم يبق التطفيف في الوزن والكيل وأخذ الزائد على الحق
شيئاً معيلاً عندهم . ومات الحس الخلقي فيهم إلى حد أنهم متى عدلوا على ذلك
لم يطرخوا حياءً وندامة بل أقبلوا على الماخذ نفسه يلومونه ، ولم يشعروا
أن فيهم عيباً يستحق الملام . وكانوا لا يستقبحون الفواحش ، بل يخطئون
من يندد بها ويعتبرونه حقيقاً بالظن واللام (وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْكَيْلَ
وَأِيزَانٍ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْمَلُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ قَالُوا يَا سَعْيَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ
فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ) (٣) .

وأما بنو إسرائيل فقد قضى بضرب الذلة والمسكنة عليهم وابتلائهم

(١) هود - آية ٥٩ .

(٢) النكبات - آية ٢٩ .

(٣) هود - آية ٨٥ .

بغضب الله وامتته حينما جعلوا يندفعون إلى العمل السيء والعدوان وأكل الحرام ، وأصيب زعمائهم وهداتهم بمرض الأثرة والجري وراء المصالح الذاتية ، يساحون الخطايا والذنوب وليس فيهم رجال يدعون العيب عيباً وينهون عنه (وترى كثيراً منهم يسارعون في الإلثم والعدوان وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يعملون . لولا ينههم الربانيون والأخبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يصنعون) (١) .
(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ . ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ) (٢) .

والأحاديث التي أثرت عن النبي ﷺ في تفسير هذه الآية الأخيرة توضح مطالب القرآن الكريم إيضاحاً مزيداً ، وخلاصة تلك الآثار جميعاً أن النبي ﷺ أخبر أنه : لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي كان الرجل منهم يلقي الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك . ثم يلقاه من الغد فلا ينمعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقميده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم بيمض . ثم قال : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ الخ) . قالوا وكان رسول الله ﷺ متكئاً جالس فقال : لا والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن يد المصطفى ولتأطرنه على الحق أطراً أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعننكم كما لعنهم .

(١) المائة - آية ٦٣ .

(٢) المائة - آية ٧٩ .

إن فساد الاعتقاد والعمل مثله كمثل الاوبئة . فان مرضاً وبيئاً من هذه الأمراض يصيب أولاً بعض الأفراد الضعاف . فان كان المناخ جيداً والتدابير المتخذة الرعاية الصحية محكمة وكان هناك نظام مضطرب معمول به لازالة الأقدار والانجاس وعلاج المصابون الأولون بدون تأخير ، فان هذا المرض لا يتحول إلى وباء عام ، ويسلم منه عامة الناس . ولكنه إن كان الأطباء غافلين وكان قسم الرعاية الصحية غير مهم بواجبه ، والمسؤولون عن التنظيف قد أصبحوا يهتمون وجود النجس والقذر ، فان جراثيم المرض تنتشر في الجو رويداً رويداً ويبلغ من سوء تأثيرها في المناخ العام أنه يعود صالحاً لفسو المرض بدل الصحة . حتى إذا لم يجد عامة أفراد البلد أي شيء من الهواء والماء والطعام والسكنى واللباس سالماً من أثر النجس والسمية فان قوة حياتهم تبدأ تخونهم ويصاب السكان جميعاً بالوباء العام ، حينئذ لا يستطيع حتى أقوى الافراد وأصحهم أن يدفعوا عن أنفسهم غائلة المرض ، بدل المرض يعم حتى الأطباء المعالجين أنفسهم ومن معهم من القائمين على التنظيف والرعاية الصحية ، ولا ينجو من الهلاك حتى أوائلك الذين يتخذون بالنسبة لأنفسهم جميع التدابير الصحية ويستعملون الأدوية والمقاقير ، لأن تسمم الهواء وتغير الماء واتساخ الأرض وفساد ومائل الغذاء ليس مما ينفع في وجهه أي علاج أو تدبير وقائي .

وقس على هذا كله فساد الأخلاق والأعمال وضلالات الاعتقاد . فالعلماء هم أطباء الامة . والحكام ورجال الدولة هم القائمون على التنظيف

والرعاية الصحية . والغيرة الايمانية للأمة والحاسة الخلقية المجتمع هي بمثابة قوة الحياة (Vitality) . والبيئة الاجتماعية تقوم مقام الهواء والماء والطعام والسكنى واللباس . ومنزلة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحياة القومية باعتبار الدين والخلق كمنزلة عمل التنظيف والتدابير الصحية باعتبار الصحة الجسدية . فتى ترك العلماء وأولو الامر واجهم الحقيقي وهو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وعادوا يحتملون وجود الشر والفساد ، فان الضلال والانحلال الخلقي يأخذ في الانتشار بين أفراد الأمة وتجعل الغيرة الايمانية فيهم تضحك وتلاشى حتى تفسد البيئة الاجتماعية كلها ويصبح جو الحياة صالحاً للفساد وغير صالح للخير والصالح ، فيفر الناس من الحسنات ، وينجذبون إلى السيئات بدل ان ينفروا منها ، وتقلب القيم الاخلاقية رأساً على عقب . فتعود المعايير محاسن والمحاسن معايير . وعندئذ تنسو الضلالة والمفاسد الخلقية ، ولا يبقى هناك من بذرة للخير تصلح للنمو والنبات ، اذ يأتي كل من الارض والماء والهواء أن يغذيها وينشئها لكون هذه كلها منصرفة بجميع قواها إلى تغذية الشجرة الخبيثة وتنميتها . فاذا وصلت أمة من الأمم إلى هذا الحال فلها تستحق المذاب الالهي ويحل بها من النكبة الشاملة ما لا يسلم منه أحد وإن كان يعبد ليل نهار في الزوايا والخلوات .

وفي هذا قال الله عز وجل في القرآن : (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) (١) . وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية أن المراد بقوله تعالى أن لا تقروا المنكرين ظهر انفسكم فيكمكم الله بالمذاب . وقد فسر النبي صلى الله عليه

(١) الأنفال : ٢٥

وسلم هذه الآية بقوله : إن الله لا يمدب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه . فاذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة .

إن أنجع الأسباب للمحافظة على صحة الامة الخلقية والدينية هو أن توجد في كل فرد من أفرادها الغيرة الايمانية والحاسة الخلقية التي قد عبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة « الحياء » الجامعة . ان الحياء في الحقيقة جزء من الايمان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الحياء من الايمان » . بل سأله سائل في مناسبة أخرى : هل الحياء جزء من أجزاء الايمان ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بل هو الدين كله » .

والمراد بالحياء أن تشعر نفس المرء بانقباض فطري من السيئة والمصيبة فيكرها قلبه . فالذي كان على هذه الصفة فإنه لا يجتنب القبائح بنفسه فحسب ، بل لا يصبر على رؤيتها في غيره أيضاً ، فهو لا يستطيع أن يرى السيئات ترتكب أمامه ولا يمكنه أن يهادن المصيبة والظلم . واذا ارتكبت السيئة أمامه هاجت فيه الغيرة الدينية وهب ليمنع عنها ويمحوها بيده أو بلسانه ، أو تلمل على الأقل في نفسه حرصاً على محوها . وفي ذلك جاء قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » .

فالامة التي تتصف بهذه الصفة على العموم ، يسلم دينها من الآفات ولا يهبط مستواها الخلقي لأن كل فرد من أفرادها يكون محاسباً

ورقياً للآخر ، ولا يجد فساد العقيدة والعمل منفذاً للدخول في
كيان الامة .

إن غاية القرآن الكريم في الحقيقة هي إيجاد مجتمع مثالي كهذا
يقوم كل واحد من أفراده بواجب الرقابة والاحتساب بميلانه الطبيعي
وغيره الفطرية وحافزه القلبي ، ويكون في مجتمعه محتسباً ربانياً
بدون أن يأخذ على عمله ذلك أجره (وكذلك جعلناكم أمةً
وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) (١) .

لأجل ذلك يبين المسلمين مرة بعد أخرى أن الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر هو خصيصتهم القومية التي يجب أن تتحقق في كل رجل
منهم وامرأة .

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون
عن المنكر وتؤمنون بالله) (٢) .

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر) (٣) .

(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحافظون لحدود
الله) (٤) .

(١) البقرة - آية ١٤٣ .

(٢) آل عمران - آية ١١٠ .

(٣) التوبة - آية ٧١ .

(٤) التوبة - آية ١١٢ .

(الذين إن مكنتهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا
بالمعروف ونهوا عن المنكر) (١) .

فإن كان المسلمون على ما تدعو إليه هذه الآيات كان مثلهم كمثل البلدة
التي يكون كل واحد من سكانها ذا إحساس وشعور بالنظافة والرعاية
الصحية ، فهو لا يطهر جسمه ويته فحسب ، بل يزيح النجس والقذر
أينما وجده فيما حوله ، ولا يصبر على رؤية أثر من آثار النجس في أي
مكان . فمن الظاهر أن مثل هذه البلدة يبقى هواؤها صافياً نظيفاً ولا تنمو
فيها جراثيم الأمراض . واثن كان بين سكانها رجل مريض أو ضعيف
على الوجه النادر الشاذ عولج للحال أو كانت مرضه على الأقل مرضاً
شخصياً لا يتعداه إلى الآخرين ويتخذ صورة الوباء العام .

ولكنه إن لم تتمكن الأمة المسلمة كلها من البقاء بهذه الدرجة السامية
فلا أقل من أن تكون منها طائفة تكون في كل حين مستعدة لتمهيد صحة
المجتمع الدينية والخلقية ، وتظل تعمل دائماً لإزالة درن الاعتقاد ونجس
الأخلاق والأعمال . (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر) (٢) .

والمراد بهذه الأمة هو جماعة العلماء وأولي الأمر التي يجب أن تكون
منهمكة أبداً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يجب أن يكون قسم
التنظيف والرعاية الصحية في البلدة مستعداً أبداً للقيام بواجباته . فإن

(١) الحج - آية ٤١ .

(٢) آل عمران آية - ١٠٤ .

أغفل العلماء وأولو الأمر واجبهـم هذا ولم يبق في الأمة جماعة واحدة تدعو إلى الخير والصالح وتصد عن المنكرات ، فان هلاك تلك الأمة من ناحية الدين والأخلاق أمر محتوم ، كهلاك البلدة التي لا تتخذ فيها تدابير التنظيف والرعاية الصحية . وان الآفات والنكبات التي نزلت بالأمم السالفة إنما نزلت لأنها لم تبق من بينهم طائفة واحدة تنهـم عن المفاسد وتسعى لإصلاحهم وإبقائهم على الخير والصالح . (فـلولا كانت من القرون من قبلكم أولو بـقية ينهـون عن الفساد في الأرض إلا قليلا من أننجينا منهم)^(١) . (لولا ينهـم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت)^(٢) .

لأجل ذلك إن واجب العلماء والمشايخ وأولي الأمر من كل أمة هو أكبر الواجبات والتبعات . وذلك أنهم ليسوا مسؤولين عن أعمالهم أنفسهم فحسب ، بل تقع عليهم أيضاً إلى حد كبير تبعة أعمال الأمة بكاملها . ولا نقول شيئاً في أمر الطالمين الماـجـنين ومن يتملقهم من العلماء والمشايخ لان الله سيصنع بهم يوم الحساب ما يصنع ، وانما الحق انه لن ينجو من هذه المسؤولية عند الله أولئك الأمراء والعلماء والمشايخ الذين هم قابعون في قصورهم وبيوتهم وزواياهم يزاولون التقوى والزهد ويستغلون في العبادة والرياضة . وذلك انه اذا كانت أمتهم قد أحاط بها من كل جانب طوفان من الضلال والانحلال الخلقي فإنه ليس من شأنهم أن يجلسوا في زواياهم خاشعين منهمكين في العبادة بل من واجبهـم أن

(١) هود - آية ١١٦ .

(٢) المائدة - آية ٦٣ .

ينبروا! كالمناضلين ويستخدموا كل ما آتاهم الله من القوة والنفوذ في مقاومة هذا الطوفان . وانه لا شك أن المسؤولية في دفع هذا الطوفان وصد تياره ليست عليهم ، ولكنهم مسؤولون ولا شك عن أن يبذلوا أقصى وسعهم وإمكاناتهم في مقاومته . وإذا هم قصرُوا في القيام بهذه المسؤولية فلن تبرئهم عبادتهم ورياضتهم وتقواهم الشخصية من مسؤوليتهم يوم الفصل . وأنت لن تعفي من المسؤولية موظف التنظيف والرعاية الصحية الذي إذا انتشر الوباء في البلدة وراح ضحيته آلاف من الناس ، اتقبع في بيته ولم يفكر إلا في إنقاذ نفسه وأهله وعياله من أثر الوباء . فهذا إن فعله عامة سكان البلدة لم يلاموا عليه كثيراً . ولكنه ان فعل مثل هذا الفعال الموظف المسؤول عن التنظيف والرعاية الصحية فإنه لا يبقى هناك من شك في كونه مجرمًا عظيمًا .

الإيمان والإطاعة

إن التنظيم الاجتماعي مهما كان نوعه ومهما كانت أغراضه وأهدافه يفتقر أبداً لقيامه وثباته ولنجاحه وتوفيقه إلى أمرين اثنين : أولهما أن تكون المبادئ التي شكلت عليها الجماعة راسخة في نفوس الجماعة كلها وفي ذهن كل فرد من أفرادها، ويكون كل فرد من الجماعة حريصاً عليها ومؤثراً لها على كل شيء آخر. والآخر أن تتأصل في الجماعة ملكة الطاعة والسمع فتطيع الجماعة من انتخبته أميراً عليها وتبوع أحكامه وتلتزم ما يقرره لها من قانون أو ضابطة ولا تتعداه أبداً . فهذان شرطان لا بد منها لنجاح كل نظام. وكل نظام سواء أكان عسكرياً أو سياسياً أو عمرانياً أو دينياً لا يمكن أن يقوم بدون هذين الشرطين ولا أن يبقى ويستمر، ولا أن يبلغ غاية بدونهما .

خذ تاريخ العالم كله وسرح النظر فيه من أوله إلى الآخر إن تجد مثلاً واحداً لحركة نجحت - أو تمكنت على الأقل من أن تبقى سائرة في طريقها - مع أتباع من ذوي الجبن والنفاق يعصون أمر القائد ولا حاجة لذلك إلى الخوض في صفحات التاريخ بل انظر إلى ماحولك من الدنيا، فماذا يكون من رأيك في جيش لا يكون موالياً لدولته ولا مطيعاً لقائده ، ويأبى رجاله اتباع الضوابط العسكرية . فإذا ضرب الناقوس للخروج إلى العرض العسكري لم يتحرك جندي واحد من مكانه . وإذا

أصدر القائد أمراً لقي من الجنود آذاناً صماء . فهل لك أن تدعو هذا الجمع المختلط من الجنود « جيشاً » ؟ وهل لك أن ترجو من هذا الحشد الذي لا قائد له ولا طاعة فيه انه سيعطى في معركة ؟ وماذا تقول في دولة لا يبقى عند رعاياها احترام للقانون ، فتعصى قوانينها علانية ولا يبقى في أقسامها وشعبها من ضبط أو نظام ، ويترك عمالها العمل بما يأمر به ذو السلطة العليا فوقهم ؟ هل لك أن تقول انه يمكن أن تقوم دولة في هذه الدنيا بمثل أولئك الرعايا وهؤلاء العمال ؟ وامامك اليوم مثلاً من دولتي المانيا وايطاليا وان القوة الجبارة التي اكتسبها هتلر ومسوليني قد اعترف بها اليوم العالم كله . ولكن هل تعلم ما هي أسباب هذه القوة ؟ إن أسبابها هي الأمان الذي قد سبق ذكرها : أي الإيمان وإطاعة الأمر . ولم تكن الجماعة النازية والفاشية لتكتسب مثل هذه القوة والنجاح ، لولا أنها تؤمن بمبادئها هذا الإيمان الراسخ وتطيع قادتها تلك الطاعة المحيكة الشديدة .

هذه الفائدة الكلية لا استثناء فيها . وذلك أن الإيمان والاطاعة في الحقيقة روح التنظيم . فبقدر ما كان الإيمان راسخاً وكانت الطاعة كاملة كان التنظيم أقوى وأمتن وأنجح في بلوغ مراميه . وبخلاف ذلك كلما ضعف الإيمان ونقصت الطاعة كان التنظيم أضعف بحسب ذلك وأفضل في بلوغ مراميه . وانه لمن غير الممكن أبداً أن تنتشر في جماعة ما أمراض النفاق وسوء الاعتقاد والشرود والفكري والعنوة والمصيان وعدم الالتزام ، ثم يبقى فيها النظام وتوجد سائرة نحو الرقي في أية شعبة من شعب الحياة . فهاتان الحالتان متناقضتان ، ولم تجتمعا قط مذ كانت الدنيا . ولئن كانت

قانون الفطرة أمراً محتوماً لا يرد ، فإن هذه الجزئية منه - وهي أنها تين
الحالين لا توجدان معاً - أيضاً أمر محتوم لا يرد .

ثم انظر في حالة الأمة التي تدعى مسلمة . فأي لون من ألوان النفاق
وسوء الاعتقاد هو الذي يمكن أن يتصور وهو ليس بوجود في المسلمين؟
إن نظام الجماعة الإسلامية قد انخرط فيه حتى أولئك الذين هم مجهولون
أبسط تعاليم الإسلام ويستمسكون إلى الآن بمقائد الجاهلية. وقد انخرط
فيه أيضاً أولئك الذين يشكون في مبادئ الإسلام الأساسية وينشرون
شبهاتهم هذه بين الناس ويدعون إليها علناً . كما انخرط فيه قوم يعلنون
بكفرهم وإنكارهم بلا تخرج ، وقوم آخرون يتكلمون بالمقائد والشعائر
الإسلامية على رؤوس الأشهاد . وفي سلك الجماعة المسلمة أيضاً أولئك
الذين يظهرون علانية نفرتهم من الدين والطريقة الدينية ، وأولئك الذين
يؤثرون الأفكار والآراء المستقاة من الأجانب على تعاليم القرآن والسنة
وأولئك الذين يقدمون على شريعة الله والرسول قوانين أهل الكفر
وتقاليد الحياة الجاهلية ، وأولئك الذين يستخفون بشعائر الإسلام ترضياً
لأعداء الله والرسول ، وأولئك الذين يقدمون على أن يضرروا الإسلام
أكبر ما يكون من الضرر لأجل مصلحة من مصالحهم الشخصية الصغرى .
كما في سلكها أولئك الذين يماثلون الكفار على الإسلام ويخدمونهم بخلاف
المقاصد الإسلامية ، ويثبتون بمصلحتهم أنهم لا يحبون الإسلام حتى بقدر
أن يتحملوا لأجله خسارة مهمة تفهت . وما عدا الفئة القليلة من المسلمين
الراسخين في الإيمان الأصحاء العقيدة تشتمل الأثرية الساحقة من هذه
الأمة على أمثال هؤلاء المنافقين ذوي العقيدة الفاسدة .

هذا من جهة الإيمان . وانستعرض الآن حالة السمع والطاعة . إنك إن ذهبت إلى بلدة عامرة بالمسلمين رأيت العجب العاجب منه . ينادي المؤذن للصلاة ولكن كثيراً من المسلمين لا يحسون من هو الذي ناداه المؤذن ، ولأي عمل ناداه . ويحين وقت الصلاة وينقضي . ولكنه ليس من بين المسلمين من يذر عمله أو لهوه ولعبه لذكر الله إلا الفئة القليلة جداً . ويأتي شهر رمضان فلا تكاد تحس من بعض بيوت المسلمين أنه شهر الصوم . وكثير من المسلمين يأكلون ويشربون علانية ولا يخجلون من عدم صيامهم ولو قليلاً ، بل هم يخجلون - على العكس - ممن يصوم من المسلمين إن عرضت المناسبة لذلك . ثم إن الذين يصومون قل منهم من يفعل ذلك مع الشعور التام بالواجب . وإنما منهم من يصوم عملاً بالتقليد الجاري في مجتمع المسلمين . ومنهم من يصوم للفائدة الصحية . ومنهم من يصوم ومع ذلك يقترب كل ما نهى الله ورسوله عنه . أما الزكاة والحج فالعمل بهما والتزامهما أقل وانزر . وكذلك لا يزال ينعدم في المسلمين التمييز بين الحلال والحرام والطيب والخبيث . فأى شيء قد منعه الله والرسول لا يستبيحه المسلمون لأنفسهم وأي حد مما قرره الله والرسول من الحدود لا يتعداه المسلمون ؟ وأي ضابطة قد وضعها الله والرسول لا يلغها المسلمون . ولئن راجعت إحصاء المسلمين في العالم لوجدتهم مئات الملايين . ولكن انظر كم في المائة منهم ، بل كم في الألف ، بل كم في المئة ألف ، هم الذين يتبعون أحكام الله والرسول ويلتزمون الضوابط الإسلامية . إن الأمة التي يعم فيها مرض النفاق وضعف الاعتقاد ، والتي يموت

فيها الاحساس بالواجب ويذهب عنها السمع والطاعة والتزام القانون
تستحق من المال السيء ما قد وصل إليه المسلمون ولا يزالون . إن
المسلمين اليوم محكومون ومغلوبون في العالم كله . وإن الاقطار التي هم
فيها مستقلون ليسوا متحررين فيها من السيطرة المادية والعقلية والخلقية
للأجانب . أما الجهل والفقر والشقاء فهم مضرب المثل في كل ذلك . وإن
الانحطاط الخلقي قد أبلغهم قرار الذلة والهوان . وإن صفات الأمانة
والصدق وإيفاء العهد التي كانوا يمتازون بها في العالم سابقاً قد انتقلت منهم
إلى غيرهم ، وقد استعاضوا منها رذائل الخيانة والكذب والغش وسوء
المعاملة ، ولا يزالون يتجردون مع الأيام عن التقوى والعفاف وطهارة
الأخلاق ، ويفقدون الغيرة والحمية شيئاً فشيئاً . ولم يبق فيهم أي وحدة
أو تنظيم ، فقلوبهم شتى ولم يعودوا يصلحون للتعامل لأجل مقصود مشترك .
وإنهم قد ضيعوا قدرهم بعد ذلك في نظر غيرهم وافتقدوا ثقتهم لدى الأمم
ولا يزالون يفتقدونها إلى هذا اليوم . ولا تزال قوتهم القومية والاجتماعية
تضمحل على مرور الأيام ولا يزال تهذيبهم وثقافتهم القومية تنحون نحو
الزوال . وإنهم ليزدادون عجزاً عن الدفاع عن حقوقهم ، والاحتفاظ
بعزم القومي . ومع أن التعليم لا يزال ينتشر فيهم وعدد الحائزين لشهادات
البكالوريا والماجستير ، والمتعلمين في بلاد الغرب إلى الزيادة يوماً فيوماً ،
وينمو فيهم عدد الساكنين في الفيلات (Villas) والراكبين للسيارات
واللابسين للبدلة الاوربية والمدعوين بالاسماء والألقاب الضخمة ، والمقربين
إلى جناب الحاكم الأعلى ، ولكن الصفات الخلقية العليا التي كانوا متحليين

بها فيما مضى قد تعطلوا منها الآن . ولم يبق لهم شيء مما كانوا عليه فيما مضى
من المهابة والقدر الرفيع لدى الأمم المجاورة . وقد ضل عنهم أيضاً
ما كانوا يملكون من القوة والتجدة الاجتماعية . وأما ما ينبغي به المستقبل
من حالهم فهو أسوأ من هذا كله وأردأ .

كل دين أو حضارة أو نظام اجتماعي يمكن أن يُقبل من الناس
تجاهه مذهبان اثنان لا غير : أولهما أنه إذا كان داخلاً فيه فمليه أن يؤمن بمبادئه
الأساسية إيماناً كاملاً ويتبع قانونه وضابطه كل الاتباع . والآخر أنه
إن لم يستطع أن يعمل بذلك فلا يدخل فيه . وإن كان قد دخل بعد
فليخرج منه علانية . وليس بين هذين المذهبين صورة معقولة أخرى
للعمل . وليس أسخف وأبعد عن المنطقية أن تكون داخلاً في نظام
وتعيش بينه كجزء من أجزائه وتدعي كونك متبهماً له ، ثم تنحرف عن
مبادئه الأساسية انحرافاً كلياً أو جزئياً فتعصي قانونه وتعني نفسك من
التقيد بضوابطه . إن من النتائج المحتومة لهذه الخطة العملية أن تنشأ
فيكم صفات الكذب والنفاق وتخلو قلوبكم من صدق النية ولا ينبعث في
أنفسكم حماس أو صرامة عزم لمقصود من المقاصد ، وتتجردوا من صفات
الشعور بالواجب واتباع القانون والتزام الضابط ولا تبقوا أهلاً لأن
تكونوا أعضاء نافعين في نظام اجتماعي . إنكم بهذه الرذائل والنقائص
الخلقية أبنا ذهبتم وأي جماعة دخلتم فيها كنتم لها عاراً وسبة ، وأي نظام
انضمتم إليه خربتم بنيانه ، وأي حضارة سريتم في جسمها كنتم لها
بكرائيم الجذام وأي دين اعتنقتموه مسختموه مسخاً . وإنه خير من أن

تكونوا مسلمين بهذه الأوصاف أن تهجروا الاسلام وتنضموا إلى الطائفة التي تقتنع نفوسكم بمبادئها وتستطيعون أن تتبعوا طرائقها . وانه خير من المسلم المنافق ذلك الكافر الذي يؤمن بدينه وحضارته صادق الإيمان ويلتزم ضوابطه .

وقد أخطأ من كان يظن في الماضي أن العلاج الناجم لمرض المسلمين هذا هو التعليم الغربي بالحضارة الجديدة وإصلاح الأحوال الاقتصادية ونيل الحقوق السياسية ، ومخطيء كذلك من يظن مثل ذلك في الوقت الحاضر . وأمر الحق لئن أصبح كل فرد من أفراد المسلمين حائز الشهادة الدكتوراه والماجستير والمحاماة ، واغتنى وجمع من الثروة والاموال شيئاً كثيراً ، وزين نفسه بالطراز الاوربي الجديد من الملابس من قمة رأسه إلى أخمص القدم . واثن حاز المسلمون إلى ذلك جميع مناصب الحكومة وجميع أماكن المجالس التشريعية ولكنه كان في قلوبهم بجانب هذا كله مرض النفاق ، ولم يظنوا واجبهم واجباً ، ومردوا على العتو والمصيان وعدم الالتزام ، فإنهم لا بد أن يبقوا على ما هم عليه اليوم من الضعف والضمّة والحمول . ولم يكن لشيء من التعليم الجديد وتقليد الطراز الاوربي والثروة والحكومة أن ينتشلهم من الوهدة التي انحدروا إليها لضعف سيرتهم وأخلاقهم . فإن كنتم تريدون الرقي وتطمحون أن تكونوا جماعة قوية عزيزة فإنه يجب عليكم قبل كل شيء أن تبشوا في المسلمين روح الايمان واطاعة الامر ، إذ لا يمكن بدون ذلك أن تتقوى سيرة أفرادكم ولا أن ينتظم أمر جماعتكم ، ولا يمكن بدون ذلك أن تجمعوا من القوة

الاجتماعية ما تحتلون به مكان العز والرفعة في العالم . وذلك أن جماعة
منتشرة متشعبة تسوء حالة أفرادها الخلقية والمعنوية لا يمكن أن تكون
أهلاً لأن ترفع رأسها أمام أمم الأرض القوية المنظمة . وإن كومة من
الزبل المجفف منها علا وضخم لا يمكن أن تكون قلعة !

إن أسوأ أعداء الإسلام والمسلمين هم الذين يعمدون في المسلمين داء
العصيان وسوء الاعتقاد . وهؤلاء هم النوع الأضر الأسوأ من
المنافقين الذين وجودهم أفتك بالمسلمين من وجود الكفار المحاربين ،
لأنهم لا يهجمون على هذه الأمة من الخارج بل هم ينصبون لها المكائد
ويوارون لهم الديناميت داخل مجتمعاتهم ، ويريدون أن يخزوا المسلمين في
الدين والدنيا معاً ، وهؤلاء هم الذين جاء عنهم في القرآن الكريم: (ودّوا
لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء) . فأقل التدابير لا لقاء شرهم هو
أن يقطع صلته عنهم كل من هو مسلم من صميم قلبه ويريد أن يبقى مسلماً .
فلا تتخذوا منهم أولياء . وإلا قد قرر القرآن الكريم من جزائهم النهائي
أن يحاربوا كأعداء الإسلام . (فان تولوا نخذوهم واقتلوا حيث وجدتموهم) .



المفهوم الحقيقي لكلمة "إسلام"

قد راج في حوارنا اليومي كلمات وتراكيب ينطق بها الصغير والكبير ولكن قل منهم من يفهمها ويدرك غور معانيها . وبكثرة دوران تلك الكلمات على الألسن قد قر لها في أذهان الناس مفهوم إجمالي . فإذا تكلم بها ناطق أراد ذلك المفهوم ، وإذا سمعها سامع فهم منها نفس المفهوم المختزل . ولكن المعاني العميقة الدقيقة التي كانت وضعت لأجلها تلك الكلمات لا يهتدي إليها المثقفون بله الجاهلين العاميين .

خذ مثلاً كلمتي «الإسلام» و«المسلم» . فما أكثر جريان هاتين الكلمتين على أفواه الناس وما أعم سيطرتهم على ألسنتنا . ولكن كم من الناطقين من ينطق بها وهو يشعر بما تتضمنان من المعاني ، وكم من السامعين من يسمعهما ويفهم منها تمام المفهوم الذي كانتا وضعتا لأجله . إن في المسلمين أنفسهم - دع عنك ذكر غير المسلمين - تسعاً وتسعين في المئة بل أكثر من ذلك يدعون أنفسهم «مسلمين» ويمبرون عن دينهم بكلمة «الإسلام» ولكنهم لا يعلمون ما هو «المسلم» وما هو المفهوم الحقيقي لكلمة «الإسلام» . فيها بنا نصرف بعض أوقاتنا اليوم في تشريح هاتين الكلمتين . إنك إن نظرت في أحوال الناس من ناحية الاعتقاد والعمل وجدتهم على أقسام ثلاثة في أغلب الأحوال :

أولها هم الذين يقولون علناً ببحرية الرأي وحرية العمل . فهم في كل
أمر من أمور حياتهم يعتمدون على رأيهم أنفسهم ويؤمنون بما تحكم به
عقولهم وكفى ، ويختارون من طرق العمل ما يكون في رأيهم أنفسهم
صواباً . فهم لا علاقة لهم بدين من الأديان ولا هم يتبعونه .

والقسم الثاني يتألف من الذين هم يدينون بدين ما في ظاهر أمرهم .
ولكنهم يتبعون في الحقيقة آراءهم وأفكارهم أنفسهم . فهم لا يرجعون إلى
دينهم ليأخذوا منه العقائد وقوانين الحياة ، بل هم يتخذون بأنفسهم
بعض العقائد حسبما تشاء أهواؤهم وميولهم وحاجاتهم ، ويختارون
لأنفسهم طرق العمل ثم يحاولون أن يصوغوا دينهم على صيغتها ويصبغوه بصيغتها ،
فهم لا يكونون في الحقيقة أتباعاً للدين . بل الدين يكون تابعاً لهم
ولأهوائهم .

والثالث يشتمل على الذين لا يستعملون عقولهم بل يمتثلونها تعظيلاً ،
ويجرون وراء غيرهم من الناس بقلد ونهم تقليداً أعمى ، سواء كان
أولئك أجدادهم أو معاصريهم .

فالطائفة الأولى تنهاك على الحرية ولكنها لا تعلم حدودها الصحيحة .
إن حرية الفكر والعمل لا شك صحيحة إلى حد ما . ولكنها إذا جاوزت
حدودها عادت ضللاً . فالرجل الذي لا يعتمد إلا على رأيه في كل أمر
ولا يحدك إلا إلى عقله في جميع الشؤون ، فهو واقع في سوء الفهم وبطن
خطأ أن علمه وعقله قد أحاط بجميع أمور هذه الدنيا ، فلا تعزب عنه
حقيقة أو مصلحة وأنه خبير بمعالم كل طريق في الحياة ، عارف بدقائق
كل مذهب عالم بنهاية كل سبيل كعلمه ببدايتها . هذا الزعم للعلم

والتعقل في الحق زعم خاطيء . وإن احتكم المرء إلى عقله بصدق ، لدله عقله بنفسه على أنه - أي العقل - لا يتصف بالصفات التي يظنها فيه مقلده الأعمى ، وإن الرجل الذي يتخذ قائداً ولا يسلك طريق حياته الا على هديه لا يمكن أن ينجو من ذلة أو صدمة أو مهلكة أو ضلال .

وهذا النوع من حرية الفكر والعمل ضار بالتمدن والحضارة أيضاً . فما تقتضيه الحرية الا يمتد المرء إلا بماصح في رأيه نفسه والا يسلك من الطرق الا ما صوبه عقله هو . وبما يقتضيه التمدن والحضارة - بخلاف ذلك - هو أن جميع من يضمهم نظام للتمدن يجب أن يكونوا متفقين في بعض العقائد والأفكار الجوهرية ويتبعوا في حياتهم تلك الآداب والمعادن وتلك القوانين التي قد قررت لنظم الحياة الاجتماعية . فأنت ترى أن حرية الفكر والعمل تتناقض مع التمدن والحضارة . ان الحرية تبعث في الافراد الانانية والاباحية والفوضى ، والتمدن يطالبهم بالاتباع والاطاعة والرضا . لذلك حينما كانت الحرية انعدم التمدن ، وحينما كان التمدن حتماً على الأقل أن ينزلوا من حرية فكرهم وعملهم عن شيء كثير .

والطائفة الثانية أسوأ حالا من الاولى . فالطائفة الاولى ضالة فحسب ولكن الثانية كذابة أيضاً ومناققة غاشة مدخولة الباطن . وإن كان رجل يستطيع أن يوافق بين دينه وأفكاره وميوله ضمن الحدود الصحيحة للتأويل فانه يمكن اتباع الدين مع حرية الفكر والعمل . كذلك إن كانت ميول الرجل مخالفة لتعاليم الدين ولكنه صوب تعاليم الدين وخطأ ميوله هو صحت دعواه إلى حد ، انه يدين بذلك الدين الذي يدعى اتباعه . ولكنه إذا كانت

عقائده وأعماله صريحة الاختلاف عن تعاليم الدين الواضحة ، وكان يظن أفكاره هي صحيحة وتعاليم الدين خاطئة ، ثم حاول أن يسبب كون التعاليم الدينية مطابقة لأفكاره وعاداته كما يستطيع أن يعد من المؤمنين فان مثل هذا الرجل لن ندعوه أحق لان الاحق لا يتأتى له مثل هذا المكر والخديعة ، بل سندعوه كذاباً مارقاً ، وسنضطر إلى الظن أنه لا يملك من الجرأة ما يفي به على الدين علناً ، فيدعي ايمانه من طريق النفاق . والا أي شيء - ياترى - ينفه من هجر الدين الذي تتعارض تعاليمه مع عقله وتتناقض مع أفكاره وعقائده وتصدده عن اتباع الطرق التي يحب من صميم قلبه أن يسير عليها ، بل هو سائر عليها في الواقع .

والطائفة الثالثة اسفل هذه الطوائف جميعاً باعتبار درجتها العقلية . فانما خطأ الطائفتين الاوليين أنهما تحملان العقل مالا طاقة له به ، ولكن خطأ هذه الطائفة أنها لا تستعمل العقل أصلاً أو تستعمله استعمالاً نزرأ سواء هو والعدم ، وأي خزي أكبر لما قل أن يعتقد عقيدة ما ثم لا يكون بيده دليل بحق تلك العقيدة سوى أنه ألفى عليها آباءه ، أو أن تؤمن بها الامة الفلانية التي هي على درجة عالية من الرقي ، وان الرجل الذي يتبع بعض الطرق في شؤونه الدينية أو الدنيوية لكونه قد توارثها عن آباءه واسلافه ، أو يختار الطرق الاخرى بناء على كونها رائجية بين الامم الغالبة في زمانه فكأنه يبرهن عن نفسه أنه ليس في جمجمته دماغ ولا في دماغه قوة للفكر ، فهو لم يؤت الملكة التي يميز بها بين الخاطيء والصحيح . لو انه ولد في بيت يهودي بالمصادفة ، فهو يؤمن بصدق الديانة اليهودية . ولو أنه ولد في بيت مسلم لآمن بصدق الاسلام ، أو ولد في

عائلة نصرانية لتحمس للنصرانية . كذلك من المصادفة أيضاً أن الغلبة في زمانه للامم الفرنجية فهو يعد عادات الافرنج هي معيار التهذب ورمز التقدم والرفي . ولو كانت الغلبة في زمانه للصينيين لكانت عادات الصينيين هي عنوان التهذب عنده . وان تكن الغلبة اليوم في العالم للجبش الافريقيين فلا جرم أن تصبح الجبشة هي عصارة الانسانية والتحضر عند هذا الرجل الخفيف العقل .

الحق انه ليس من الدليل المعقول على كون شيء صحيحاً أو محقاً انه قد عمل به الآباء والاسلاف أو أنه يعمل به في الدنيا اليوم إنما ارتكبت الحماقات قديماً وحديثاً وليس من شأننا أن نقلد تلك الحماقات تقليداً أعمى ولا أن نروح نتبع كل طريق من الطرق القديمة أو الجديدة بدون بصيرة أو تفكير ، فنربط أنفسنا بذيل كل سائر على الدرب سواء أكان يقصد في سيره إلى الاشواك أو إلى هوة من الضلال . وانا إنما اوتينا العقل لأجل أن نميز بين الخير والشر في هذه الدنيا ونفرق بين الصحيح والزائف باختبارهما على المحك ، وقبل أن نقنّدي بأحد يجب أن نرى : إلى أين يسير الرجل ؟ .

والاسلام يعد كل هذه الطوائف الثلاث واقعة في الباطل والضلال . أما الطائفة الاولى فهو يقول فيهم أن القوم لا هم يتخذون هادياً وزعيماً لهم من يحمل النور ، ولا هم بأيديهم أنفسهم نور الحق والصدق حتى يستضيئوا به في طريق حياتهم . فمثلهم كمثل من رجم بالغيب ومشى على الدرب في الظلام . فقد يبقى إلى المحجة وقد يعدل عنها ليقع في

الحضيض . وذلك بأن الظن والتخمين ليس من اليقين في شيء بل هو عرضة للصحة والخطأ ووقوع الخطأ فيه أكثر احتمالاً .

(وما يتبعُ الذين يدعونَ من دونِ اللهِ شركاءَ ، إن يتَّبِعُونَ إلا الظنَّ وإن هم إلا يخرُصون) (١) .

(إن يتَّبِعُونَ إلا الظنَّ . وإن الظنَّ لا يُغني عن الحق شيئاً) (٢) .

(إن يتَّبِعُونَ إلا الظنَّ وما تهوى الأنفسُ . ولقد جاءهم من ربِّهم الهُدَى أم للأنسانِ ما تمنى) (٣) .

(أفرأيتَ من اتخذَ إلَـهَهُ هَـوَاهُ فأضلَّهُ اللهُ على علمٍ وختم على سمعِهِ وقلبيهِ وجعل على بصرِهِ غشاوةً . فمن يَهْدِيهِ اللهُ فليس بعده اللهُ) (٤) .

(ومن أضلُّ ممن اتبع هَـوَاهُ بغير هُدًى من الله . إن الله لا يَهْدِي القومَ الظالمين) (٥) .

وكان الممثلون للطائفة الثانية في زمان نزول القرآن هم بنو اسرائيل الذين كانوا ينتمون إلى النبي موسى — عليه السلام — ويدعون أنفسهم متبعي التوراة . ولكنهم كانوا في عقائدهم ومعاملاتهم يخالفون في الاغلب طريقة النبي موسى عليه السلام وتعاليم التوراة . ثم كانوا لا يخرجون على انحرافهم ذلك، وبدل أن يصححوا أفكارهم وأعمالهم — سب تعاليم التوراة

(١) يونس : ٦٦

(٢) النجم : ٢٨

(٣) النجم : ٢٣ — ٢٤

(٤) الجاثية : ٢٣

(٥) القصص : ٥٠

كانوا يحرفون الكلم ويؤولون المعاني في كتاب الله ليطابقوا بينه وبين أفكارهم وأعمالهم . وكانوا يخفون تعاليم التوراة الأصلية ويعرضون مكانها أفكارهم أنفسهم كأنها هي التعاليم المنزلة في الكتاب . والذين يذهبون على ذلك الضلال والمضيان ويدعونهم إلى اتباع كلام الله بخلاف ما تشتهي أنفسهم كانوا يجازون بالشتيم والسباب والتكذيب وحتى بالقتل في الأحياء . فقال الله تعالى في هذه الطائفة : (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ)^(١) . (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون)^(٢) .

(كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون)^(٣) .

ثم قال لهم بالصراحة : (لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم)^(٤) .

وفي الطائفة الثالثة الأخيرة قال الله تعالى :

(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)^(٥) . (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا .

(١) المائدة : ١٣

(٢) آل عمران : ٧١

(٣) المائدة : ٧٠

(٤) المائدة : ٦٨

(٥) البقرة : ١٧٠

أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون^(١). (وإن تطلع أكثر من في الأرض يضلّوا عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظنّ. وإن هم إلا يخوضون)^(٢).

إن الذين لا يستعملون عقولهم وأفهامهم ولا يميزون بأنفسهم بين الصحيح والزائف ، بل يقلدون غيرهم تقليداً أعمى يحكم عليهم القرآن الكريم بأنهم (صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون)^(٣). ويشبههم بالأنعام بل يجعلهم أحط منها لأن الأنعام غير ذوات العقل ، وهؤلاء ذوو العقل ولكنهم لا يستعملونه. (أوائك كالأنعام بل هم أضلّ. أوائك هم الغافلون)^(٤).

هذه الطبقات الثلاث التي تقوم طرائق عملها على الإفراط والتفريط ينبذها القرآن الكريم ويريد أن يستبدل بها أمة تلتزم القصد والاعتدال، أمة وسط قوامين بالقسط .

وما هو طريق القصد والاعتدال هذا ؟ هذا الطريق هو أن تشقوا أولاً جميع الحجب التي قد أسدلتها أمام أعينكم التقاليد القديمة والتعاليم الجديدة . فافتحوا أعينكم على ضوء العقل السليم وانظروا بأنفسكم ما الحق وما الباطل . أالاحاد صحيح أم التوحيد ؟ التوحيد حق أم الشرك ؟ وهل الإنسان لا أجل أن يسلك سواء السبيل مفتقر إلى هداية الله تعالى أم لا ؟ وهل كانت الأنبياء — عليهم السلام — ومحمد ﷺ صادقين

(١) المائدة : ١٠٤

(٢) الأنعام : ١١٦

(٣) البقرة : ١٨

(٤) الأعراف : ١٧٩

كلهم أم كاذبين (عياداً بالله) والطريقة التي يدعو إليها القرآن هل هي مستقيمة او ملتوية معوجة ؟ فان شهد قلبكم بان الايمان بالله تعالى هو ما تقتضيه الفطرة الانسانية وان الاله هو الله الذي لا شريك له وأذعن ضميركم بان الإنسان لا شك مفتقر إلى نور من عند الله لا^جل أن يسلك في حياته سواء السبيل . وهذا النور هو ما جاء به الانبياء والمرسلون الذين كانوا هداة صدق للنوع البشري في كل زمان . وإن دلكم النظر في الحياة الطيبة التي عاشها النبي محمد ﷺ في هذه الدنيا على أن إنساناً بتلك السيرة المطهرة العالية لم يكن ليخدع العالمين ، وإذا كان قد ادعى أنه رسول من عند الله فلا بد أن يكون صادقاً في دعواه . ثم إن قرأتم القرآن وحكم عقلكم بأن الطريق المستقيم لا اعتقاد المرء وعمله هو الذي قد عرضه هذا الكتاب ، وهذا الكتاب هو لا شك من عند الله فعليكم أن لا تخافوا عندئذ لومة لائم أو مخالفة عنيد ، بل نقوا قلوبكم من كل خوف للنقصان وكل طمع في الربح وآمنوا بالذي قد شهد بصدقه شاهد أنفسكم وضميركم .

وإذا ميزتم بين الحق والباطل بما آتاكم الله من العقل السليم واخترتم الحق على الباطل فقد انتهت عندئذ وظيفة عقلكم في النقد والاختبار وانتقلت سلطة الحكم والامر من العقل الانساني الى الله والرسول . ولم يكن لكم بعد ذلك أن تحكموا بأنفسكم في شؤونكم بل كان عليكم ان تذعنوا لكل ما يأمركم به الله والرسول . ويجوز لكم ولاشك أن تستعملوا عقلكم لفهم تلك الاحكام وإدراك حكمته ودقائقها ولتطبيقها على جزئيات حياتكم ، ولكنه ليس لكم ان تشكوا وتساءلوا

في أمر يأمركم به الله تعالى . وسواء أأدرتكم الحكمة من وراء أمر إلهي أم لم تدركوا ، وطابق أمر من عند الله معيار عقلكم أم لم يطابق ، وكان ما قضى الله ورسوله به مفيداً عندكم لما ربكم الدنيوية أم غير مفيد . وسواء كان أمر رسوله موافقاً للمعادات والتقاليد الرائجة في هذه الدنيا أو منافياً لها ، فليس لكم في كل حال إلا أن تدعوا له وتتبعوه . لأنكم إذا آمنتم بالله وصدقتم رسوله وأيقنتم بأن كل ما يدعو إليه رسول الله هو من عند الله لا من عند نفسه . (وما ينطق عن الهوى ، إنا هو وإلا وحى يوحى) ، فمن النتيجة المنطقية لهذا الادعاء واليقين أن تؤثر ما يقضي به الله والرسول على ما تقضي به عقولكم وألا تنتقدوا الأوامر والنواهي التي جاء بها النبي من عند الله على محك عقلكم وعلمكم وتجاربكم أو على محك أفكار وأعمال غيركم من أهل الدنيا . فالذي قال إني مؤمن ثم غدا يشك ويتساءل فيما يأتيه من عند الله فهو يرد بنفسه قوله وينقض بنفسه ما أبرم ، ولا يعلم أن الإيمان والشك ضدان لا يجتمعان وأن نظام الأمور يقوم على الطاعة والتسليم وأن الشك والتساؤل لا يؤدي إلا إلى الفوضى والبغي .

فطريقة القصد والاعتدال هذه هي «الاسلام» والطائفة التي تتبع هذه الطريقة هم المسلمون .

أن «الاسلام» معناه الاتقياد والطاعة والرضا . والمسلم هو الذي يذعن لأمر الأمر ونهي الناهي إذعان رضى . فهذه التسمية بنفسها دالة على أنه لم تبحث في الدنيا هذه الطائفة الرابعة على انفراد من تلك الطوائف الثلاث وطرقهم الضالة إلا لأن تتبع أمر الله والرسول وتخضع

له . انه ليس لهذه الطائفة ان تتبع عقلها في كل أمر . ولا لها ان تعبت
باحكام الله فتأخذ منها ما وافق هواها وتدع ما خالفه ، ولا لها أن تجعل
كتاب الله وسنة رسوله وراءها وتروح تقلد الانسانيين تقليداً أعمى ،
سواءً أ كان أولئك أحياء أم أمواتا .

وهذه الحقيقة قد جاء القرآن الكريم صريحاً في بابها . فهو يقول انه
إذا أتى الانسان المؤمن أمر من عند الله تعالى فلا يكون له ان يؤمن به أولاً
يؤمن كما يشاء . (وما كانَ لِلْمُؤْمِنِ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا) (١) .

ويقول : إن أخذ المرء جانباً من كتاب الله وتركه الجانب الآخر يفضي
إلى الخزي في الدنيا والآخرة (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ
بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ . وما الله بغافل عما
تعملون) (٢) .

ويقول : ان حكم المؤمن في قضية ما يجب ان يكون حسب كتاب
الله ، وإن كان ذلك موافقاً لهوى النفس او مخالفاً له . (فاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ) (٣)
ويقول : كل من لا يحكم بحسب كتاب الله فهو فاسق . (وَمَنْ لَمْ
يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (٤) .

(١) الاحزاب : ٣٦

(٢) البقرة : ٨٥

(٣) المائدة : ٤٨

(٤) المائدة : ٤٧

وكل حكم يخالف كتاب الله فهو حكم الجاهلية . (أفحكم الجاهلية
يبتغونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (١) .

ثم يقول : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي
الأمر منكم . فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول
إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلاً .
ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من
قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطَّاغوت وقد أمروا أن يكفروا
به . ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم
تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدّون عنك
صدوداً وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن
الله فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر
بينهم ثم لا يجيدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) (٢) .

انه يتضح من هذه الآيات الصريحة وجه التسمية بكلمتي «الاسلام»
و «المسلم» فالآن يجب علينا نحن الذين كتبنا أسماءنا في سجل المسلمين
ان نتفكر ونرى : إلى أي حد تصدق علينا كلمة «المسلم» ، وإلى أي
حد يصح أن تدعى الطريقة التي نحن نتبعها باسم «الاسلام» ؟ !

(١) المائة : ٥٠

(٢) النساء : ٥٩ - ٦٥

المصدر الحقيقي لقوة المسلم

من حوادث مطلع القرن الثاني للهجرة أن ملك سجستان والرخج الذي كان لقبه العائلي : (رتبيل) رفض أداء الخراج لمال بني أمية . فأغاروا عليه الغارات ، ولكنه لم يخضع . وفي أيام الخليفة الأموي يزيد ابن عبد الملك بُعث إليه وفد من المسلمين يطالبه بالخراج . فلما حضره الوفد سألهم رتبيل : أين القوم الذين كانوا يأتوننا قبلكم . كانوا ضامري البطون من الجوع ، يلبسون نعال الخوص وفي وجوههم سماء من أثر السجود ؟ فقبل له : قد مضوا . فقال رتبيل : إنكم لا شك أنضروا منهم وجوهاً ولكنهم كانوا أصدق منكم وعداً وأشد بأساً . وبذكر التاريخ أن رتبيل قال هذا والتوى بما عليه من الخراج . وما زال خارجاً عن طاعة الحكومة الإسلامية مدة نصف قرن أو نهازه .

ذلك في عهد كان فيه كثير من التابعين ومن تبعهم على قيد الحياة . وكان زمان الأئمة المجتهدين . لم يمض على وفاة النبي ﷺ إلا قرن واحد . والمسلمون أمة موفورة القوى والحياة ، لا يزالون يسيطرون نفوذهم على الدنيا ، وقد ملكوا فارس والروم ومصر وأفريقيا وإسبانيا ، ولا تسامهم أمة من أمم الأرض في العدة والعتاد والعزة والبذخ والثروة

والأموال . هذا والایمان یعمر القلوب وأحكام الشرع تتبع أكثر مما تتبع الآن ، ونظام السمع والطاعة قائم ، والامة ينظمها تنظيم محكم . إلا أن خصمهم الذي كان قد عجم عود البدو الجائعين العراة من رجال عهد الصحابة أحس بفرق عظیم بین هؤلاء الشاكين في السلاح وأوائك المدمین المنزل .

من أي شيء كان هذا الفرق يا ترى ؟

لعل رجال الفلسفة أن يجعلوه فرقاً بين البداوة والحضارة . فيقولوا : إن البدو القدامى كانوا يعيشون عيشة المشقة والجهد والذين جاؤوا من بعدهم جعلتهم الثروة والتمدن يأنفون العيش الناعم الرغيد . ولكن الحقيقة أنه لم يكن ذلك علة هذا الفرق ، بل كانت علته حقاً هي الايمان والاخلاص وحسن النية والاخلاق وطاعة الله ورسوله . فهذه كلها كانت مأتى القوة الحقيقية المسلمين . لم تكن قوتهم من كثرة المديد ولا من وفرة المتاد ولا من قناطر الذهب والفضة ولا من حذق العلوم والصناعات ولا من توفر لوازم الحياة والتمدن . وإنما كانوا نهضوا بقوة الايمان والعمل الصالح ، وهذه هي التي جعلتهم أعزة في العالم وألقت في قلوب الامم هيبتهم والایمان بخلقهم وأمانتهم . وما دام عندهم هذا الذخر من القوة والمز فإنهم كانوا مع قلة العدة والمتاد أقوياء ذوي السؤدد والشرف . ولكنه لما قل عندهم هذا الذخر أخذهم الضعف وجعلت ریحهم تفشل مع الايام ، ولم تغن عنهم شيئاً كثرة المدد واستفاضة الاسباب المادية .

فقد رأيت أن الذي قاله رتبيل، وهو عدو الاسلام والمسلمين هو أكثر
عبرة من آلاف المواعظ للناصحين الأولياء. انه بين في الحقيقة أن القوة الحقيقية
لامة ما ليست في جيوشها الزاحفة ولا في أسلحتها اللامعة ولا في جنودها
المتأنقين في الماء كل والملابس ولا في وسائلها وأسبابها الكثيرة. بل
قوتها هي الخلق الفاضل والسيرة الطيبة والمعاملة الصحيحة والامل
البعيد. وهذه القوة هي تلك القوة الروحانية التي تفتح المسالم بدون
الوسائل المادية وتغلب المعدمين على الموسرين ولا تورثهم الارضين فحسب
بل تجعل في قبضتهم القلوب والنفوس أيضاً. بهذه القوة يتقدم الابطسون
نعال الخوص المزلزلون المعروقون المغمدون سيوفهم في الاسمال فيشعرون
أهل الارض من هيبتهم ورعبهم ومن سيطرتهم وجبروتهم وقدرهم وعزم
وثقتهم وسلطانهم مالا يتهاى ابداً - بدون هذه القوة - للابس الوشي
والديباج وأهل البذخ والترف أولى الوجوه الناضرة والقصور الشاحخة
والمسلحين بالمناجيق الضخمة والدبابات الفخمة. ذلك ان وفرة القوة
المعنوية تتلافى قلة الاسباب المادية، ولكن وفرة الاسباب المادية لا تعوض
مما يفوت من القوة المعنوية. ولو أنه تحصل غلبة بدون هذه القوة فانها
أخرى أن تكون عارضة موقته. لانه لا تفتح القلوب أبداً بدون هذه
القوة وانما تتطأطأ الرقاب، وتبقى بعد ذلك بالمرصاد أبداً لتنتهز أول
فرصة للتنعالي والتشامخ.

ان بناء ما لا يتحقق إحكامه بنقوشه وزخارفه وألوانه ولا بفنائه
الرحب وروضته الغناء، ولا بأي جمال خارجي. كما لا يزيد في قوته كثرة
ساكنيه، ولا وفرة أثائه ولا تعدد أجهزته وآلاته. وهو مادام واهي

الأسس أجوف الجدر من كل العمدة متفتت الألواح والخشب فإنه لا ينعمة شيء من السقوط وإن كان عامراً بالاهل زائراً بالمتاع يسر الناظرين بزينة وتحاسينه . إنكم إنما تنظرون إلى المظاهر وتوقف أنظاركم عندما يتمثل أمام أعينكم ولكن حوادث الدهر لا يقف فعلها عند الظاهر بل هو ينفذ إلى الصميم . فهذه تمارس الأسس وتخبر متانة الجدران وتمتحن سلامة العمدة ، فإن وجدت هذه كلها محكمة متراصة ارتدت كالموج رده الصخرة الصماء ، وغالبها البناء برصانته وإحكامه ، مع أنه عاطل من كل زينة . وإن كانت الأخرى حطمتها لطمت الحداث فانهدم وسقط مع كثرة سكانه وجودة نقوشه وألوانه .

هذا بعينه هو شأن الحياة القومية . فالذي يجمل أمة ما قوية غالبية بين الأمم ليس منازلها ولا ملابسها ولا مراكبها ولا مرافق حياتها الناعمة ولا فنونها اللطيفة ولا مصانعها ولا كلياتها ، بل هو المبادئ التي تقوم عليها حضارتها ورسوخ هذه المبادئ في القلوب وهيمنتها على الأعمال . وهذه الأشياء الثلاثة أي استقامة المبادئ والايان القوي بها وهيمنتها الكاملة على الحياة العملية هي في حياة الأمم بمكان الأسس المتين والجدار القوي والعماد المحكم في البناء . فالأمة التي توفرت فيها هذه الأمور الثلاثة كاملة فإنها لا جرم أن تكون غالبية بين الأمم . تعلمو كلماتها في الأرض وينبسط نفوذها على الشرق والغرب وتتأصل ثقها في القلوب وتمنوا لامرها الرقاب . وتكون معززة محترمة وإن كانت تسكن الأكواخ وتلبس الأسماك وكان أفرادها ضامري البطون من إلحاح الفاقة

ولم تكن في مدائنها كلية ولا ارتفعت في معمرتها مدخنة ولا كانت لها في العلوم والصناعات يد . ذلك بأن كل هذه الاشياء التي تعدونها من أسباب الرقي والتقدم إن هي نقوش وألوان للبناء وليست أسسه وقواعده وأركانها . وأنت إن كسوت الجدران النخرة ورق الذهب فلن يمنعها ذلك من السقوط . وهذه هي الحقيقة التي يكررها القرآن الكريم :

إنه يصف مبادئ الاسلام بأنها تطابق تلك الفطرة الثابتة غير المتبدلة التي قد فطر الله تعالى عليها الانسان . لذلك فإن الدين المشيد على تلك المبادئ هو الدين القيم ، أي الدين الذي يقيم جميع شؤون المعاش والمعاد على الأساليب الصحيحة المستقيمة (فاقم وجهك للدين الحنيف فطرة الله التي فطر الناس عليها . لا تبدل الخلق الله . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون)^(١) . ويقول بعد ذلك : ان استمسكوا بهذا الدين القيم وآمنوا به وعملوا بمقتضياته تغلبوا في الدنيا وورثوا الارض واستخلفوا فيها (أن الارض يرثها عبادي الصالحون)^(٢) (وأنتم الاغلبون إن كنتم مؤمنين)^(٣) . (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض)^(٤) . (ومن يتوكل الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون)^(٥) .

(١) الروم : آية ٣٠ .

(٢) الأنبياء : آية ١٠٥ .

(٣) آل عمران : آية ١٣٩ .

(٤) النور : آية ٥٥ .

(٥) المائدة : آية ٥٦ .

وبخلاف ذلك إن الذين قد دخلوا في حظيرة الدين في ظاهر الأمر ولكنه لم تخالط بشاشته قلوبهم ولا هو أصبح قانون حياتهم فلا ريب أن ظاهرهم رائق معجب (وإذا رأيتم تعجبك أجسامهم) . وأقوالهم تلذذ الاسماع (وإن يقولوا تسمع لقولهم) . ولكنهم في الحقيقة جثث لاروح فيها (كأنهم خشب مسندة) . يخافون الناس أكثر مما يخافون الله (يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) . أعمالهم كسراب يتراءى كالماء ولكنه ليس بشيء في الحقيقة (أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) . وأمثال هؤلاء لا يمكن أن تنأى لهم قوة جماعية لأن قلوبهم متنافرة وهم لا يستطيعون أن يتشاركوا في عمل من الاعمال الخالصة : (بأنهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) . فلا يمكن أن يكون لهم من القوة ما يختص بالمؤمنين الصالحين (لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر) . وهم إن بنالوا إمامة العالم (قال لا ينال عهدي الظالمين) . وليس من عاقبتهم إلا أن يذلوا ويهنوا في هذه الدنيا ويدوقوا في الآخرة أيضاً عذاباً شديداً (لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم) .

ومما عسى أن تعجب منه أن القرآن الكريم قد جعل وسيلة رقي المسلمين وتألفهم بجماعة حاكمة غالبية في الأرض شيئاً واحداً هو الايمان والعمل الصالح . ولم يفرض عليهم لا جـل ذلك أن يؤسسوا الجامعات وينشئوا الكليات و يقيموا المصانع ويصنعوا السفن ويؤلفوا الشركات ويفتحوا المصارف ويخترعوا الآلات وأن يحاكوا الأمم الراقية في اللباس وأساليب الاجتماع والمعدات . ثم إنه جعل السبب الوحيد للتخلف

والانحطاط وخزي الدنيا والآخرة هو النفاق ، لا انعدام الاسباب التي تحسبها الدنيا أسباب التقدم والرقى .

ولكنك إن تفهمت روح القرآن وتعمقت معانيه السامية زال عجبك للأمر . فأول ما يجب أن يفهم من هذا الصدد هو ان الوجود الذي يقال له « المسلم » لا قوام له إلا بالاسلام ولا تثبت حقيقته من حيث هو مسلم إلا بالاسلام . فهو إن آمن برسالة النبي محمد ﷺ وانبع القوانين التي أنزلت عليه تحقق إسلامه ، وإن لم يكن يملك شيئاً ما عدا الاسلام . وبالعكس من ذلك إن هو تحلى بكل ما يعد من زينة الحياة الدنيا ولكنه لم يعمر قلبه الايمان ولم تتميز حياته باتباع قوانين الاسلام ، فانه قد يكون بكالوريوساً أو طبيباً أو مالك مصنع أو رئيس مصرف أو قائد جند أو أميراً للبحر ولكنه لا يمكن أن يكون مسلماً . ومن ثم لا يكون الرقى في هذا المضمار أو ذاك حقيقة بأن يعد رقى فرد مسلم أو أمة مسلمة ما لم تتحقق الحقيقة الاسلامية في ذلك الفرد أو الأمة . وبدون هذا لن يكون ذاك الرقى - مهما عظم أمره - رقى الوجود المسلم . وظاهر أن مثل هذا الرقى لا يمكن أن يكون مطمح أبصار الاسلام .

هذا وقد يكون من صورة واقع أن لا تكون أمة ما مسلمة أصلاً وتكون أفكارها وأخلاقها ونظامها الاجتماعي مبنية كلها على غير أساس الاسلام . فمثل هذه الأمة يمكنها ولا ريب أن تنهض وتتقدم بفضل المبادئ الخلقية والسياسية والاقتصادية والمدنية التي تختلف عن الاسلام، ثم تبلغ الاوج والكمال من ذلك الرقى الذي تعتبره الرقى الحقيقي من زاوية

نظرها . ولكنه من الصورة الاخرى المخالفة للواقع ان تكون أفكار
أمة ما وأخلاقها ومدنيتها واجتماعها وسياساتها واقتصادها مؤسسة كلها
على الاسلام ، ثم تكون تلك الامة ضعيفة في هذا الاساس - الاسلام -
نفسه من ناحيتي العقيدة والعمل كليهما . فمثل هذه الامة مهما هيأت لنفسها
من أسباب الرقي المادي لا يمكنها أبداً أن تنهض في الدنيا كأمة قوية
شديدة البأس ، غالبية على غيرها من الامم . لان الاساس الذي قد رفع
عليه بناء قوميتها وأخلاقها وحضارتها هو نفسه ضعيف واه . وضعف
القاعدة والاساس شيء لا تتلافاه أسباب الزينة والجمال الخارجي .

على انه لا يراد بهذا كله أنا ننكر الأهمية الصحيحة للعلوم والفنون
وأسباب الرقي المادي . بل المقصود أن هذه كلها في الدرجة الثانية للامة
المسلمة ، ويتقدمها جميعاً إحكام الاساس . فإذا استحكم الاساس . فلا
حرج أن يتخذ من وسائل الرقي كل ما يلائم هذا الاساس . بل من
الواجب أن تتخذ جميع تلك الوسائل . ولكنه إذا كان الاساس بنفسه
واهياً وكانت جذوره في سويداء النفوس ضعيفة وسيطرته على شؤون
الحياة فائرة فلا بد أن تختل الاخلاق وتسوء السيرة وتفسد المعاملات من
الناحية الفردية والاجتماعية . وتسترخي ضوابط النظام الاجتماعي
وتتشتت القوى . وليست النتيجة المحتومة لذلك ان تتضاءل قوة الامة
وتشول كفتها في ميزان الامم الدولية يوماً بعد يوم ، حتى تهاجمها الامم
الاخرى وتغلب عليها . وإذا حدث ذلك فليس يعني عنها شيء من كثرة
الوسائل ووفرة الجامعيين ذوي الشهادات العليا والزينة والزخرفة
الخارجية .

ثم هناك فوق هذا كله أن كتاب الله يقول بكل ثقة وإحكام : (أنتم
الاعلون إن كنتم مؤمنين) . و (ألا إن حزب الله هم الغالبون) . و (ليستخلفن
الذين آمنوا وعملوا الصالحات . فهل ترى من أي شيء تأتي هذه الثقة ؟
وبناء على أي شيء قد ادعي في القرآن انه مهبا ملكة أم الأرض من
الوسائل المادية فلا جرم أن ينتصر عليها المسلمون بمجرد سلاح الايمان
والعمل الصالح ؟

هذه العقدة يحلها القرآن الكريم بنفسه . فهو يقول : (يا أيها الناس
ضربَ مَثَلٍ فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله ان يخلقوا ذباباً
ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . ضَعُفَ الطَّالِبُ
والمطلوبُ . ماقدروا الله حقَّ قدره . إن الله لقوي عزيز) (١) . (مَثَلُ
الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْفَكْبَتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً .
وإنَّ أَوْلَهُنَّ الْبُيُوتُ لَبَيَّتٌ الْمَكْبُوتِ) (٢) .

المقصود أن الذين يعتمدون على القوى المادية إنما يعتمدون على أشياء
لا قوة لها بنفسها . ويفضي هذا الاعتماد على شيء لا قوة له إلى أنهم
يعودون بأنفسهم ضعفاء فآثري القوة ، وكل ما يبنون عند أنفسهم من
حصون محكمة رصينة يأتي واهناً كببت المكبوت ، وهم لا يستطيعون أبداً
أن يقاوموا الذين ينزلون في المضمار باعتمادهم على الله ذي القدر والعز الحقيقي
(وَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى
لَا انْفِصَامَ لَهَا) (٣) .

(١) الحج : آية ٧٣ - ٧٤ .

(٢) المكبوت : آية ٤١ .

(٣) البقرة : آية ٢٥٦ .

ويقول القرآن بادعاء أنه كلما التقى في المضمار أهل الايمان ، وأهل الكفر، كان الانتصار لا محالة لأهل الايمان(وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْوَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . سُنة الله التي قد خَلَتِ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) (١) . (سنلني في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً) (٢) . وذلك بأن الذي يقاتل عن الله تعالى يكون في عونه التأييد الإلهي . ومن كان معه التأييد الإلهي فلا يد لأحد بكفاحه (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) (٣) . (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) (٤) .

هذا من قوة المؤمن الصالح وسطوته . ومن القانون الإلهي - بجانب آخر - انه من يكون أميناً طيب السيرة ، ويتبع شريعة الله بدل أهواء النفس وتتنزه أعماله من دنس الاثرة والانانية . فانه يتجيب إلى الخلق . فالقلوب تنجذب إليه مودة ، والانظار ترتفع إليه بالاحترام ، ويؤمن بصدقه أعداؤه فضلاً عن أوليائه ، فيشقون بمدله وعفته ووفائه (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيَجْمَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) (٥) . (يُلَبِّسُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) (٦)

(١) الفتح : آية ٢٢ و ٢٣ .

(٢) آل عمران : آية ١٥١ .

(٣) محمد : آية ١١ .

(٤) الأنفال : آية ١٧ .

(٥) مريم : آية ٩٦ .

(٦) إبراهيم : آية ٢٧ .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً
طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (١) .

ولكن نتيجة أي شيء كل هذا ؟ ليس هذا نتيجة أن يقول المرء
كلمة (لا إله إلا الله) ويتسمى باسم من أسماء المسلمين ويتبع بعض التقاليد
المعلومة في المجتمع الاسلامي أو يؤدي بعض الشعائر . بل يشترط
القرآن لتحقيق هذه النتائج الايمان والعمل الصالح . إنه يريد أن ترمخ
حقيقة (لا إله إلا الله) هذه في قلوبكم ونفوسكم رسوخاً يجعلها غالبية على
أفكاركم وتصوراتكم وأخلاقكم ومعاملاتكم . تنطبع حياتكم بطابعها ولا
يتسرب إلى أذهانكم معنى يختلف عن معاني هذه الكلمة ولا يصدر عنكم
من عمل يخالف مقتضى هذه الكلمة .

فلتكن نتيجة التفوه بكلمة (لا إله إلا الله) أن يحصل معه انقلاب تام
في حياتكم فتسري في كل عرق من عروقكم روح التقوى والصلاح ولا
تخضع رؤوسكم لقوة غير الله ، ولا تمتد أيديكم لأحد غير الله ، ولا تخشى
نفوسكم ما سوى الله ، فلا يكون حبكم ولا بفضلكم إلا لله وحده ، لا ينفذ
في حياتكم قانون غير قانون الله . فتكونوا مستعدين أبداً لبذل كل ماتحبون في
سبيل مرضاة الرب . وإذا بلغكم حكم من أحكام الله ورسوله ، لم يكن عندكم
بازائه الا (سمعنا وأطعنا) قولا وفعلًا . فمتى حصل كل ذلك فيكم لم تكن
قوتكم عندئذ قوة أنفسكم وأجسادكم فحسب ، بل كانت من وراءها قوة أحكم
الحاكمين الذي يسجد له كل ما في السموات والأرض طوعاً وكرهاً . وتصور
وجودكم بنور السهوات والأرض الذي هو المحبوب الحقيقي للخلق أجمعين .

(١) النحل : آية ٩٧ .

كان هذا كله حاصلًا لدى المسلمين على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين . وكان من نتائجه ما قد شهدت به صفحات التاريخ . كان ذاك العهد من قال فيه (لا اله الا الله) تبدلت حياته غير الحياة . يكون خاما من قبل فيصبح كالذهب المسبوك . فكل من رآه بعد ذلك فكأنه رأى التقوى مجسدة والصدق ممثلا ، ومع أنه أمي معسر يعود الفاقة ويلبس الخشن ويجلس على الحصير ولكنه يكون من هيئته في القلوب ما لا يكون لذوي الابهة والخيلاء من الملوك . وكأنه مصباح أينما ذهب ، اقتبس من نوره كثير من المصابيح . ومن لم يقبل هذا النور ويتجرأ على أن يهاجمه ليطفئه وجد في شعلته ما يحرقه ويفنيه .

مثل هذه القوة الايمانية والسيرة الطيبة الصالحة كان يملكها المسلمون حينما كانوا لا يزيدون على ثلاثمائة وخمسين ولكنهم قد تحدوا العرب كلها للنضال . ولما بلغ عددهم بضمة ملايين خرجوا في الأرض يفزون الممالك ويفتتحون الامم ، ولم تعارضهم في هذا الطريق قوة الا انصدعت وتفرقت شذر مذر .

فقوة المسلم الحقيقية - كما أسلفنا - هي هذا الايمان والسيرة الطيبة الناتجان عن رسوخ معاني كلمة (لا اله الا الله) في القلب . فان لم ترسخ هذا المعاني في القلب ، بل نطق بها اللسان فحسب ، ولم ينشأ عنها انقلاب في الذهن وفي الحركات والاعمال ، ولم يتغير المرء بعد نطقه بهذه الكلمة بل بقي كما كان من قبل ، بلا فرق بينه وبين المنكرين لها من حيث الاعمال والأخلاق يطأطئ رأسه لغير الله كما يطأطئون ويستجدي غير الله كما يستجدون ، ويخاف ما سوى الله كما يفعلون ، ويبغي رضاه

ويشفف به حبا . ثم كان كمثلهم عبداً للهوى ، يجعل القانون الالهي وراء ظهره ويتبع القوانين الوضعية أو يتبع أهواءه . ويكون في أفكاره وآماله، ونياته من سوء والنجس ما يوجد في أفكار غير المؤمن بالله وآماله وتكون أقواله وأفعاله ومعاملاته مثل ما يكون لغير المؤمن . نقول ان كان هذا كله واقماً فلا ندري لعمر الله لماذا يفضل المسلم غير المسلم ؟ وهل المسلم إذا انمدت فيه روح الايمان ، وروح التقوى الا بشر كغير المسلم ؟ فإذا بارى المسلم بعد ذلك غير المسلم كانت المباراة بينهما باعتبار القوة الجسدية والأسباب الهادية . وتغلب الذي هو أقوى بهذا الاعتبار على الذي هو أضعف .

والفرق بين الحالتين واضح على صفحات التاريخ بحيث يدركه الناظر لأول وهلة . ففي الحالة الاولى : قامت قلة من المسلمين فدكروا عروش الحكومات العظام، ونشروا راية الإسلام على ما يمتد من شاطئ نهر (اتك) إلى سواحل الاطلانتك ، وفي الاخرى : هاهم أولاء قد بلغوا آلاف الملايين على صفحة الأرض ، ولكنهم خاضعون لدول الكفر ومن البلاد ما يعمره مئات الملايين منهم ، وقد مضت على وجودهم فيه قرون ، ولكن الكفر والشرك باق فيه إلى هذا اليوم .

شرعة الأبطال ، لاشريعة الضعاف

دين البطولة ، لا دين الفسولة

إن مقالاتي حول مسألة « الربا » قد جعلت بعض الناس يعيدون ويبدئون في إظهار فكرة بعينها هي في كلمات موجزة كما يلي :

« إن زماننا هذا قد سيطر فيه النظام الرأسمالي بالقوة السياسية على الدنيا الاقتصادية كلها التي تحيط بنا اليوم . فعربة الاقتصاد متحركة على عجالات الرأسمالية . والرأسماليون هم الذين يسرونها ، ولا تظل تتقدم نحو الرقي من طريق هذه الرأسمالية إلا تلك الأمم التي لا تنقيد بقيد ديني أو أخلاقي في كسب الثروة وإنفاقها . وبجانب آخر أن قوتنا الاجتماعية متشتتة ، وليس بمقدورنا أن نقيم نظام الاقتصاد الإسلامي من جديد حتى في أمتنا أنفسنا بله أن نبدل نظام الاقتصاد العالمي . ففي هذه الظروف ان جاءت قيودنا الدينية مانعة لنا عن المساهمة التامة في النظام الاقتصادي الرائج في الدنيا اليوم ، فإنه لن يكون من نتيجته إلا أن ستتخلف أمتنا عن الأمم الأخرى في الأخذ بأسباب الرقي الاقتصادي والرفاهية ، وستزداد فقراً وحرماناً على الأيام ، بينما ستزداد الأمم المجاورة غنى وإثراء . وإن تخلفنا الاقتصادي هذا لا بد أن يجر علينا الذل والهوان في ميادين

السياسة والمدنية والأخلاق أيضاً . وليس هذا كله من باب المخاوف والاثو هام فحسب . بل قد تمثلت هذه النتيجة - ولم تزل تتمثل منذ سنوات - أمام أعيننا في دنيا الواقع والعمل . وان المصير الذي نحن منتهون إليه في المستقبل ليست أعراضه من الخفاء والانهاام بحيث لا يبصرها ذو عينين . فلا ندري لذلك ما الفائدة في أن يبين لنا حكم الشريعة في هذه الظروف . وتسرد لنا المبادئ الإسلامية للاقتصاد ؟ إنما الحاجة الآن إلى أن يبين لنا : هل من سبيل هناك إلى تمديد حالتنا الاقتصادية واجتياز منازل الرقي مع التزام القانون الإسلامي ؟ وان لم يكن للأمر من سبيل ، فلا بد أن يكون واحد من اثنين : إما يتلف المسلمون تلفاً ، وإما أن يضطروا كشأن الأمم الأخرى إلى أن يتحرروا من قيود جميع القوانين التي لا تجاري العصر ! .

إن هذه الأزمة ليست مقتصرة على مسألة الربا وحدها ، بل يتسع نطاقها جداً . ولو كانت شعبة الاقتصاد - من بين شعب الحياة كلها - هي وحدها التي قد يسيطر عليها نظام غير إسلامي لكان الأمر أهون بكثير . ولكن الواقع يشهد بغير ذلك . فانظر إلى ما حولك من الدنيا . واستعرض ما أنت نفسك فيه من الظروف ، فاية شعبة من شعب الحياة هي التي لم يسيطر عليها نظام غير إسلامي ؟ العقيدة والفكر والرأي ألم يغلب عليها إلحاد والذهرية ، أو التشكك والارتياب على الأقل ؟ والتعليم ألم يسيطر عليه نظام لا يعرف الوجود إلا آبي ؟ والمدنية والحضارة ألم تستول عليها الطريقة الأفرنجية ؟ وان الحياة الاجتماعية

ألم تنفذ فيها الطريقة الغربية إلى أعماقها ؟ وهل الأخلاق بمنجاة من غلبتها ؟ وهل المعاملات سالمة من نفوذها ؟ وهل ينخلو من تأثيرها : القانون والسياسة والحكومة بما فيها من الأصول والفروع والنظريات والصور العملية ؟ .

وإذا كان هذا هو الواقع فلماذا تقتصر مسؤولك على الاقتصاد وحده، بل على جزء واحد فحسب من أجزائه ؟ وإنما لك أن توسعه وتمده على الحياة كلها فتقول : إن نهر الحياة قد غير مجراه . إنه كان يجري فيما غير في الجهة التي توصل إلى الإسلام ، ولكنه الآن قد عاد يجري في الجهة التي تؤدي إلى غير الإسلام . ولسنا نطبق أن نحول وجهته ، ولا نستطيع أن نعوم ونسعى ضد تياره ، ونجد كذلك الهلكة في الوقوف والجود في مكان بعينه منه ، فدلنا إذن على خطة للعمل نستطيع بها أن نبقى مسلمين بجانب ، ونرسل سفينتنا مع التيار الجاري بجانب آخر ، وإن بقى من قاصدي كعبة الله، ثم لا نهجر القافلة التي هي سائرة إلى تركستان ، وأن نكون غير مسلمين ، في أفكارنا ونظرياتنا وأهدافنا ومبادئ حياتنا ومناهج عملنا ، ثم نكون مسلمين مع ذلك ، وإن لم تقترح علينا صورة للجمع بين هذه النقاوض والاضداد، فإنه سيكون من نتيجة ذلك أحد أمرين : إما أننا سنهلك على شاطئ هذا النهر ، وإما أننا سنمحو اسم الإسلام من واجهة سفينتنا ، وستكون هذه جارية في التيار مع السفن الأخرى .

إن أصحابنا المستنيرين المتجددين إذا تكلموا في مسألة فإنه تكون حجته النهائية التي يزعمونها - عند أنفسهم - أدحض الحجج إن اتجهوا

العصر هو هكذا ، وإن التيار يجري في هذه الجهة ، وإن المعمول به في
 الدنيا اليوم هو هذا ، فكيف لنا أن نخالفه ؟ وإن خالفناه فكيف نستطيع
 أن نحيا ؟ فإن كان الكلام في الأخلاق ، قالوا : إن مقياس هذا العصر
 للأخلاق قد تغير وتبدل ، يريدون بذلك أنه كيف يستمسك المسلمون
 بالمقياس الإسلامي القديم ؟ وإن كان البحث حول الحجاب ، قالوا : إن
 الحجاب قد ألغي في جميع أنحاء العالم ، ومرادهم بذلك أن الطريقة التي
 قد ألفها العالم كيف لا يلغونها المسلمون ؟ وإن كان الموضوع التعليم ،
 كانت حجته الأخيرة في بابه أن التعليم الإسلامي لم يعد نافعا في سوق
 العالم اليوم ، يقصدون بذلك أنه لماذا يخرج أبناء المسلمين من المعاهد
 التعليمية كسلعة متقادمة لا تطلب اليوم في سوق العالم ، ولم لا تكونون
 سلعة هي مطلوبة في كل مكان. وإن كان الخطاب في موضوع الربا ، كان
 فصل الخطاب أنه لا يمكن أن تجري شؤون الدنيا بدونه في هذه الآونة ،
 يعنون بذلك أنه كيف يكون المسلمون أن يتجنبوا الأمر الذي قد أصبح
 لازماً لتدبير شؤون الدنيا . محصل القول أنه أيما شعبة من شعب الحياة ،
 من التمدن والاجتماع والأخلاق والتعليم والاقتصاد والقانون والسياسة
 وغيرها يريد هؤلاء أن يتبعوا فيها الطريقة الأفرنجية بعدول عن طريقة
 الإسلام ، فإنه يكون من حجته النهائية لتبرير فعلتهم هو تجاه العصر ،
 ووجهة التيار ، وسير الزمان ، وتقدم هذه الحجة كالبرهان القاطع على
 جواز ذلك التقليد الغربي ، أو ذلك الارتداد الجزئي في حقيقة الأمر .
 ويظن من الواجب أن يسقط من أجزاء البنيان الإسلامي كل جزء يطمح
 عليه من جهة هذه الحجة .

وإننا نقول : إن مقترحات الهدم والتخريب هذه التي تعرضها متفرقة وعلى حدة ، لم لا تجمعها وتجعل منها جميعاً اقتراحاً واحداً شاملاً ؟ انه لمن إضاعة الوقت ان تقترح هدم كل جدار وكل غرفة وكل بهو من المنزل على حدة وأن تبحث في أمر كل واحد من ذلك على انفراد ، فمالك لا تقترح أن هذا البيت كله يستحق أن يهدم ، لأن لونه مختلف عن لون المعصر ، ووجهته مغايرة لوجهة الريح المصرية ، وشكله يختلف عن الشكل الذي تبنى عليه البيوت في العالم اليوم .

أما الذين يفكرون حقاً هذا التفكير ، فإنه من المبعث أن يناقشهم المرء . وإنما الجواب القطعي الصريح لهم أنه لماذا تكلفون أيها السادة : أن تهدموا هذا البيت وتبنوا مكانه آخر . وإنما لكم أن تنتقلوا من هذا البيت إلى بيت آخر يروقكم ويرضيك من حيث الشكل واللون والوضع . وإن كنتم تحبون أن تجروا مع التيار فلماذا تكلفون أنفسكم بجحوا اسم الإسلام من واجهة السفينة ، وإنما لكم أن تغادروا هذه السفينة وتركبوا واحدة من السفن التي هي جارية مع التيار . إن الذين ليسوا مسلمين في أفكارهم وأخلاقهم واجتماعهم واقتصادهم وتعليمهم وبالجملة في أي ناحية من نواحي حياتهم ، ولا يحبون أن يبقوا مسلمين ، لا نفع للإسلام في بقائهم مسلمين من حيث الاسم ، بل له فيه ضرر أي ضرر . إن القوم لا يعبدون الله ، بل هم عبدة أهوائهم ومتبعو تيار المعصر . فلو أنه راجت في الدنيا اليوم عبادة الأصنام ، لعاد هؤلاء يسجدون للأصنام . ولئن عم العربي في هذا العالم لنزع هؤلاء ثيابهم وعاشوا عراة كالانعام . وإن جاءت الدنيا تأكل النجس والقذر ، قالوا : إن النجس والقذر هو الطهارة .

وأن الطهارة في الحقيقة نجس، إن قلوب القوم وأذهانهم مستعبدة، وكأنها قد خلقت للعبودية. وبما أن الغلبة اليوم للفرنجة يريد هؤلاء أن يتفرونجوا في كل ناحية من نواحي شخصيتهم، من الباطن إلى الظاهر. وإن تكن الغلبة غداً للأحباش ترهم يعودون فيسودون وجوههم ويورمون شفاههم ويجمدون شعرهم تشبهاً بالأحباش، ويقدمون كل شيء يأتيهم من أرض الحبشة. إن أمثال هؤلاء العبيد لا حاجة للإسلام إليهم أبداً. ولعمري الله اثنتي عشرة مائة من هؤلاء المنافقين والمستعبدين من سجل مئات الملايين من أفراد الأمة ولم يبق في العالم سوى عدة آلاف من أوائل المسلمين الذين (يحببهم ويحبونهم) أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم)، كان الإسلام أعز وأقوى بأضعاف مضاعفة مما هو الآن، وكان خروج مئات الملايين هؤلاء منه كخروج القيح والدم الفاسد من جسد عليل.

يقولون: (نخشى أن تصيبنا دائرة)، وليس هذا النداء بمجديد، بل هو قديم ما زالت تهتف به السنة المنافقين. وهذا هو النداء الذي يتم على مرض النفاق الكامن في النفوس. وهذا هو الذي لم يزل المنادون به ينجحون أبداً إلى مسكر أعداء الإسلام، وما زالوا أبداً يعتبرون حدود الله غلا في العنق وقيداً في الأرجل، وما زالوا منذ الأبد يستثقلون اتباع أحكام الله والرسول، ويرون في الطاعة خسارة الأنفس والاموال وفي العصيان النجاح كله في الحياة الدنيا. فلم تبدل شريعة الله لأجلهم فيما سبق ولا من الممكن تبديلها الآن ولا في المستقبل.

فإن هذه الشريعة الإلهية لم تنزل الاقزام الخانمين ، ولا لعبد الأهواء وموالي الدنيا ، ولا لامثال الريشة الطائرة في مهب الريح ، أو أمثال الغناء الجاري مع تيار الماء ولا للحرابئين الذي يتلونون بكل لون من ألوان البيئة . وإنما زلت لأولئك الليوث الأبطال الذين يجدون أنفسهم أقوياء على تغيير مهب الريح ، ومقاومة التيار وتحويل مجراه إلى الجهة الصحيحة والذين يحبون صبغة الله فوق ما سواها وقد عزموا على أن يصبغوا جميع العالم بهذه الصبغة . إن الكائن الذي يقال له « المسلم » لم يخلق للانسياق مع التيار ، وإنما الغاية من وراء خلقه في هذه الدنيا أن يوجه تيار الحياة في الوجهة التي هي وجهة الحق والصواب بحسب إيمانه وعقيدته ، ولئن كان هذا التيار قد غير مجراه من هذه الجهة الصحيحة ، فكاذب في دعوى الاسلام من يرضى بهذا الجرى المتحول عن وجهة الصواب . وإن الذي هو مسلم حقاً وبكل معنى الكلمة لا جرم أن يزاحم سير هذا التيار المنحرف ، ويبذل غاية وسعه في صرف مجراه . ولن يهمله في هذا الجهد نيل الفوز أو حصول الخيبة ، بل أنه سيحتمل ما يناله فيه من الخسارة والضرر ، ولن تنهزم روحه المكافئة حتى وإن انكسرت أعضاؤه من جهد الصراع مع التيار ، وتفككت أوصاله وألقته الأمواج على الشاطئ مهزولاً مفشياً عليه . أنه لن يتسرب إلى نفسه الأسى والأسف على هذه الخيبة الظاهرة . أو الحسد والتلاف على فوز الكفار والمنافقين المتساقين مع التيار .

إن القرآن يا قوم بين أيديكم ، وسير الأنبياء عليهم السلام أمام

أنظاركم ، وأحوال الناهضين بدعوة الاسلام منذ البدء إلى الآن منشورة أمامكم ، فهل تتعلمون من كل ذلك أن تطيروا مع الريح ، وتسيلا في جهة التيار ، وتتلونوا بكل ما يتخذ زمانكم من اللون . ولو كان المقصود هو هذا فلماذا أنزل الكتاب وبعث الانبياء . وانما كانت أمواج الريح كافية لتوجيهكم . وتيار الحياة الدنيا كافياً لارشادكم ، وتقلبات الزمان كافية لتعليم صنعة الحرباء . انه لم ينزل الله تعالى كتاباً من عنده يعلم هذا التعليم المهيّن ولا بعث لاجله نبياً وانما كل ما جاء من عنده سبحانه من رسالة جاء لاجل ان يلقي جميع الطرق الخاطئة التي تسير عليها الدنيا ويقرر مكانها طريقاً قاصداً مستقيماً ، ويمحو كل ما يخالفه من الطرق ويصد الدنيا عنها صدوداً ، ويؤلف جماعة من المؤمنين لا تكتفي بأن تسلك ذلك الصراط المستقيم بل تعمل على جذب الدنيا اليها . وإن الانبياء عليهم السلام ومن اتبعهم جاهدوا أبداً لتحقيق هذا المقصود وقد أودوا في هذا السبيل أصناف الأذى ، واحتملوا أهظ الخسائر وضحوا بأنفسهم ولم يتخذ أحدهم سير الزمان قدوة له ، اما خوفاً من النكبة أو طمعاً في المنفعة . فإن كان هناك من يخشى الخسارة والمشكلة والخطر في اتباع الطريق الذي تهدي إليه الهداية السماوية ، ولخشيتته تلك يريد أن ينتهج طريقاً يبدو له الساترون فيه تاحسين ، مترفين ، أعزة ، فله أن يتخذ ذلك الطريق المرضي عنده ولكن ما بال ذلك الجبان الطماع يخدع نفسه ويخدع الدنيا أيضاً بأنه متبع لكتاب الله وسنة النبي ، مع كونه قد هجرهما ونبذهما وراء ظهره . ان العصيات بذاته جريمة عظيمة . فلا ندري أي نفع يقصد باتباعه جرائم الكذب والغش والنفاق .

أما الظن بأن تيار الحياة لا يمكن أن يحول من المجرى الذي قد
سال فيه ، خطأ من جهة العقل وتشهد بخلافه التجربة والمشاهدة أيضاً .
إنه قد حدثت في هذه الدنيا مئات من الثورات . وكل ثورة منها جاءت
خفوات مجرى هذا التيار . وأبرز الأمثلة لهذه الظاهرة التاريخية تجده في
الإسلام نفسه . فإنه لما بعث النبي ﷺ في هذه الدنيا فماذا - ترى -
كانت وجهة التيار الحياتي عندئذ ؟ ألم يكن الكفر والشرك قد استولى
على العالم كله ؟ وهل لم تكن الفواحش مهيمنة على الاخلاق ، واتباع
الهوى مهيمنين على الاجتماع ، والرأسمالية والاقطاعية المستبدة مهيمنة
على الاقتصاد ، والافراط والعدوان مهيمنين على القانون ؟ ولكنه قام
ذلك الرجل الوحيد فتحدى الدنيا كلها ، ورفض كل تلك الافكار
الخاطئة والطرق المموجة التي كانت رائجة في الدنيا . وعمرس بازائها
عقيدة من عند الله مخصوصة وطريقة معينة ، وفي مدة قليلة من السنين حول
مجري التيار وغير لون الزمان بقوة تبليغه وجهاده .

وأحدث الأمثلة لذلك الحركة الشيوعية . وذلك أنه في القرن التاسع
عشر كانت سيطرة الرأسمالية بلغت منتهاها . ولم يكن يخطر ببال جبان
متقلب مع الريح أن النظام الذي قد تسلط على الدنيا بكل تلك القوة
السياسية والعسكرية الرهيبة يمكن أن يطاح به أبداً . ولكنه في تلك
الظروف نهض رجل يسمى كارل ماركس وراح يبلغ التعليم الشيوعي
فعارضته في ذلك الحكومات ، ونفي عن الوطن وظل شريداً ينتقل من
بلد إلى آخر ، يعاني من النكبة والعسر ما يعاني . ولكنه قبل أن يموت

فبح في إنشاء جماعة دكت عرش القوة الكبرى المهيبة في روسيا في مدة أربعين سنة . ولم تقف عند ذلك ، بل زعزعت قواعد الرأسمالية في جميع العالم ، وعرضت نظرية لها خاصة في الاقتصاد والعمران بقوة جعلتها تنمو وتنتشر ، حتى أن عدد أتباعها لا يزال يزداد إلى هذا اليوم ، وعادت تتأثر بها القوانين حتى في تلك الاقطار التي قد تأصل فيها الحكم الرأسمالي بكل قوته .

على أن الثورة أو الارتقاء لا تحدث إلا بالقوة والبأس . وليست القوة عبارة عن الانصهار ، بل هي صهر الغير في القالب المراد ، وليست القوة هي الانفعال بل هي الفعل في الآخر على الوجه المطلوب . ولم يقم الجبناء المالمون بثورة في الدنيا قط . وإن الذين لا يكون لهم مبدأ خاص ولا غاية حياة ولا مطمح أبصار ، والذين لا يقوون على البذل في سبيل المقصد الأعلى ، ولا يتشجعون على مقاومة الاخطار والمشكلات ، والذين لا يطلبون في هذه الدنيا إلا الراحة والسهولة والرغد ، وهم ينسكبون لذلك في كل قالب ويطاوعون لكل ضغط ، لا تجدد لهم فعلا يذكر في التاريخ الانساني . وإنما تشكيل التاريخ يكون من شأن الابطال وخدمهم . وهم الذين قد غيروا أبداً مجرى الحياة بمجهادهم وتضحياتهم ، ربدلوا أفكار العالم ، وأحدثوا الثورة في أساليب العمل ، وبدل أن يصطبغوا بصبغة العصر قد صبغوا العصر بصبغتهم أنفسهم .

لذلك لا تقولوا إنه لا يمكن أن تحول الدنيا عن الدرب الذي هي سائرة فيه وأنه لا بد من اتباع سيرة الزمن . بل يجب عليكم بدل أن

تدعوا دعوى الاضطرار الكاذبة أن تعترفوا بضعفكم اعترافاً أميناً . وإذا اعترفتم بذلك كان عليكم أن تقرروا أيضاً بأن الضعيف لا يمكن أن يكون له دين في هذه الدنيا أو مبدأ أو ضابطة . وإغما هو مضطر أن يخضع لكل قوي ويستكين لكل قاهر . وليس من شأنه لذلك أن يتقيد بمبدأ من مبادئه أو بضابطة من ضوابط القانون . واثمن راح دين من الاديان يبدل مبادئه لاجل هذا المتذبذب المترنح فإنه لن يبقى ديناً أبداً .

وأيضاً من الخداع الذي تتخذون به أن قيود الدين الاسلامي عاتقة لكم دون الرفاهية والتقدم . فقولوا بالله أي قيد من قيوده تلتزمون به في هذه الآونة ؟ وأي قيد من قيوده لم تكسروه ولم تغفلوا منه ؟ وأي حد من حدوده لم تتجاوزوه ؟ وأي شيء من الاشياء التي قد جرت عليكم الهلاك فعلا أباحه لكم الاسلام ؟ إن الذي يهلككم هو اسرافكم وتبذيركم الذي ينزع الملايين من الجنهات سنويا من جيوبكم بصورة الربا وينقلها إلى كنوز الصيرفيين المحتكرين ، ومن جراء هذا الاسراف لا تزال تخرج من أيديكم أملاك ذات مثات الملايين من الجنهات . فهل كان الاسلام أباح لكم هذا الاسراف ؟ وإن الذي يهلككم هو عاداتكم السيئة فلا تزال دور السينما والمسرح واللهو واللعب توجد غاصة كل مساء بأفراد أمتكم على رغم هذا الفقر والعسر . وكل واحد من أفرادكم ينفق فوق وسعه على اللباس وأدوات الزخرفة والتزين . وتذهب ملايين الجنهات من جيوبكم سدى كل شهر في القيام بالتقاليد الزائفة وأعمال النظاهر والرياء واشغال الجاهلية . فأأي شيء من هذا كان أحله لكم الاسلام ؟ والداهية الكبرى التي قد أوقعتكم في المهلكة هي إلغاؤكم نظام الزكاة وإهمالكم التعاون فيما بينكم . وهل لم يكن

الاسلام قد فرض عليكم ذلك ؟ . . . فالحقيقة الواقعة أن انحلال حياتكم الاقتصادية ليس نتيجة التزامكم لقيود الاسلام ، بل هو نتيجة انفلاتكم منها . وأما التقيد في أمر الربا خاصة فأين يوجد اليوم في مجتمعكم ؟ إن ٩٥ في المائة على الأقل من أفراد أمتكم المسلمة يقترضون الأموال على الربا بدون اضطرار حقيقي . هذا هو التقيد بأحكام الإسلام ! ومن المسلمين المثرين أيضاً فئة كبيرة تأكل الربا في صورة من صورهِ . وإن كانوا لم يتخذوا الصيرفة والاحتكار مهنة لهم على الوجه المعتاد فأى فريق يقع بذلك . إن أكثرهم لا شك يأكلون الربا المشمول بمعاملات البنوك والتأمين والمعقود المالية الرسمية والاعتماد التوفيري (Provident Fund) فأين هناك التقيد بجرمة الربا ، الذي يهتمونه بكونه سبباً في انحطاطكم الاقتصادي ؟ !

ومن طريف الاستدلال أن شرف المسلمين وكرامتهم وشوكتهم القومية متوقفة تماماً على الغنى المالي والغنى المالي يتوقف على الأخذ بأسباب الرفاهية والرقى الاقتصادي ، ومدار كل هذا على جواز الربا . ويبدو أن القوم لم يعلوا إلى الآن أنه أي شيء يتوقف عليه في الحقيقة الشرف القومي والقوة والعزة . إن الثروة وحدها ليست الأمر الذي يضمن لأمة من الأمم القوة والعزة والشرف . ولئن أصبح كل فرد من أفرادكم يملك الملايين من الجنيهات ولم تكن فيكم قوة السيرة والخلق ، فنقوا بأنكم لن تكونوا على شيء من الكرامة والشرف في العالم . وإن كانت فيكم - بخلاف ذلك - السيرة الإسلامية ، وكنتم أهل صدق وأمانة، نزهاء في الطمع والخوف،

راسخين في مبادئكم وأمناء في معاملاتكم ، تظنون الحق حقاً والواجب واجباً وتراعون الفرق بين الحلال والحرام في كل حال ، وكانت فيكم من القوة الأخلاقية أن لا تعدلوا عن سبيل الحق طمعاً في ربح أو خوفاً من نقصان ، ولا يكون من الممكن اشتراء ايمانكم بأية قيمة مهما غلت ، إن كان فيكم كل هذا وقعت مهابتكم في قلوب الامم ورسخ عزكم في نفوس العالم وكان كلامكم أرجح وأوزن من كل ما يملك أصحاب الملايين من الثروة وكنتم مع كونكم ساكني الأكواخ ولا بسي الخرق والرقاع أكرم عند الشعوب من أهل الدور والقصور ، وتنبأت لأمتكم من القوة والصولة ما لا يمكن أن يغلب أبداً . رأيتم ما كان أفقر المسلمين في عهد أصحاب النبي ! كانوا يعيشون في الأكواخ وفي خيام من الوبر ، لا يعرفون زخرفة المدنية وزهوها ، لا يتأنقون في الملبس ولا في المأكل ولا في الأسلحة ولا في المراكب . ولكنه كان لهم - رغم هذا كله - من المهابة والرعب في قلوب العالم ما لم يتهياً لهذه الأمة لا في العهد الأموي ولا في العهد العباسي ولا في أي عهد بعد ذلك . لأنهم لم يكونوا يملكون المال . ولكنهم يملكون قوة السيرة والخلق ، التي أذعن لمظمتها وكرامتها العالم كله . وأما الذين خلفوهم بعد فلا شك اجتمعت في أيديهم الاموال ، وامتدت حكومتهم في الارص وتنبأت عندهم زخرفة المدنية ولأؤلؤها ، ولكنه لم يعوضهم شيء من هذا كله من وهن السيرة والخلق الذي أصيبوا به .

إنكم قد نسيتم عبرة التاريخ الاسلامي . نخذوا الآن تاريخ أية أمة من أمم العالم وانظروا فيه ، لن تجدوا مثلاً واحداً لأمة نالت القوة والعزة

من طريق التساهل والاستراحة وإيثار المنفعة . ولن تجدوا بمكان الرفعة
والزأمة لا تقيد بمبدأ أو ضابطة، ولا تتحمل ضيقاً أو عسراً أو مشقة
لأجل غاية سامية ، ولا تكون مستعدة لبذل أهوائها ، بل لبذل أنفسها
ذاتها في سبيل مقاصدها وأهدافها . فهذا التقيد باقيود والتزام الضوابط
وبذل الراحة والرفاهية والمنفعة في سبيل المقاصد العليا مستجدونه عند
جميع الأمم في لون من الألوان . فلونه في الإسلام معلوم ، ولونه عند
الأمم الراقية الأخرى مختلف عنه، وعلى ذلك فإن هجرتم الإسلام ودخلتم
في نظام مدني آخر، فلا بد أن تضطروا هنالك أيضاً أن تتقيدوا بضابطة
من الضوابط ، وتحملوا وطأة تأديب وتنظيم ، إن لم يكن بهذا اللون
الإسلامي فبلون آخر . ولا بد أن تشدوا في ملزمة المبادئ المخصوصة،
وتطالبوا بالتضحية لأجل مقصود ما أو مبدأ من المبادئ. ولئن لم تكونوا
متجلبدين لهذا كله ، وكنتم راغبين في مجرد السهولة والسعة والحلاوة
لا تطيقون شيئاً من الشدة أو الماراة . فاذهبوا حيثما شئتم منفصلين من
قيود الإسلام ، لن تنالوا مكان العز والرفعة في العالم ، ولن تجدوا
كنوز القوة والشوكة في الأرض! وقد بين القرآن الكريم هذه القاعدة
الكلية في كلمات أربع . وتلك الكلمات الأربع قد شهد بصدقها تاريخ
العالم كله . قال الله عز وجل : (إن مع العسر يسراً) . فالذي لا يطيق
العسر ولا يصبر على المشقة ليس له أن يتمتع بيسر !



الخطة التعليمية الجديدة لمسلمي الهند - ومنهج العمل بها

[هذا محضر قدم جواباً للاسئلة التي وجهتها لجنة إصلاح برنامج تدريس الالهيات ، التابعة لجامعة عليكر في الهند . ومع أن الخطاب فيه على الظاهر هو جامعة عليكر ، ولكن الخطاب به في الحقيقة لجميع المؤسسات التعليمية للمسلمين . إن الخطة التعليمية التي قد بينت في هذا المحضر نظن اختيارها للمسلمين أمراً لا بد منه . إن جميع معاهدهم التعليمية ، سواء أكانت جامعة عليكر ، أم مدرسة ديوبند ، أم دار العلوم التابعة لندوة العلماء أم الجامعة المليية ، قد أمست مناهجها التعليمية عتيقة بالية لا تجيب مطالب العصر . فإن لم تراجعها وتمدها كل هذه المؤسسات . فقدت منفعتها تماماً] .



إن مجلس جامعة عليكر لجدير بموفور الشكر من قبل جميع مسلمي الهند على أنه صرف عنايته أخيراً إلى المقصد الأسامي لمؤسسته ، وهو بعث الروح الاسلامية الحقيقة في نفوس الطلبة ، ولأجل تحقيقه عين لجنتم هذه . وقد نظرت بامعان فيما تسلمت من الاوراق من مكتب الجامعة ، وأعتقد أنه إذا كان الكلام في المنهج المتبع الآن لتعليم العلوم

الدينية والالهيات . فلا شك أبداً في كونه غير مطمأن اليه . فالبرنامج الذي لا يزال يدرس في الجامعة لهذه العلوم ناقص من غير شك ، ولكن الأسئلة التي وجهها أعضاء اللجنة الافاضل ، يدل النظر فيها على أن اللجنة تعالج في الوقت الحاضر مسألة تعديل البرنامج وحدها . ولعله يظن انه بإخراج كتب معدودة من البرنامج وإدخال كتب أخرى مكانها فيه يمكن أن تبعث في الطلبة الروح الاسلامية المنشودة . وإن صح قياس في الامر فاني أقول : إنه تقدير ناقص جداً لصورة الواقع الحقيقي . ومن الواجب علينا في الحقيقة أن نتمقق المسألة وننظر ما هو السبب في عدم نشأة الروح الاسلامية الحقيقية ، في الطلبة على رغم ما هم يعلمون الآن من تعليم القرآن والحديث والفقه والمقائد . إن كان ذلك السبب هو مجرد نقص البرنامج الحالي لهذه العلوم ، فإن تدارك هذا النقص لا شك سيكون لازالة ذاك الفساد . ولكنه إن كانت أسباب ذلك أوسع وأعمق ، وإن كان هناك في خطتكم التعليمية بكاملها فساد جذري ، فلن يكفي تعديل برنامج العلوم الالهية لإصلاح الحالة الحاضرة . بل ستضطرون لذلك إلى أن توسعوا دائرة الإصلاح والترميم ، مهما كلفكم ذلك من المتاعب ومهما لاقيتم فيه من الصعاب . وقد فكرت في المسألة من هذه الناحية . واذكر فيما يلي - بما يمكنني من الإيجاز - النتائج التي قد وصلت اليها نتيجة هذا التفكير . وسيكون تقريري هذا على أقسام ثلاثة : ففي القسم الاول سنتقّد الخطّة التعليمية الحاضرة للجامعة وتبرز مفاصلها الجوهرية ، ويبين ماذا يجب أن يكون من خطتنا التعليمية التي تضمن مصالح

الامة الحقيقية . وفي القسم الثاني مستعرض المقترحات الاصلاحية .
وفي الثالث الأخير سيكون الكلام في التدابير اللازمة للعمل
بتلك المقترحات .

١

إن منهج التعليم الذي هو معمول به الآن في الجامعة يشتمل على
خليط من التعليم المصري والتعليم الاسلامي لا التحام فيه ولا انسجام .
وانما أخذوا عنصريين تعليميين متعارضين لاصلة بينهما فحشدوها في منهج
تعليمي واحد ، ولم يمالجوها علاجاً يصلحان به لأن يتحولوا إلى قوة
علمية مركبة فيخدا ثقافة بعينها من الاثنين . ومن النتيجة انه مع هذا
الاجتماع والاقتران يبقى العنصران منفصلين بعضهما عن بعض ، بل هما
يتعارضان ويتنازعان ذهن الطالب إلى جهتين متعاكستين . وإن ننظر في
الامر حتى من وجهة النظر التعليمية الخالصة ، باعراض عن وجهة النظر
الاسلامية ، فلا بد أن نرى أنه من الخطأ أصلاً أن يختلط في التعليم مثل
هذه العناصر المتعارضة المتناقضة ، وانه لا يمكن أن تأتي هذه الخلطة
بنتيجة مفيدة .

وأما من وجهة نظر الاسلام فقد أصبح هذا الاختلاط أضمر للقبح
والسوء لانه أولاً لا يجوز الاختلاط في عناصر التعليم . ومن الآفة بعد
ذلك ان هذا الاختلاط لا ترعى فيه السوية بين العنصرين ، بل العنصر
الغربي فيه أقوى ، والعنصر الاسلامي بازائه أضعف . والذي يتمتع به
العنصر الغربي من أسباب الرجحان هو - أولاً - انه عنصر عصري ،

توجد من ورائه قوة اتجـاه العصر وقوة مدنية حاكمة عالمية ، وثانياً
قد أدخل هذا العنصر في تعليمنا الجامعي بذلك الامتياز وتلك القوة التي
هي حاصلة له فعلاً ولا بد أن تحصل له - في الجامعات المصرية التي
أنشئت لخدمة الثقافة الغربية ، فالعلوم والفنون الغربية تدرس عندنا
على نحو ترسم به مبادئها ونظرياتها على الألواح الصافية الساذجة من قلوب
النشء المسلم كحقائق إيمانية لا ترد ، وتنصاغ عقليتهم كلها في القالب
الغربي ، بحيث يعودون ينظرون بعين الغرب ويفكرون بذهن الغرب .
وبغلبهم الاعتقاد بأنه إن كان في هذا العالم شيء مقبول محترم فهو الذي
يطابق مبادئ الحكمة الغربية وأصولها وهذا التأثير والانفعال تقويه بعد
ذلك تلك التربية التي يجري العمل عليها في جامعاتنا فعلاً إذ ليس هناك
شيء من اللباس والمعدات والحركة والاجتماع والأدب والتكلم والاهو
واللعب يتخلص من غلبة الحضارة والتمدن الغربي والميول والنوازع
الغربية . وإن البيئة الجامعية إن لم تكن غربية بكاملها فإنها لا شك غربية
بقدر ٩٥ بالمائة . والذي يكون - أو يمكن أن يكون - لهذه البيئة من
تأثير ونفوذ لا يخفى على عاقل واع . وأما العنصر الاسلامي بخلافه فإنه
ضئيل جداً . وإنه أولاً قد ضعف وتضاءل بنفسه بما قد ضاع عنه من
القوة المدنية والسياسية ، ثم إن الكتب التي يدرس فيها هذا العنصر قد
كانت كتبت قبل زماننا هذا ببضعة قرون . فليس أسلوبها ولا تأليفها
وتدوينها مما يروق الذهن المصري . ثم إن الأوضاع والمسائل العملية التي
تبحث فيها تلك الكتب وتطبق مبادئ الاسلام الابدية عليها لا تواجه

أكثرها اليوم . وأما المسائل التي نواجهها اليوم فلم يكن أحد بتطبيق تلك المبادئ عليها . هذا وليس من وراء هذا التعليم الاسلامي نظام تربوي أو بيئة عصرية أو سلوك عملي مما يجعل اختلاطه بالتعليم الغربي شيئاً فاقد التأثير . ومن النتيجة الطبيعية لمثل هذا الاختلاط غير المتساوي ان يستحوذ العنصر الغربي كاملاً على أذهان الطلبة وقلوبهم ، ويعود العنصر الاسلامي عندهم أضحوكة ، أو يبقى لديهم - على الأكثر - شيئاً محترماً لكونه من باقيات ما ضينا القديم .

واني أستمعكم العفو على صراحتي هذه . ولكن الذي أشاهده أظن ان من واجبي ان أبينه لكم بلا نقص أو شطط ، إن التعليم المدني والديني في هذه الجامعة المسلمة مثله من حيث المجموع عندي كمثله رجل تنشئونه غير مسلم من أعلاه إلى أسفله ، ثم تجملون في إبطه حزمة من كتب الالهيات ، لكي لا تهملوا بجعلكم إياه غير مسلم . وإن جاء ذلك الرجل فطرح تلك الحزمة من يده طرْحاً - مما سيكون سببه تعليمكم هذا ولا بد - فأنتم ترون ان المألوم على فعلته هو نفسه لا أنتم . وإذا كنتم ترجون من هذا المنهج التعليمي انه سيخرج الطلبة مسلمين صادقين فممنه أنكم تتوقعون حدوث المعجزة والخارق . ذلك بأن الاسباب التي قد هيأتوها لا يمكن أن تكون نتيجتها كما ترجون بحسب القانون الطبيعي . وليس من الحجة بقاء واحد أو اثنين أو أربعة في كل مائة من طلبة الجامعة مسلماً - أي مسلماً كاملاً من حيث العقيدة والعمل كلاهما - لأنه لا يرجع الفضل في ذلك إلى حسن تربية جامعتكم ، انما هو برهان على أن

الذي قد اجتاز تربيتكم تلك محتفظاً بإيمانه وإسلامه كان ولد في الحقيقة على الفطرة الإبراهيمية الحنيفية. وأمثال هؤلاء الأفراد الاستثنائيين كما تكثر عليهم في خريجي جامعة عليكر تكثر عليهم كذلك في خريجي الجامعات الرسمية الوطنية ، بل الجامعات الأوربية أيضاً التي ليس في برامجها عنصر إسلامي البتة .

فإن أنتم أقيمتم الآن على هذه الأوضاع وهذا المنهج التعليمي كما هو ، وأبدتم بالبرنامج الموجود لتدريس علوم الالهيات برنامجاً آخر أقوى من هذا تدخلونه في هذا التعليم ، فلن يكون من نتيجته إلا أن يزداد الصراع بين الطريقة الإسلامية والطريقة الفرنجية شدة ، ويصبح ذهن كل طالب ميدان النضال الذي ستتحارب فيه القوتان بكل صولة وبأس وستكون خاتمة المطاف ان ينقسم طلبتكم إلى فئات ثلاث :

أولاً أولئك الذين ستغلب عليهم الطريقة الفرنجية ، سواء أكانت في صورة تقليد الانكليز أم في صورة الايمان بالوطنية الهندية أم في صورة الجنوح إلى الشيوعية الإلحادية .

والثانية أولئك الذين ستغلب عليهم الطريقة الإسلامية ، سواء أكان لونها براقاً صافياً أم طامساً ضئيلاً بفعل الطريقة الفرنجية .
والثالثة الاخيرة : أولئك الذين لا يكونون مسلمين كاملين ولا أفرنجيين كاملين .

والظاهر أن هذه النتيجة للتعليم ليست مما يرضي ويسر . فلا من وجهة نظر التعليم الخالصة يمكن أن يعد هذا الجمع بين النقيضين مفيداً ، ولا من وجهة النظر القومية يمكن أن تبرر وجودها جامعة يكون الثلثان أو

الجانب الأكبر من نتائجها مخالفاً للمصلحة القومية ومترادفاً للضرر الكامل بالحضارة القومية . ومن الصفة الخاسرة للامة المسلمة الفقيرة على الأقل أن تنفق ملايين من الاموال كل سنة للابقاء على دار ضرب تخرج ٣٣ في المائة من نقودها زائفة أبداً ، وتصنع ٣٣ في المائة على نفقتنا ليرمى بها في حجر غيرنا بل لتستعمل ضدنا .

ومن كل ما ذكرناه آنفاً يتضح أمران تمام الوضوح :

أولهما إن اختلاط العناصر المتعارضة في نظام تعليمي واحد خطأ مبدئي . والآخر أن هذا الاختلاط لا يكون مفيداً لمصلحة الاسلام أيضاً ، سواء أكان هذا الاختلاط غير متساوٍ كالذي كان منه إلى اليوم ، أم يساوي فيه بين العناصر المتزجة كما يراد الآن .

وبعد هذا الايضاح أريد أن أبين : ماذا يجب أن يكون الآن من الخطة التعليمية للجامعة عليكم فيما أرى .

المعلوم أن كل جامعة من الجوامع تكون خادمة لثقافة بعينها . أما التعليم المحرد الذي لا يكون له لون ولا شكل فلم يلق قط في جامعة في الأرض ، ولا هو يلقى اليوم . وإنما يكون تعليم كل معهد ذا لون خاص وذا شكل بعينه . وينتخب ذلك اللون وهذا الشكل بعد ايمان وتفكير عميق مراعاة لتلك الثقافة المخصوصة التي قد أنشئ المعهد لخدمتها . فالآن أقول متسائلاً : ماهي الثقافة التي أنشأتم جامعتكم لخدمتها ؟ فإن كانت تلك الثقافة غربية فلا تدعو جامعتكم « مسلمة » ولا تمرضوا الطلبة لنزاع ذهني داخلي ، بادخال برنامج لتدريس الالهيات فيها . وإن كانت تلك الثقافة ثقافة

اسلامية فلا بد انكم أن تبدلوا هيئة جامعتكم كلها وان تصوغوا صيغتها التركيبية على غلط يلاثم روح تلك الثقافة ومزاجها من حيث المجموع حتى تعود الجامعة وهي ليست محتفظة بتلك الثقافة فحسب ، بل هي قوة رصينة لدفعها إلى الامام !

إن جامعتكم - كما أثبتناه آنفاً - هي في حالتها الراهنة خادمة للثقافة الغربية . فإن اكتفيت من تغيير هذه الحالة بان تبدلوا برنامج الالهيات وتجعلوه أقوى مما كان إلى الآن ، مع بقاء الطريقة الغربية للتعليم مسيطرة على مسار شعب التعليم والتربية ، فانه لا يمكن أن يعود به هذا المعهد خادماً للثقافة الاسلامية . وإنك إن أعمنت في حقيقة الاسلام تبينت بنفسك ان التفرقة بين التعليم والتربية المدنية والتعليم والتربية الدينية وخطاها بعد ذلك مع إبقاء كل منها على كيانه المستقل أمر عقيم لا فائدة فيه . لان الاسلام ليس كالنصرانية ديانة تفرق بين دنيا المرء ودينه ، وهو لا يحصر نطاقه على العقيدة والتعاليم الاخلاقية فحسب ، تاركاً شؤون الدنيا لاهلها . فلا يمكن لذلك فصل الالهيات الاسلامية - كالهيات النصرانية - عن العلوم الدنيوية . وانما غاية الاسلام الحقيقية هي أن يعد الانسان لان يعيش هذه الحياة الدنيا ويقوم بشؤونها على طريقة هي طريقة الخير والسلام والغلبة والعز ، من لدن هذه الحياة إلى الحياة الاخرى . ولهذا الغرض يصحح الاسلام زاوية فكره ونظره ويصلح أخلاقه ويصهر سيرته في قالب مخصوص ، ويعين له الحقوق والواجبات ويضع له نظاماً خاصاً للحياة الاجتماعية . ثم إن له ضوابط مستقلة متباينة لتربية الافراد النظرية والعملية ، وتشكيل المجتمع وتنظيمه ،

وترتيب جميع شعب الحياة وتنسيقها، بها وحدها تتخذ الحضارة الاسلامية صورة حضارة مستقلة ممتازة ، وعلى اتباعها والتزامها يتوقف بقاء الامة المسلمة من حيث هي امة . فاذا كانت الحال كما ذكرنا فانه يعود مصطلح «الالهيات الاسلامية» بلا معنى ان لم يبق على ارتباط وثيق بالحياة وشؤونها . وانه ان نكدر قليل النفع للثقافة الاسلامية ذلك العالم الديني الذي يعرف عقائد الاسلام وأصوله ولكنه لا يعرف كيف يتقدم بها في مضمار العلم والعمل وكيف يستعملها في أحوال الحياة ومسائلها المتغيرة على الدوام . وكذلك لا حاجة لهذه الثقافة إلى عالم للعلوم المدنية يؤمن بصدق الاسلام في قلبه ولا ريب ولكنه يفكر بذهنه بطريقة غير اسلامية وينظر إلى الشؤون بنظرة غير اسلامية ويشكل الحياة على مبادئ غير اسلامية . والسبب الحقيقي لزوال الحضارة الاسلامية وتبدد نظام التمدن الاسلامي هو انه لم يزل ينشأ في أمتنا منذ زمان علماء من هذين النمطين الاثنين فحسب . وقد انقطع ما بين العلم الديني والعلم والعمل الدنيوي . فان كنتم تريدون أن تستعيد الثقافة الاسلامية شبابها وقوتها ، وبدل أن تمشي خلف الزمان تتقدم فتسير قدامه ، فعليكم أن تعيدوا هذا السبب المنقطع بين الدين والدنيا . ولكنه ليس وجهه الصحيح أن تجعلوا برنامج الالهيات غلا في عنق الجسم التعليمي أو عبثاً محمولا عليه . كلا بل يجب أن تدخلوه في كامل نظام التعليم والتربية بصورة تجعله منه كالدم الجاري والروح الحية النابضة ، والبصيرة والسمع ، والحس والادراك ، والفكر والشعور ، وتأخذ كل ما في العلوم والفنون الغربية من الاجزاء الصالحة

فتدجها في نظام التعليم الاسلامي وتجعلها جزءاً لحضارة الاسلام . هكذا سيكون لكم أن تخرجوا الفلاسفة المسلمين ، وعلماء الفيزياء والكيمياء المسلمين ، ومهرة الاقتصاد المسلمين ، والمقننين المسلمين والمفكرين المسلمين ورجال الاختصاص المسلمين في كل علم وفن ، الذين سيحلون مسائل الحياة من زاوية النظر الاسلامية ويستعملون ما للحضارة المصرية من الوسائل والاسباب الراقية لخدمة الحضارة الاسلامية ، وسيرتبون من جديد أفكار الاسلام ونظرياته وقوانين حياته مراعاة لروح العصر الجديد . . . إلى أن سيحتل الاسلام مرة أخرى مكان القيادة والامامة في كل مجال من مجالات العلم والعمل ، ذلك المكان السامي الذي بحث لأجله في الحقيقة في هذه الدنيا .

هذه هي الفكرة التي يجب أن تكون الفكرة الاساسية للخطة التعليمية الجديدة للمسلمين . ان الزمان قد تقدم كثيراً عن المقام الذي تركنا عليه السير سيد أحمد خان . فان جمدنا على تلك الحالة لمدة زائدة استعصى علينا أن نبقى ونعيش كأمة مسلمة ، دع عنك أن نرقى ونتطور !

٢

وأريد أن أبين الآن أن الهيكل العظيم الذي قد اقترحت له للخطة التعليمية آنفاً كيف يكسب لباس الصورة والشكل :

١ - إنه لمن اللازم أن تقتلع جذور « الطريقة الافرنجية » من حدود

الجامعة المسلمة . واثن كنا لانريد أن تقتل حضارتنا القومية بأيدينا فقم علينا أن نمنع في أجيالنا الناشئة هذه الميول الافرنجية المتزايدة مع الأيام . هذه الميول هي في الحقيقة وليدة العقلية المستعبدة ومركب النقص الكامن في النفوس . ثم انها حينما تظهر مظهر أعملياً في اللباس والاجتماع والآداب والعادات وفي البيئة كلها من حيث المجموع ، فإنها تحيط بالنفوس وتستحوذ عليها من الجهتين : الداخلية والخارجية ، ولا تدع فيها ولو مسكة من الشعور بالعز القومي . ففي مثل هذه الظروف لا يمكن البتة ان تحيا الحضارة الاسلامية ، وان حضارة من الحضارات لا تنشأ عن مجرد الوجود الذهني والنظري لتصوراتها الأساسية بل تنشأ عن السلوك العملي التابع لها ، وبه تنمو وتزكو . واثن انعدم هذا السلوك العملي ماتت الحضارة موثطبيعياً ، ولم يمكن أن يبقى وجودها النظري إلى بعيد لذلك إن أول مايجب من الاصلاح وأهمه هو أن تخلق في الجامعة بيئة اسلامية حية . ويجب أن تكون تربيتكم على أسلوب يعلم الاجيال الناشئة أن يفتخروا بحضارتهم القومية ويث فيهم الاحترام لخصائصهم القومية ، بل الفرام بها ، ويبحث فيهم روح الخلق الاسلامي والسيرة الاسلامية ، ويؤهلهم لان يتقدموا بتمدنهم القومي إلى معارج التهذب العالية بفضل علمهم وكفاءتهم الذهنية المدربة .

٢ - وان بحث الروح الاسلامية في الطلبة يتوقف - إلى حد بعيد - على المعلمين وعلى علمهم وعملهم . فالمعلمون الذين خلوا بأنفسهم من هذه الروح بل كانوا معاندين لها من حيث العلم والعمل كلاهما ، فاني يمكن أن تنبعث الروح الاسلامية في المتعلمين تحت نفوذهم وتأثيرهم ! وأنتم

قصارا كم أن تخططوا البناء وتضعوا له الرسم ، ولكن البنائين الذين يرفعون
فعلا قواعد هذا البناء هم أعضاء أسر تكمل التعليمية ، لا أتم . وإن الرجاء
من البنائين « الافرنجيين » ان يبنوا البناء من الهيئة الاسلامية كالرجاء من
شجيرة الحنظل ان تنتج عنقوداً من العنب . لذلك لن يجدي أبداً أن
تعيينوا عدداً من « رجال الدين » لتعليم العلوم الالهية على حين أن يكون
القائمون بتعليم سائر العلوم أو أكثرها هم غير المسلمين أو المسلمون
المنحرفون في فكرهم عن الاسلام ، لأن هؤلاء سيمعدلون بتصورات
الطلبة ونظرياتهم في الحياة ومسائلها وشؤونها عن المركز الاسلامي ولن
يمكن علاج هذا السم بترياق برنامج الالهيات فحسب ، ومهما كان من الفن
الذي يراد تعليمه سواء هو الفلسفة أو هو العلم التجريبي (Science) أو
علم الاقتصاد أو القانون أو التاريخ ، فإنه لا يكفي لتعليمه وتدريبه
أن يكون المعلم متخصصاً فيه ، بل من اللازم كذلك أن يكون مسلماً
صادقاً راسخاً في عقيدته . وإن اضطررتم في بعض الظروف
المخصوصة إلى أن تنتدبوا لتعليم فن من الفنون أخصائياً من غير المسلمين ،
فلا حرج عليكم فيه ، ولكنه يجب أن تكون القاعدة العامة المراعاة في
هذا الامر هي أن يكون أساتذة هذه الجامعة بجانب كونهم ماهرين في
فنونهم فاعين لمقصد الجامعة الاساسي - أي الثقافة الاسلامية - من حيث
أفكارهم وأعمالهم جميعاً .

٣ - ويجب أن تدخل اللغة العربية في تعليم الجامعة كلفة ضرورية .
فهذه لغة ثقافتنا والذريعة الوحيدة للوصول إلى مآخذ الاسلام الرئيسية .

وما دامت الطبقة المتعلمة من المسلمين لا تصل إلى القرآن والسنة مباشرة بدون واسطة فإنها لن تجد روح الاسلام ، ولن تكتسب البصيرة في الدين ، بل ستبقى محتاجة أبداً إلى الشارحين والمترجمين . ومن ثم لن يصل إليها ضياء الشمس من الشمس مباشرة ، بل يصل إليها بواسطة الزجاجات الملونة من أنواع مختلفة . وهؤلاء رجالنا المثقفون الجدد يرتكبون اليوم في المسائل الاسلامية من فاحش الأخطاء ما يدل على أنهم لا يعرفون حتى ألف باء الاسلام . وليس السبب في ذلك الا كونهم لا يملكون وسيلة للاستفادة من القرآن والسنة مباشرة . واذا منحت المجالس التشريعية الهندية صلاحيات التشريع الواسعة أيام الحـكم الذاتي المفوض الى المقاطعات (Provincial Autonomy) في المستقبل ، وجرى العمل على وضع القوانين الجديدة للاصلاح الاجتماعي ، فإن ممثل المسلمين في تلك المجالس آتئذ رجال هم أجانب عن الاسلام ويؤمنون بالتصورات الغربية للاخلاق والاجتماع والقانون ، فلن يعود التشريع الجديد على المسلمين بإصلاح اجتماعي بل بإفساد اجتماعي ، وسيروح النظام الاجتماعي للمسلمين يزداد بعداً عن المبادئ التي أقيم عليها ، ولأجل هذا كله يجب ألا تظنوا مسألة اللغة العربية مسألة لغة عادية بل تفهموا أن هذه المسألة منوطة بمقصد جامعتكم الاساسي . وكل ما كان منوطاً بالأصل والاساس (Fundamentals) فلا تراعى في أمره السهولة ولا تنتظر له موافاة الفرص ، بل يفسح له المجال في كل حال .

٤ - إن تعليم المدارس الثانوية (High Schools) يجب ان يلقن الأولاد فيها معلومات بدائية في المواد الآتية :

١ - العقائد : هذه المادة يجب ألا تشمل على التفاصيل الكلامية الجافة للعقائد . بل ينبغي أن يتخذ أسلوب لطيف جداً لتثبيت التعاليم الاعتقادية في أذهان الطلبة ، أسلوب يرضي الوجدان الطبيعي ويقنع العقل . ويعرف الطلبة أن التعاليم الاعتقادية التي جاء بها الإسلام هي في نفس الأمر حقائق هذا الكون الأساسية ، وهي ذات صلة عميقة بحياتنا .

ب - الأخلاق الإسلامية : لا يعرض في هذه المادة مجرد التصورات الأخلاقية ، بل تجمع للطلبة فيها أحداث ووقائع من حياة النبي ﷺ وسير الأنبياء عليهم السلام والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم تملهم ما هي خصائص سيرة المسلم ، وكيف تكون حياة فرد إسلامي .

ج - أحكام الفقه : تذكر في هذه المادة أحكام الإسلام البدائية الضرورية فيما يتعلق بحقوق الله وحقوق العباد والسيرة الشخصية وما لا بد لكل مسلم أن يعرفه . ولكن لا تكون فيها المسائل الجزئية من غط ما جاء في كتبنا الفقهية القديمة كممدد الدلاء التي يلزم إخراجها لتطهير بثرة وقعت فيها الفأرة . بل يجب ، بدل هذه المسائل ، أن يلقي الطلبة مغزى العبادات والأحكام وروحها ومصلحتها ، ويجب أن يلمحوا أن الإسلام يضع لهم برنامجاً لحياتهم الفردية والاجتماعية . وكيف يعمل هذا البرنامج لخلق مجتمع صالح .

د - التاريخ الإسلامي : ينبغي أن تحصر هذه المادة في سيرة النبي وعهد الصحابة . وليكن الغرض من تعليمها أن يتعرف الطلبة على

أصل دينهم وقوميتهم وينبعث في قلوبهم شعور صحيح بالحمية الاسلامية .

هـ - اللغة العربية : يجب أن يكون ضمن هذه المادة علم ابتدائي

للغة العربية ، يجعل الطلبة يستأنسون إلى الأدب العربي بعض الشيء .

و - القرآن : تخلق في الطلبة ضمن هذه المادة ملكة يستطيعون بها

أن يتلو كتاب الله بسلاسة ، ويفهموا بعض الآيات السهلة ويحفظوا بعض

السور على ظهر القلب .

هـ - أما التعليم في الكلية ، فيجب أن يكون له جانب عام من البرنامج ،

يعلم لجميع الطلبة على السواء ، وليكن هذا البرنامج العام مشتملاً على

المواد الآتية :

أ - اللغة العربية : يجب أن يكون تعليم اللغة العربية متوسطة في

مرحلة الثانوية العالية . وأما في مرحلة البكالوريوس (B. A.) فلتضم هذه

المادة إلى تعليم القرآن .

ب - القرآن : يمد الطلبة في مرحلة الثانوية العالية لفهم القرآن .

وذلك أن يلقنوا بعض المقدمات فحسب : ككون القرآن من الوحي

الالهي وكتاباً محفوظاً ، وأصح وأجدر بالثقة من الناحية التاريخية ،

وتفوقه على امهات الكتب لسائر النحل والديانات ، وتعليمه الثوري الفذ ،

وتأثيره لا في العرب وحدهم بل في أفكار العالم كله ، وقوانين حياته ،

وأسلوب بنيانه ، وطريقة استدلاله ومقصوده الحقيقي (Thesis)

أما في درجة البكالوريوس (B. A.) فيعلم الطلاب القرآن الكريم

نفسه . وينبغي أن تكون طريقة التعليم لذلك أن يجتهد الطلبة لقراءة

القرآن وفهمه بأنفسهم ، ويساعد الاستاذ في ذلك بأن يحل مشاكلهم

ويرفع شبهاتهم ولئن اجتنب في هذا التعليم الرجوع إلى التفسير المطولة والتعرض للمباحث الجزئية ، واكتفى بتوضيح المعاني والمفاهيم فحسب ، فإنه يمكن بسهولة أن يعلم القرآن الكريم بأكمله في سنتين اثنتين .

ج - التعاليم الإسلامية : يجب أن يعرف الطلبة في هذه المادة بالنظام الإسلامي الكامل . وعلّموا ما هي التصورات الأساسية التي يقوم عليها ببيان الإسلام ، وكيف تشكل السيرة الإنسانية والاخلاق بناء على هذه التصورات وما هي المبادئ التي تنظم عليها حياة المجتمع في شعب الاجتماع والاقتصاد والسياسة والعلاقات الدولية وعلى أي نحو وزعت الحقوق والواجبات في نظامه الاجتماعي بين الفرد والجماعة . وما هي حدود الله ، وإلى أي حد أعطي المسلم حرية الفكر والعمل ضمن تلك الحدود ، وما الذي يترتب من الأثر على النظام الإسلامي إذا تجاوز المرء هذه الحدود فكل هذه الأمور تدخل في البرنامج بصفة جامعة شاملة ، وتقسم على مراحل التعليم الأربعة في الكلية بنسبة معقولة .

٦ - أما ما عدا هذا البرنامج العام ، فيجب أن تقسم العلوم الإسلامية وتوزع على التعليم الاختصاصي لمختلف العلوم والفنون وتركب تعاليم الإسلام في كل علم وفن حسب ملاءمتها له وتطبيقها عليه . إن العلوم والفنون الغربية نافعة كلها بذاتها ولا يعادي الإسلام أيها ، بل أقول قولاً إيجابياً إن الحقائق العلمية من تلك العلوم والفنون يصادقها الإسلام وهي تصادقه . والعداء في الحقيقة ليس بين العلم والإسلام ، بل بين الطريقة الغربية والإسلام . وذلك إن لاهل الغرب في أكثر العلوم

تصورات أساسية مخصوصة ومفروضات جذرية (Hypotheses) ونقاط انطلاق (Starting Points) ليست بنفسها حقائق ثابتة ، بل هي مما يلهمهم وجدانهم . فهم يصوغون الحقائق العلمية في قالب مزاعمهم الوجدانية هذه ويرتبونها بحسب هذا القالب ، ويتخذون من ذلك نظاماً مخصوصاً . فالاسلام في الحقيقة يحارب هذه المفروضات الوجدانية . انه لا يحارب الحقائق ، بل هو عدو لهذا القالب الوجداني الذي تذاب فيه تلك الحقائق وتشكل . وذلك أن له تصوراً مركزياً وزاوية للنظر ، ونقطة انطلاق للفكر وقالب وجداني هو ضد ومناقض باعتبار اصله وفطرته للقوالب الغربية . وتستطيع أن تفهم من هذا انه ليس من اسباب الضلالة من وجهة نظر الاسلام انكم تأخذون الحقائق من العلوم والفنون الغربية ، بل هو انكم تأخذون القالب الوجداني أيضاً مع ذلك من الغرب نفسه . وأنتم بأنفسكم ترسخون في أذهانكم طلبتكم الاحداث السذج تصورات الغرب الاساسية في الفلسفة والعلوم التجريبية والتاريخ والسياسة والاقتصاد وما إلى ذلك من الفنون ، وتمدلون وجهة نظرم لتطابق وجهة نظر الغرب ، وتتخذون المفروضات الغربية حقائق ثابتة مسلماً بها ، وتزودونهم للاستدلال والاستشهاد والبحث والتحقيق بتلك النقطة للانطلاق وحدها التي قد تبناها أهل الغرب ، وترتبون جميع الحقائق والمسائل العلمية على النحو الذي رتبها عليه الغربيون ثم تنزلونها في أذهان الناشئة . تفعلون هذا كله وتريدون به ذلك ان يأتي علم الإلهيات وحده فيجعلهم مسلمين ، كيف يمكن ذلك ياترى ؟ وماذا عسى أن يجدي علم الإلهيات الذي ليس فيه إلا التصورات المجردة ، ولا تطبق هذه على

الحقائق العلمية ومسائل الحياة ، بل يكون ترتيب جميع المعلومات في أذهان الطلبة على عكس هذه التصورات كلها ؛ هذا هو منبع الضلال كله . فإن كنتم تريدون سد هذا الضلال فعليكم أن تعتمدوا إلى أصل هذا المنبع فتصححوه وتعدلوا وجهته ، وتهيئوا لجميع الشعب العلمية تلك النقطة للانطلاق ، وتلك الزاوية للنظر وتلك المبادئ الأساسية التي قد آتاكم القرآن إياها . فتمت رتب المعلومات في هذا القالب الاسلامي للوجدان ، ومتى حلت مسائل الحياة والكون بهذه الوجهة الاسلامية للنظر ، عاد طلبتكم « طلبة مسلمين » وكان لكم أن تقولوا : اننا قد بعثنا فيهم الروح الاسلامية . وإلا فلن يكون من عاقبة وضع الاسلام في شعبة واحدة ووضع غير الاسلام في مائر الشعب العلمية إلا أن يخرج طلبتكم غير مسلمين في الفلسفة ، غير مسلمين في العلوم التجريبية ، غير مسلمين في القانون ، غير مسلمين في العلوم السياسية ، غير مسلمين في فلسفة التاريخ ، وغير مسلمين كذلك في علم الاقتصاد ، وان ينحصر إسلامهم في بعض المعتقدات النظرية وبعض التقاليد الدينية فحسب .

٧- يجب أن تلغى امتحانات البكالوريوس في الإلهيات (B . Th) والماجستير في الإلهيات (M . Th) لأنها ليست نافعة ولا هناك حاجة اليها . أما الشعب المخصصة للعلوم الاسلامية فيجب أن تدخلوا كل شعبة منها في البرنامج النهائي للشعبة المصرية من العلم المماثل . كأن تدخلوا في شعبة الفلسفة - مثلاً - علم الحكمة الاسلامية وتاريخ الفلسفة الاسلامية ومساهمة المسلمين في ارتقاء افكار الفلسفة ، وتدخلوا في التاريخ تاريخ الاسلام وفلسفة التاريخ الاسلامية ، وفي القانون مبادئ القانون

الاسلامي وأبواب الفقه المتعلقة بالمعاملات ، وفي الاقتصاد مبادئ الاقتصاد الاسلامي وأجزاء الفقه المتعلقة بالمسائل الاقتصادية ، وفي علوم السياسة نظريات الاسلام السياسية وتاريخ نشأة وارتقاء العلوم السياسية في الاسلام، ونصيب الاسلام في ترقية الافكار السياسية للعالم. وهكذا دواليك.

٨ - وبعد هذا البرنامج ، يجب أن تكون هناك شعبة مستقلة للبحث والتحقيق في العلوم الاسلامية تمنح شهادة الدكتوراه (Doctorate) كما تفعل جامعات الغرب ، لكل من يقوم بتحقيق علمي من الطراز العالي ويجهز في هذه الشعبة رجال يتدربون على الطريقة الاجتهادية للبحث والتحقيق ، فيستعدوا للقيادة النظرية والفكرية لا المسلمين وحدهم ، بل للعالم كله من وجهة النظر الاسلامية .

٣

إن طريقة التعليم التي قد قدمت خطوطها الرئيسية في الجزء الثاني آنفاً قد تبدو لأول وهلة غير ممكنة العمل ، ولكنني استنتجت بعد كثير من الامعان والتفكير انها يمكن أن يعمل بها تدريجياً يبدل ما يجب من العناية والجهد والمال .

انه لا يفين عنكم أنكم لا تستطيعون أن تبلغوا نهاية المطاف من فور خطوطكم الخطوة الاولى في أي طريق من الطرق . وليس من اللازم لا ابتداء عمل ما ان تكون الأسباب اللازمة لتكميله موجودة عندكم كاملة من قبل . وانما عليكم في هذه المرحلة التي تواجهكم أن تضعوا الاساس للبيان المنشود ، ومن الميسور ان تهياً الأسباب لهذا العمل ، إذ يوجد في

الجيل الحاضر أناس يقدرّون على أن يضعوا الاسس بحسب هذا الطراز التعميري . فالجيل الذي سينشأ بتعليمهم وتربيتهم على هذا النمط سيكون أهلاً لأن يرفع جدران البناء . ثم يأتي بعدهم جيل سيكتمل على أيديهم هذا العمل إن شاء الله . وطور الكمال الذي يمكن أن يدرك بعد جهد مستمر لثلاثة أجيال على الأقل لا يمكن أن يبلغه المرء اليوم . ولكنه لن يمكن استكمال هذا التعمير في الجيل الثالث الا إذا أُرهِصتم له منذ الآن . ولئن لم تبدئوا به اليوم نظراً إلى بعد طوره الكمال عنكم - والحال أنكم تملكون الاسباب اللازمة لابتدائه - فإنه لن يتم هذا العمل ولن يتحقق تعمير البناء في صورته الكاملة .

ولما كنت أشير عليكم بهذه الخطوة الاصلاحية فأظن من واجبي كذلك أن أعرض عليكم تدابير العمل بها أيضاً . فأريد أن أبين لكم في هذا الجزء الثالث الأخير من تقريرى انه كيف يمكن أن يبتدأ هذا الطراز التعليمي وما هي التدابير التي يمكن العمل بها لذلك .

١ - إن تعليم المدارس الثانوية (High Schools) قد أعدت له مصلحة المعارف لولاية (حيدرآباد الدكن) أخيراً برنامجاً جامعاً للعقائد والاخلاق الاسلامية وأحكام الشرع فمن الميسور أن يجعل ذلك البرنامج مفيداً لجامعتكم بعد إصلاح وتعديل لازم .

وإن تعليم اللغة العربية الذي قد كان إلى الآن أمراً بصعب ويهول لقدامة طرقه ومناهجه ، لم يعد الآن بفضل الله على تلك الدرجة من الصعوبة . فقد ابتدعت لتعليم العربية طرق حديثة في بلاد مصر وسورية

وفي قطرنا الهندي كذلك ، يمكن أن تعلم بها هذه اللغة بكل سهولة .
فيجب أن تؤلف لجنة من رجال قد برعوا في هذه الطرق الحديثة لتعليم اللغة
العربية علماً وعملاً ، فيعد بمشورتهم وتوجيههم برنامج يتخذ القرآن الكريم
هو الذريعة الرئيسية لتعليم اللغة العربية . وبهذا الطريق لن تبقى هناك
الضرورة لتوفير وقت مستقل لتعليم القرآن ، وسيستأنس الطلبة إلى
القرآن الكريم منذ البداية .

أما التاريخ الاسلامي فقد ألفت فيه رسائل كثيرة باللغة الاردية .
فيجب أن تجمع تلك الرسائل والكتب ويدقق فيها النظر . فالذي يلغى
منها أكثر فائدة ونفعاً يدخل في برامج الفصول الابتدائية .

ولتعليم المادتين الاوليين - أي العقائد والاخلاق ، واللغة العربية -
ستكفي ساعة واحدة كل يوم ، وأما التاريخ الاسلامي فإنه لا يحتاج إلى
وقت مستقل . وإنما يمكن ضمه إلى مادة التاريخ العمومية . وعلى ذلك
أظن أن عملية الاصلاح لن تستلزم تغييراً كبيراً في النظام الحاضر لتعليم
المدارس الثانوية . وكل حاجة إلى التغيير إنما هي في برامج التعليم والمعلمين
فإن التصور الذي قد حملتموه إلى الآن لتعليم العلوم الالهية ومعلمها يجب
أن تقصوه من أذهانكم ، فتستخدموا لهذا التعليم معلمين يعرفون عقلية
الصبية والصبايا لهذا العصر ونفسياتهم ، وان تضعوا في أيديهم برامج راقية
للتعليم ، ثم تخلقوا بجانب هذا كله بيئة يمكن فيها «للحياة الاسلامية» أن
تنبت وتأخذ في النمو .

٢- إن البرنامج العام الذي قد اقترحته لتعليم الكليات ، له أجزاء ثلاثة (١) اللغة العربية (ب) القرآن (ج) التعاليم الإسلامية .
فاللغة العربية منها يجب أن تنزلوها في تعليمكم منزلة اللغة الثانوية اللازمة .
أما اللغات الأجنبية الأخرى فللاطلبية أن يتعلموا لغة منها إذا شاؤوا ، على أساتذة مختصين (Tutors) لذلك . ولكن اللغة التي هي أداة التعليم الوحيدة في الكلية يجب أن تكون بعدها اللغة العربية هي اللغة اللازمة .
ولئن كانت برامج التعليم جيدة وكان المتعلمون محنكين مدربين فإنه يمكن في سنتي التعليم الثانوي العالي في الكلية أن يخلق في الطلاب من ملكة هذه اللغة ما يؤهلهم لأن يأخذوا تعليم القرآن في درجة البكالوريوس بلغة القرآن نفسها .

وأما القرآن الكريم فلا حاجة إلى تقرير كتاب من كتب التفسير لتعليمه . وإنما يكفي لذلك أستاذ من الطبقة العليا ، يكون قد درس القرآن دراسة إيمان وتمعق ، ويكون أهلاً لتعليم القرآن وتلقيه على النمط الحديث . وسيخلق هذا الامتياز في طلبة الثانوية العالية الملكة اللازمة لفهم القرآن ، ثم إذا وصلوا في البكالوريوس فإنه سيعلمهم القرآن بأجمعه بطريقة تتقدم بهم كثيراً في ملكة اللغة العربية وتعرفهم بروح الإسلام معرفة تامة .

ولبرنامج التعاليم الإسلامية لابد من أن يستكتب كتاب جديد يشمل جميع المقاصد التي قد أشرت إليها في فقرة (ج) لرقم (٥) تحت الجزء الثاني آنفاً . ومنذ برهة من الزمن شرعت في تأليف كتاب بعنوان :

(الحضارة الاسلامية ومبادئها واصولها). واضعاً أمام عيني تلك المقاصد، ظهرت أبوابه الثلاثة البدائية في مجلة (ترجمان القرآن) في اعدادها الصادرة من محرم ١٣٥٢ هـ . فإن وجد ذلك الكتاب مفيداً لهذا الغرض أكملته ووهبته للجامعة .

ولجميع هذه المواد لن تكون هناك ضرورة لتغيير في النظام الحاضر لتعليم الكلية . فإن اللغة العربية يكفي لها من الوقت ما قررتوه لتعليم اللغة الثانوية . وأما القرآن والتعاليم الاسلامية فيمكن أن يكفي لهما بالتناوب ذلك الوقت الذي قررتوه لتعليم العلوم الالهية .

٣ - وأكثر الصعوبة عسى أن يواجهه في تنفيذ المقترح الذي عرضته في الرقمين (٦ و ٧) تحت الجزء الثاني آنفاً . ولحل هذه المشكلة صور ثلاثة يمكن العمل بها بالتدرج :

(أ) يجب أن يبحث عن أساتذة - وهم على ندرتهم متوفرون - يكونون ذوي اختصاص في العلوم (الجديدة) ويكونون بجانب هذا على بصيرة في القرآن والسنة، وتكون فيهم من الكفاءة ما يستطيعون به أن يفصلوا حقائق العلوم الغربية عن نظرياتها وأساسها الوجداني ، ويرتبوها من جديد على المبادئ والنظريات الاسلامية.

(ب) يجب أن يغربل ما يوجد باللغة العربية والاردية والانكليزية والالمانية والفرنسية من كتب ومؤلفات في العلوم الاسلامية المختلفة كفلسفة القانون وماخذ القانون وفلسفة التشريع وعلوم السياسة والعمران والاقتصاد والتاريخ وفلسفة التاريخ . فكل ما يوجد منها

جديراً بالقبول كما هو، ينتخب ويقبل، وكل ما كان يمكن أن يجعل نافعا للغرض بشيء من الحذف والتعديل فيستعمل بعد هذه العملية المطلوبة. وتحقيق هذا الغرض سيكون من اللازم أن تعين لجنة خاصة من أهل العلم.

(ج) ويجب كذلك أن يستخدم رجال من ذوي العلم والفضل يؤلفون الكتب الجديدة في كل ما ذكر آنفاً من العلوم، ولا سيما في أصول الفقه وأحكام الفقه والاقتصاد الاسلامي ومبادئ العمران الاسلامية والفلسفة القرآنية، اذ هناك حاجة شديدة لاجراء الكتب الجديدة في جميع هذه المواضيع. ولم تعد الكتب القديمة في بابها نافعة للتعلم والتعليم. وانه لا شك أن أهل الاجتهاد والتحقيق قد يجدون فيها مادة نافعة لهم. ولكنه من العبث ومما لا جدوى فيه أن تتخذ هذه الكتب كما هي وتعلم طلاب العصر الحديث.

ولا شك في أن هذه التدابير الثلاثة لن تكفل تحقيق ذلك المقصود الذي نطمح إليه بصورة كاملة، ولا شك أيضاً في أن هذا البناء الجديد سوف توجد فيه نقائص غير قليلة، ولكنه لا سبب هناك للفرع منه. فان عملنا هذا سيكون أول خطوة في طريق الانشاء. وكل ما بقي فيه من النقص أو الفتور مستمد ركه الأجيال الآتية، حتى تنتج ثمراته الكافية بعد خمسين سنة على الأقل.

٤ - وإن شعبة البحث والتحقيق الاسلامي ليس هذا أوانها بعد. وستكون الحاجة إليها بعد سنوات. لذلك من المستعجال أن نقترح في بابها شيئاً.

٥ - إن مقترحاتي هذه يقل فيها مجال الخلافات المذهبية بين المسلمين على أنه لا بأس في أن يُستصوبَ علماء الشيعة في أنه إلى أي حد سيرضون أن يتعلم الطلبة الشيعيون مع الطلبة السنيين في هذا المنهج التعليمي . فان شاؤوا وضعوا لطلبتهم مشروعا تعليمياً بأنفسهم. ولكنه سيكون الأحسن والأقوم أن يجعل للخلافات المذهبية أقل ما يكون من النفوذ في التعليم بقدر الامكان ، ويربي الأجيال الآتية للفرق المختلفة تحت المبادئ والاصول المشتركة .

٦ - وإني اتفق مع السير محمد يعقوب كل الاتفاق على أن تواظب الجامعة على دعوة أهل العلم والفن بين آن وآخر لإلقاء المحاضرات على طلبتها في مسائل هامة . وإني أود أن تجعل جامعة عليكر مركزاً ذهنياً لا للهند وحدها بل لجميع العالم الإسلامي . فعلينا أن تدعوا أهل العلم والفضل من مسلمي مصر وسورية وإيران وتركيا وأوربا ، علاوة على مسلمي الهند، لأن يأتوا هذه الجامعة ويعموا في طلبتها روح الحياة وتنور الفكر بأفكارهم وتجاربهم ونتائج تحقيقاتهم . ويجب أن يستكتب مثل هذه المحاضرات مقابل أجور كبيرة، حتى تؤلف بقدر واف من التحقيق والفكر والعناية والوقت ، ويكون نشرها مفيداً لا لطلبة الجامعة وحدهم بل للجمهور المتعلم عامة !

٧ - ولا يصح أن تخصص للتعليم الاسلامي لغة واحدة بعينها . ولا يوجد الآن في أي من اللغات الاردية والعربية والانكليزية ذخيرة كافية للبرنامج المطلوب . لذلك ينبغي أن يعلم كل ما يوجد ذا نفع في أية لغة بتلك

اللغة نفسها. ويجب أن يكون معلو الإلهيات والمعلوم الإسلامية جميعهم رجالاً يعرفون اللغتين الانكليزية والعربية معاً . وليس لرجل ذي ثقافة واحدة الآن أن يكون معلماً لاهوتياً صحيحاً .

وإني في الختام أستطيعكم المفو على إطالة تقريري هذا ولكنه لم يكن بد من هذه الإطالة ، لأنني أدعو إلى طريق مختلف جديد ، قد أنفقت عدة سنوات من الفكر والتأمل لتبين ملامحه . وقد انتهيت حتماً إلى أنه لا سبيل إلى بقاء وجود المسلمين القومي المستقل وحضارتهم الخاصة إلا أن يحدث انقلاب في طريقة تعليمهم وتربيتهم، وأن يجري ذلك الانقلاب على هذه الخطوط التي عرضتها عليكم . ولا يخفى علي أن هناك جماعة من الناس ، ولا يقل عددهم في جامعة عليكر نفسها ، سيظنون أفكاري هذه أضغاث أحلام . فإن فعلوا فلن أستغرب الأمر ، لأن الناظرين إلى الورا قد اعتبروا الناظرين إلى الأمام سفهاء في أكثر الأحيان . وهم محقون في اعتبارهم هذا. ولكن الذي أشاهده اليوم أني على ثقة بأنهم سيشاهدونه بعد سنوات - وربما في غضون حياتي - بعيني رأسمهم، وسيشعرون بحاجة الإصلاح حينما يكون الطوفان قد عم وغمر ولم يبق بأيديهم من فرص لتدارك ما فات إلا الأقل الانزرا !

الدّاء ودواؤه

إن الدين الإسلامي ليس بمقيدة خصب ، ولا هو مجموعة لمدد من الأعمال والطقوس الدينية ليس إلّا . بل هو برنامج تفصيلي لحياة الإنسان الكاملة ، ليست العقائد والعبادات ومبادئ الحياة العملية وضوابطها فيه أشياء مختلفة منفصلة بعضها عن بعض ، بل تتلاحم هذه كلها فيه وتؤلف مجموعة لا تقبل التجزئة ، ويكون بين أجزائها كمثل الارتباط الذي يكون بين أعضاء الجسم الحي .

فإن أنت بترت الرجلين واليدين من جسم رجل حي ، وقطعت عينيه وصلمت أذنيه وقطعت لسانه واستخرجت أيضاً معدته وكبدته ، ونزعت رئتيه وكليتيه . وأخرجت المخ - كله أو جله - من جمجمة الرأس ، وأبقيت على شيء واحد هو القلب ، فهل سيمكن هذا الجزء الباقي من الجسم أن يحيا وينبض ؟ وإن هو حي فهل سيكون ذا نفع وغناء ؟ .

هكذا الحال مع الإسلام . فالمقائد منه بمنزلة القلب ، وما ينشأ عنها من أسلوب التفكير (Attitude of Mind) ونظرية الحياة (View of Life) ومقصد الوجود ومقياس القيم (Standard of Values) هو منه بمنزلة المخ . والعبادات أعضاؤه وجوارحه التي هو يستوي بها قائماً ويتولى العمل .

وكل ما عرفه الاسلام من مبادئ الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتنظيم الاجتماعي لحياة الانسان هو منه بمثابة المعدة والكلية وسائر الاعضاء الرئيسية . والاسلام يحتاج إلى عيينين بصيرتين وأذنين سالمين لكي تنقل إلى المخ بأمانة صورة صحيحة لآحوال العصر وظروفه . ويحكم فيها العقل حكماً صحيحاً . ويحتاج كذلك إلى لسان منضبط حتى يستطيع أن يعبر به عن حقيقة نفسه ، وإلى جو صالح نظيف ليتنفس فيه ، وإلى غذاء طيب صحي يلائم معدته ويكون دماً صالحاً للجسم .

وان القلب - أى العقيدة - وإن كانت له أعظم الأهمية في هذا النظام الكامل ، فهل تأتي أهميته هذه إلا من انه يمد سائر الاعضاء والجوارح بقوة الحياة ؟ ولئن قطع أكثر الاعضاء ، أو نزع من الجسم أو فسدت بنفسها . فكيف يمكن القلب أن يحيا وينبض مع ما بقي من الاعضاء الناقصة المريضة ! وإن بقي حياً لساعة أو اثنتين فما جدوى هذه الحياة لعمر الله !

ولنتأمل الآن ما هي الحالة التي لا تزال نرى عليها الاسلام في القطر الهندي هذا . وإن القوانين الاسلامية معطلة كلها على وجه التقريب . ولا يزيد مقدار ما هو نافذ من المبادئ الاسلامية في شؤون الحياة المختلفة من الاخلاق والاجتماع والاقتصاد وما سواه على قدر خمسة في المائة . وإن البيئة غير الاسلامية والتربية اللادينية والتعليم العلماني قد جعلت العقول والاذهان غير مسلمة بصورة كلية أو جزئية . فالعيون تبصر ولكن زاوية النظر قد زاغت وانحرفت ، والآذان تسمع ولكن حاسة

صممها قد تغيرت . واللسان ينطق ولكن نطقه لم يعد بليفاً وقوياً . والرئتان لا تتنفسان الهواء الصافي لأنه قد أحاط بهما من كل الاطراف جو متسمم . ولا تنال المعدة غذاء صالحاً لأن خزائن الرزق كلها قد فسدت وتعفنت . والعبادات التي هي بمكانة الجوارح والاعضاء لهذا الجسم قد أصيبت بالفشل بقدر ٦٠ بالمائة . وأما التي بقيت منها على صورتها فلم يعد لها من تأثير في النفوس ، لأنها قد فقدت صلتها بسائر الاعضاء الرئيسية . فلا يزال الشلل والحدرد يسري في عروقها أيضاً . ففي مثل هذه الحالة هل أنت تستطيع أن تقول : إن هذا الاسلام الذي بين أيديكم هو اسلام كامل ؟ كم من عضو وكم من جارحة أصيبت بالشلل وكم منها باقية ولكنها مأروفة لاتعمل عملاً صحيحاً . وفي وسط هذه كلها قلب واحد قد تعرض للضعف والمرض ، لأنه كما كان يمد كل تلك الأعضاء بالحياة كان يستمد هو نفسه أيضاً منها القوة والحياة . فلما فسد عمل المخ والرئتين والمعدة والكلية جميعاً فأنى للقلب أن يظل سالماً معافى . ومن القوة الغدّة لهذا القلب الحيوي الجبار انه لا يزال حياً بنفسه . وليس هذا خفياً ، بل هو لا يزال يحرك أيضاً تلك الاعضاء المريضة الباقية كيفما أمكنه . ولكن هل يمكن أن يكون هذا الاسلام المشوّد المتور على شيء من الجاذبية ليجتذب إلى نفسه الناس ؟ وهل له من القوة ما يؤثر به تأثيراً في حياة أهل الهند ؟ بل أتساءل - ولا قدر الله ذلك - هل يمكن الاسلام في مثل هذا الموقف أن يستنقذ بقية أعضائه من مزيد القطع والبت ، بل ينجو من عوادي الموت في وجه تلك الكوارث التي لا يزال سيلها يمتد إليه بسرعة متزايدة على مرور الأيام ؟

ومن النتيجة لهذه الحالة القائمة أنه بدل أن يتحقق قول الله عز وجل (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) قد انتشرت بين المسلمين موجة البغي والانحراف عن الاسلام . وليس هناك موضع في الهند أو فيما يكتنفها من البلاد يوجد فيه النظام الاسلامي عاملا بأجزائه وأعضائه الكاملة ، حتى يجتلي الناس جماله وكمله ويعرفوا الشجرة من ثمره . وإنما الذي هم يشاهدون الآن هو هذا الاسلام الأستر الأعرج ، فيظنون أن هذا هو الاسلام الحقيقي . فيقول بعض المتتمين إليه علناً أنهم ليسوا بمسلمين ، وهناك آخرون يفعلون كل ما يشاؤون اللهم إلا الأباء الصريح لكونهم مسلمين ، مما لا يبقى بعده من فرق بينهم وبين المنكرين للاسلام . ومنهم كثيرون قد زاعت قلوبهم ، ولكنهم لما لم يكونوا أقدموا بعد على البغي الصريح ، فلا يزالون مندجين في جماعة المسلمين وينشرون فيها جرائم البغي ، حتى إذا وقعت الفوضى العامة قاموا فرفعوا أيضاً رايهم أنفسهم . وهناك طائفة لا يجرون بما في أنفسهم ولكنهم لا يزالون يمسسون بأنه يجب أن يستعد المسلمون للاندماج في قومية جديدة وفي حضارة مستحدثة ، لأن هذا الجسم الميت الذي هم يحملونه لا ينفعهم بنفسه ولا هو يتيح لهم أن يتمتعوا بتلك المنافع التي قد تنالهم بفضل اندماجهم في الأمم المواطنة الاخرى . كما أن هناك رجالاً يرون أن الحل الصحيح لهذه المسألة هو أن يبتز الاسلام ويجز عن كثير مما فيه . فهم يدعون أن المرء يجب أن يكون مسلماً فيما يخص العقائد الدينية والحركة والعمل الديني فحسب . وأما البرنامج الكامل لسائر شعب الحياة فيتخذ حسباً تعلمناه من

غير المسلمين وحسبها يعمل به غير المسلمين . ولا نسدري هل هؤلاء
منخدعون بأنفسهم أم هم يريدون أن يخدعوا الغير . وأيا كان فالحقيقة
التي قد نسوها أو هم ينسونها الآن هي أن العقائد الدينية والحركة والعمل
الديني يعود كل ذلك شيئاً لا روح له ولا قوة فيه إذا ما اتخذت في الحياة
النظريات غير الإسلامية وجرى العمل بالمبادئ غير الإسلامية . فلا يمكن
أن يدوم بها الايمان طويلاً ولا أن يستمر عليها العمل طويلاً . لأن هذه
العقائد والعبادات هي الاسس التي قد أحكمت لأجل أن يرفع عليها
بنيان الحياة بكامله . فإذا ارتفع البنيان على أسس أخرى غير هذه الاسس
الإسلامية فإلى متى يمكن أن تدوم العناية بهذه الآثار البالية القديمة في غير ما حاجة
ولا نفع . وأنه سيمتساعل الطفل الذي سوف ينشأ ويتزعرع في نظام
الحياة الجديدة : لماذا جعل في عنقي هذا الغل الثقيل من العقائد الفضولية
والشعائر غير المنتجة شيئاً ؟ ولماذا أقرأ وأؤمن بالقرآن الذي قد أصبحت
أحكامه معطلة الآن ؟ ولماذا أؤمن بأن ذلك الرجل الذي قد مضى قبل
أكثر من ثلاثة عشر قرناً كان نبياً حقاً ؟ ولما كان لا يهديني ولا يوجهني
في هذه الحياة فأني نفع لي في الاعتراف برسائله ، وأي ضرر سيلحقني
إن لم أعترف بها ؟ وأي فرق يقع باداء الصلاة وتركها وبالتزام الصوم وإهماله
في النظام الحياتي الذي أنا متبعه ؟ وأي ارتباط هناك بين تلك الاعمال وهذه
الحياة ؟ ولماذا أبقى على هذه الرقاع غير المتلاحمة مع أجزاء حياتي !

هذه نتيجة منطقية لفصل الدين عن الدنيا . فمتى تم هذا الفصل
من حيث المبدأ والعمل ، ظهرت هذه النتيجة لا محالة . وكما أن القلب

إذا انفصل عن سائر النظام الجسدي يفسد ويتعطل . كذلك إن العقائد والعبادات متى انفصلت عن الحياة فإنه لا يبقى لها من أهمية . إن العقائد والعبادات تمد الحياة الإسلامية بالقوة والحياة الإسلامية بنوبتها تمد تلك العقائد والعبادات بالقوة والحرارة . وإن بينهما — كما بينت آنفاً — لصلة ما بين أعضاء النظام الجسماني الحي . وليست نتيجة قطع هذه الصلة فيما بينهما إلا موتها جميعاً . وإن ترقيع الحياة غير الإسلامية بالعقائد والعبادات الإسلامية كتركيب المخ والأعضاء الانسانية في جسم القرد .

ولا تذهبن إلى أن حالة الاسلام الحاضرة لا يزال أثرها السيئ هذا يترتب على طائفة قليلة من المثقفين الجدد فحسب ، بل الحق أنه قد امتد — قليلاً أو كثيراً — إلى الذين هم مسلمون من صميم قلوبهم ويحملون في قلوبهم حباً لهذا الدين وإكراماً له سواء أكانوا من أهل القديم أو الجديد وإن تفكك الحياة الإسلامية لنكبة عامة لم يسلم أحد من المسلمين من نتائجها الطبيعية ولا هو يمكن أن يسلم . فكلنا لا يزال يصل إليه نصيب من تلك النتائج على حسب استعداده وإن علمائنا ومشايخنا أيضاً نصيباً منه مثل نصيب المتخرجين من المدارس والكليات .

على أن الخطر الأكبر قد أحاط بعامتتنا الذين تشغل ملايين منهم مساحة (١٥٦) مليون مبن مربع في هذا القطر ، فهؤلاء لم يبق لديهم إلا اسم الاسلام ، الذي هم يحبونه حباً شديداً ، ولكنه لا من الناحية العلمية يعرفون حقيقة الشيء الذين هم متهاكون عليه ، ولا هناك من الناحية العملية نظام للحياة بقيهم من المؤثرات غير الإسلامية . فكل مصل

أن يستغل جهالتهم فيعدل بمقائدهم وبحياتهم عن صراط الاسلام المستقيم .
كل ما يكفيك لذلك هو أن تقنع القوم بأن هذه الضلالة التي تعرضها عليهم
هي عين الهدى والصواب ، أو هي ليست مخالفة للاسلام على الأقل ،
ولك بعد ذلك أن تسوقهم في أي طريق تشاء ، سواء كان ذلك طريق
النبوة القاديانية أو طريق الشيوعية أو الفاشية . وإن الأزمات التي قد
خلقها إفلاسهم الزائد على مر الأيام وانحلال حالتهم الاقتصادية ليس هناك
في حالة الفوضى الحاضرة من يعنى بحلها حسب مبادئ الاسلام . فليس
بين المسلمين جماعة منظمة تنهض في وجه الشيوعية بمبادئ الاسلام
الاقتصادية والتمدنية وتحل تلك المسائل التي هي في الواقع ذات أهمية
كبيرة لعامة الخلق . ومن نتيجة ذلك أن الحشد العظيم من ملايين هؤلاء
المسلمين المفلسين الجياع قد أصبح لقمة سائغة للمبغين الشيوعيين . وأما
الطبقة البورجوازية فإن الذين هم منهم ذوو الامل الواسع والطموح المفرط
إلى نيل السلطة فهم لا يزالون أبدأ يلتمسون الطرق الجديدة لاحتراز القوة
السياسية . وقد علمت الثورة الروسية طائفة من هذه الطبقة الآن تدبيراً
جديداً هو أن يلبسوا لبوس أنصار العمال والفلاحين فيستهووا العامة الفقراء
ويجهلهم تحت يدهم ، ويدكوا في أنفسهم نار الحرص والأثرة والحسد ،
ويطمعهم في ايتائهم نصيباً من الثروة أكثر من حقوقهم الشرعية
ويعدوهم حتى باغتصاب الثروة الجائزة من الطبقات المترفة وتوزيعها عليهم
وبذلك يجعل السواد الأعظم من أهالي القطر في قبضتهم فيكتسبوا
السلطة التي هي حاصلة في النظام الرأسمالي الملوك والطفاة وأصحاب الملايين .
هذه الطائفة رجاؤهم في العامة المسلمين أقوى منه في العامة غير المسلمين ،

لأن هؤلاء أسوأ حالا من الناحية الاقتصادية . فهم يمتثلون لذلك فعلا
للنفوذ إلى قلوبهم من طريق معدتهم ، التي هي أبداً أضعف ثغرة في جسم
الانسان الجائع . إنهم ينادون القوم : « تعالوا نبين لكم الطريق الذي تزول
به فوارق الفنى والفقر وتسود الرفاهية » . فاذا هرول اليهم المسلم الجائع
أملا في رغيقتين يقتات بهما ، دعاه هؤلاء إلى تأليه المدة بدل تأليه الرب
تعالى ، وألقوا في روعه أن الدين والايمان ليس بشيء ، وأن المقصود
الحقيقي يجب أن يكون الخبز . فكل طريق يوفر الخبز هو الدين بعينه
وهو وحده الكفيل بالنجاة .

« إن الفقير والمموز والعبد لا دين له ولا مدينة . إن دينه الام هو
قطعة من الخبز يأكلها وان تمدنه الاكبر هو خرقة من الثوب يلبسها ..
نعم ذلك الخبز والثوب اللذين هو يضطر أحيانا إلى أن يرتكب السرقة
لاجلها . وإن إيمانه الاعلى والأسمى هو التخلص مما هو فيه من النكبة
والافلاس... الحق أنه لا دين له اليوم في دنيا الافلاس والعبودية هذه » (١) .
هذا هو الدرس الاساسي لدين الشيوعية . وعندما يلقي المسلمون
الاميون المفلسون هذا الدرس يُقنعون في الوقت نفسه بأن دينهم التقليدي
لن يناله أحد بسوء .

« وأي خطر يخشى على الدين والمقائد من هذا كله ؟ وأي صلة بينه
وبين هذا ؟ وإنما قد بقي الدين حياً وقوياً ومنيراً أبداً مادام محتفظاً بقوته
الأخلاقية والروحية » (١) .

(١) هاتان العبارتان اقتبسناهما من مقال فاضل مسلم في جريدة مسلمة سيارة .

وان التأثيرات التي قد أثمرتها الشيوعية الروسية في أجيال المسلمين الناشئة في روسيا خلال العشرين سنة الماضية لا تخفى على أهل الخبرة. ومثل هذا المستقبل يهدد مسلمي الهند الآن . فنار الجوع لا تزال تنتشر لكي تلتهم متاع الايمان وتحوله رماداً . ومنبع الفساد صغيرهين بعد بحيث يمكن سده الآن بحصاة . ولكنه إن استمرت غفلتنا وإهمالنا على هذا النحو على سنوات ذوات عدد فان هذا المنبع يخشى أن يتحول إلى سيل هات لا تثبت أمامه الاطواد .

ومن التدبير النكد المقيم في هذه الظروف أن يزاوّل تبليغ الاسلام على طريقة المبشرين النصرانيين ، وذلك أنه لا يمكن أن تعود الاوضاع إلى استقامتها وإن نشرت آلاف من الرسائل والكتب لاجل اصلاح العقائد . وأي غناء الآن — ياترى — في سرد محاسن الاسلام بالقلم واللسان ؟ وإلغا الضرورة الحقيقية هي أن تعرض هذه المحاسن في دنيا الواقع . وانه لن تنحل مسائل الحياة بمجرد قولنا ان مبادئ الاسلام تضمن حل تلك المسائل كلها . بل المطلوب في الحقيقة أن يجعل ما هو موجود في الاسلام بالقوة موجوداً فيه بالفعل . هذه الدنيا دار نزاع وصراع . ولا يمكن أن يغير مجراها بمجرد الكلام . وإلغا يحتاج لتغييره إلى « كفاح ثائر » . ولئن كان أمكن الشيوعيين أن ينهضوا بمبادئهم الخاطئة ويضربوا سلطتهم ونفوذهم على جانب كبير من هذا العالم ، وأمكن الفاشية أن تتقدم بمناهجها البعيدة عن القصد وتلقي هيبتها وجبروتها على ربوع العالم ، وأمكن الفلسفة الغاندية في عدم الايذاء أن تروج وتنتشر

على رغم كونها شيئاً لا تلائم الفطرة بمجرد السعي والجهد ، فلا سبب هناك لان لا يمكن المسلمين الذين عندهم مبادئ الحق والعدل الأبدية الخالدة أن ينازوا الغلبة والسلطة في هذا العالم من جديد . ولكن هذه الغلبة لا تتحقق بمجرد الوعظ والخطابة ، بل هي تتطلب الجهد والعمل . وأن يتولى العمل على تلك المناهج التي تؤدي إلى الغلبة في العالم حقاً بحسب السنة الإلهية .

إن « الكفاح النائر » كلمة غامضة عامة ، لها كثير من الصور العملية وقد يكون أكثر . فأياً نوع من أنواع الثورة يراد تحقيقه فلا بد أن نتخذ له تلك الصورة العملية التي تلائم فطرته .

وإن الثورة التي نقصد اليها لا تحتاج إلى أن نلتمس لإحداثها صورة جديدة ، إن هذه الثورة قد حدثت قبل هذا . وإن الإنسان القدسي العظيم ﷺ الذي أحدث هذه الثورة كان يعرف فطرتها جيداً ، ويمكن أن تحدث هذه الثورة مرة أخرى اليوم باتباع الطريقة التي اختارها لذلك . وإن سيرة ذلك الإنسان المطهر معجزة من ناحية ، وأسوة من ناحية أخرى . وذلك أنه من أين يكون لأحد اليوم أن يأتي بتلك الأخلاق المألية والتقوى والحكمة والعدل والشخصية القوية وخصائص الإنسانية العليا ؟ ومن ثم كيف يمكن أناسنا الآن أن يحدث ثورة في كمال ثورته العظيمة ؟ فهو من هذه الناحية معجزة ، وسيمبق معجزة إلى يوم القيامة . ولكن المثال الذي قد تركه لأمته ذاك الرجل العظيم أن خاصته الطبيعية هي الروح الثورية التي قد شهد العالم انموذجها قبل ثلاثة عشر قرناً . فكلمنا احتذي ذاك المثال أكثر وكلمنا نسج على منواله أكثر كانت النتائج اتم واشمل للروح الثورية . وأقرب إلى تلك النتائج التي ظهرت بقوة ذلك الانموذج الأصلي . فهو

من هذه الناحية أسوة وسيفي أسوة إلى يوم القيامة . وسواء ا كنت
في القرن العشرين أم الأربعين . وكنت في الهند أو في أميركا أو في
روسيا يمكنك في كل زمان ومكان أن تحقق مثل تلك الثورة بشرط أن
تضع أمام عينيك تلك الاسوة الحسنة .

إن الطريقة التي أختارها النبي ﷺ لإحداث الثورة في هذه الدنيا
قبل نيف وثلاثة عشر قرناً لا مجال ههنا لسرد تفاصيلها . وإنما المقصود
في هذا المقام هو الإشارة إلى أن فكري « دار الاسلام » ،^(١) قد نشأت
عن دراساتي العميقة لتلك الاسوة الطيبة .

لأنه لما بعث النبي ﷺ لم يكن على وجه البسيطة رجل مسلم واحد .
فعرض ﷺ دعوته على الدنيا . وأصبح الناس يدخلون في دين الله أولاً
رويداً ، أحاد ومثنى وثلاث . وهؤلاء الافراد مع أنهم كانوا يؤمنون
إيماناً أقوى وأرسخ من الجبال ، وكانوا يوالون الاسلام ولواء تعجز الدنيا
عن أن تأتي له بنظير في التاريخ كله ، ولكن لما أنهم متفرقون ومنحصرون
بين الكفار ولا يملكون الحيلة ولا القوة كانوا على رغم ما يرهقون أنفسهم إلى
حد الكلال في محاربتهم لبيئتهم ولا ينجحون في تغيير الظروف التي يجتهد
لاصلاحها هم أنفسهم وهاديتهم ومرشدهم — فداء أبي وأمي ! فضل النبي
ﷺ يعمل ويجد على هذا النحو مدة ثلاثة عشر عاماً ، حتى تهيأت له
في هذه الفترة ثلة من المؤمنين الفدائيين . وعند ذلك أرشده الله تعالى
إلى تدبير آخر للكفاح — وهو أن يجمع أولئك الفدائيين ويخرج بهم

(١) ضمت هذه الادارة في نظام الجماعة الاسلامية منذ اغسطس سنة ١٩٤١م

من بيئة الكفر إلى مكان مأمون يعمل فيه على تشكيل بيئة إسلامية ،
ويبنى داراً للإسلام ينفذ فيها برنامج الحياة الإسلامية كاملاً ، ويؤسس
موطناً تهيأ فيه القوة الاجتماعية في المسلمين وينشئ مركز توليد كهربائي
يولد الطاقة الكهربائية ويرسلها بطريق منضبط إلى أطراف البلاد ، لكي
تستضيء بفعلها كل رقعة وكل زاوية على وجه الأرض . فكانت هجرته
ﷺ إلى المدينة تحقيقاً لهذا الغرض . إنه أمر جميع المسلمين الذين كانوا
مبعثرين في مختلف قبائل العرب أن ينضموا إلى دار الإسلام هذه ويجمعوا
فيها . وهناك عرس الإسلام على العالم منفذاً في صورته العملية . وفي هذه
البيئة الطاهرة دربت الجماعة كلها على الحياة الإسلامية تدريباً جعل كل
فرد من أفرادها صورة حية للدين الإسلامي ، يكفي النظر في شخصيته
وفي حركاته وأعماله ليعرف : ما الإسلام وما هي رسالته في العالم . وبلغ
من شدة اصطباغ هذه الجماعة بصبغة الله أنهم حينما ذهبوا يصبغون غيرهم
بصبغتهم بدل أن يقبلوا صبغة غيرهم ، وبلغ من قوة السيرة التي خلقت
فيهم أنهم لا يعلمون الهزيمة والنكول أمام أحد ، بل ينهزم أمامهم
كل من يواجههم . وركزت في نفوسهم غاية الحياة الإسلامية بحيث أصبحت
في المقام الأول في كل عمل من أعمال حياتهم ، وأصبحت المطالب الدنيوية
الأخرى في الدرجة الثانوية . وبفضل التعليم والتربية كلها جعلوا أهلاً
لأن ينفذوا أينما ذهبوا ذاك البرنامج الحياتي الذي آتاهم القرآن والسنة ،
ويقلّبوا كل صورة من صور فساد الأحوال ويحملوها تابعة لهذا البرنامج .
فكان هذا التنظيم من أعاجيب التاريخ الإنساني . وأنه ليجدر كل

جزء من اجزائه بأن نتناوله بدراسة غائرة وتفكير دقيق . ان هذا التنظيم قد كان وُزِعَ العمل فيه على اربعة شعب كبيرة :

اولاها — ان تعد طائفة من الامة ، يتفقهون في الدين ، ويملكون الكفاءة اللازمة لان يعلموا الناس الدين واحكامه على أحسن طريق . (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم) (١).

والثانية — ان يعد نفر من الناس تكون حياتهم مكرسة للسمي والجهد لاقامة نظام العمل الاسلامي ونشره وتعميمه . وتكون على الجماعة ان تكفي هؤلاء مؤونة الكدح في سبيل العيش . اما هؤلاء النفوس فلا يبالوا به ابداً . وسواء استقيم امر معاشهم ام لا يستقيم ، ليدفعهم كلفهم الملح بهذا العمل الذي هو الهدف الوحيد لحياتهم ان يواظبوا عليه جاہدين . (ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) (٢)

والثالثة — ان يخلق في نفوس الجماعة كلها الشعور بان العمل على اعلاء كلمة الله من واجب كل فرد من افرادها . فيمارس كل فرد شؤون حياته الدنيوية ولكنه يجب ان يكون هذا المقصود ماثلاً امام عينيه في كل حال . فلا ينسأه تاجر في تجارته ولا فلاح في زراعته ولا صانع في مهنته ولا موظف في وظيفته . ويمكن على ذكر من كل هؤلاء ان هذه الاعمال الدنيوية مقصودة للحياة ، والحياة بنفسها مقصودة لذلك العمل الجليل — اعلاء كلمة الله في الارض . ومهما تكن دائرة عمله فعليه ان يلتزم مبادئ الاسلام في اقواله وافعاله وفي اخلاقه ومعاملته . ومتى وقع

(١) التوبة : ١٢٢ (٢) آل عمران : ١١٤

التعارض بين الفوائد الدنيوية ومبادئ الاسلام فلينبذ الفوائد ولا يشوه سمعة الاسلام بالغاء مبادئه. ثم عليه ان يُنفق في مسيل الاسلام كل ما استطاع ان يوفره من الاموال والفرص ، بعد قضاء حاجاته الضرورية ، فيشارك في هذا العمل تلك الطائفة التي قد كرسَت حياتها له . (كُنتم خيرَ امة اُخْرِجَتْ للناسِ ، تأمرونَ بالمعروفِ وتنهونَ عن المنكرِ وتؤمنون بالله)^(١)

والرابعة - ان تتاح الفرص لغير المسلمين ان يأتوا دار الاسلام ويمكثوا فيها ، ويدرسوا كلام الله في محيط تكون الحياة فيه كلها تفسير عملي لهذا الكلام الكريم . وذلك بانهم لا جرم ان يفهموا القرآن فهماً احسن واتم في البيئة الاسلامية منه في بيئة الكفر ، وان يرجعوا بتأثر اقوى واعمق . (وإن أَحَدٌ منَ المَشْرِكِينَ استَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ)^(٢) .

وبهذه المناهج والطرق تمكّن المهادي الاعظم عليه السلام من ان يهيئ في مركز التوليد الكهربائي بيثرب في مدة ثماني سنوات قوة هائلة جبارة غمرت جزيرة العرب كلها بضياؤها واشعاعها عن غير بعيد . ثم امتدت اشعتها من العرب إلى ربوع العالم ، وحتى اليوم بعد ان مضى على ذلك نصف وثلاثة عشر قرناً لا يزال ذلك المركز التوليدي مشحوناً بذخائر القوة والطاقة .

ولما أصيب النظام الاسلامي ، بعد الخلافة الراشدة ، بكثير من

(١) آل عمران : ١١٠ .

(٢) التوبة : ٩ .

التفكك والانحلال ، فاتباعا لهذه الطريقة النبوية اقام الصوفية المسلمون
زواياهم هنا وهناك . ان مفهوم « الزاوية » اليوم قد انحط عندنا إلى درجة انه
كلما سمع المرء بهذه الكلمة تبادر إلى ذهنه تصور مكان ناء في مغاور الجبال
لا يمر فيه الهواء ولا النور ولا يتغير مظهره في شيء على طول الازمنة
والقرون . ولكن هذه « الزاوية » كانت في بداية امرها صورة للبيئة التي
اقامها النبي ﷺ في المدينة . فكانت الصوفية يختارون كل من يستأنسون
فيه قابلية ، فينزعون من البيئة الفاسدة للدنيا الخارجية ، ويصطنعونه
عندهم في الزاوية لمدة من الزمان ، يربونه اجود التربية ويمدونه لذلك
العمل الذي كان يعد النبي ﷺ - اصحابه له .

فالذين يريدون ان يحدثوا ثورة من الطراز الاسلامي فعليهم ان
يرجعوا إلى تلك الطريقة نفسها من جديد . ولئن كنا لانجد خارج الهند
بيئة حرة مستقلة يمكن ان تقام فيها « دار الاسلام » كالمدينة الطيبة ،
فعلينا ان نقيم في هذا القطر على الاقل مرا كز للتربية تهيأ فيها بيئة
اسلامية خالصة . فتكون الاخلاق فيها اسلامية ، ويكون الاجتماع
اسلاميا ، وتكون الحياة العملية على طريقة المسلمين ، ويكون الاسلام بارزا
في كل جهاتها بروحه وصورته ... بيئة يكفي للدلالة فيها على كون شيء
من الاشياء صحيحاً انه قد اذن به الله والرسول او أمر به ، ويعترف
بكون شيء من الاشياء خاطئاً لمجرد أن الله والرسول لا يرضيانه أو
ينهيان عنه بيئة لا يسود فيها هذا البغي والمصيان وهذا الجوع غير
الاسلامي الذي قد احاط بنا من كل جانب ، وحيث يكون اليأس
— على الاقل — ان لا نأذن بالدخول في مجتمعا من المؤثرات الخارجية إلا

تلك التي نجدها ملائمة للروح الاسلامية ، ونستطيع أن ندفع المؤثرات التي نجدها منافية لهذه الروح ، ونغنيها من التغلب على ارواحنا والنفوذ إلى قلوبنا واذهاننا . . . حيث يتهيأ لنا جو نستطيع أن نفكر فيه كسلم وننظر فيه إلى الاشياء بعين المسلم ، ونتمكن من تنمية تلك الصفات الاسلامية التي لا تزال تضمحل في هذا الجو المتسمم السائد على دار كفرنا هذه ، ونظهر حياتنا من تلك الخبائث والادناس التي قد تسربت إلى أفكارنا واعمالنا لكوننا قد فتحنا اعيننا وترعرعنا في بيئة غير اسلامية ، والتي ربما لا نحس بها ، وإن أحسنا بها في بعض الاحايين فإن البيئة المحيطة لشدة تأثيرها لا تدعنا نجنب انفسنا اياها على رغم جهدنا . ومثل هذه المراكز التربوية يجب ان يجمع فيها اناس يريدون ان يخدموا الاسلام ، فيربوا تربية حسنة قوية لهذه الخدمة . وليكن تخطيط العمل في هذه المراكز كالذي كان لعمل النبي ﷺ . فيقسم العمل - كمثلته - على أربعة شعب ، ويدبر الامر لصوغ الآدمية في قالب الاسلامية - كمثلته - في كل شعبة من تلك الشعب !

١ - فلتكن هناك شعبة تشتمل على رجال ذوي كفاءة علمية عالية . فاما الذين كانوا منهم نابغين في العلوم الدينية ، فيعلمون اللغات العربية والعلوم الجديدة ، واما الذين كانوا متخرجين في العلوم الجديدة فيعلمون اللغة العربية والعلوم الاسلامية . ثم يدرس هؤلاء كلهم القرآن والسنة دراسة غائرة ليتفقهوا في الدين ويتبصروا فيه ، ويفرقوا بعد ذلك على فئات مختلفة ، تتناول كل فئة منهم شعبة واحدة من شعب العلم ، فترتب فيها مبادئ الاسلام ونظرياته على النمط المصري

الحديث ، وتفهم مسائل الحياة الجديدة وتلتزمس حلها بحسب مبادئ الاسلام ، وتنزع وجهة النظر الغربية التي قد تأصلت في اساس العلوم ، وتشكلها من جديد من وجهة نظر الاسلام ، وتخرج بتحقيقها انتاجاً علمياً صالحاً يملك من القوة والتأثير ما يحدث به ثورة فكرية في تأييد الاسلام .

٢ - ولتكن بعد هذه شعبة ثانية ، يعنى فيها باعداد العاملين ، الا كفء لخدمة الاسلام ، بمن يجب أن يكونوا ذوي الاخلاق الطاهرة ، والسيرة القوية ، والعزم الراسخ ، مستعدين لبذل كل ما يملكون في سبيل غايتهم ، ويكونوا منظمين في حزب ثوري قوي ، يعيشون أبسط الحياة ، وبألفون الكد والكسح ، وفي أعمالهم وسلوكهم كامل النظام والانضباط ، ويكون سلوكهم العملي كسلوك المسلمين الراسخين في الدين . فلينهض هذا الحزب برنامج لبناء نظام اجتماعي (Social Order) جديد ، وتعمير حضارة جديدة على مبادئ الإسلام ، وليعرض برنامجه على عامة خلق الله يتذرع بذلك إلى احرار أكثر ما يكون من القوة السياسية ، حتى يقبض آخر الأمر على آلة الحكومة ليكون من الميسور تحويل حكم الظلم والعدوان إلى حكم العدل والنصفة .

٣ - والشعبة الثالثة يجب أن تشمل على الذين يريدون أن يكثروا في مركز التربية مدة قليلة ، ثم يرجعوا ، فهؤلاء ينبغي أن يحلوا بالعلم الصحيح والتربية الاخلاقية ، ثم يخلى سبيلهم ليذهبوا ويعيشوا حيثما شاؤوا ، ولكن عيشة اسلامية مستقيمة ، ويؤثروا في غيرهم بدل أن يتأثروا بهم ،

ويكونوا أشداء في مبادئهم راسخين في عقائدهم ولا يحبوا حياة لا تستهدف غاية ، بل يجب أن تكون أمامهم غاية للحياة في كل حال ، ويكتسبوا أرزاقهم بوسائل شرعية طيبة . ويكونوا مستعدين في كل حين لمقاومة العاملين في الشعبة الثانية التي ذكرت آنفاً ويمدوم أيضاً بالاموال ، ويشاركونهم فعلاً في الكفاح ، وحينئذ عاشوا يعملوا على إعداد الجو هناك لمناصرة الحزب الثوري .

٤ - والشعبة الرابعة : يجب أن تضم المسلمين وغير المسلمين الذين يريدون أن يأتوا مركز التربية ليستفيدوا منه في المسائل العلمية ، أو هم يريدون أن يطالعوا الحياة كما هي فيه . فهؤلاء يجب أن يتاح لهم كل ما يمكن من الفرص لذلك ، لكي يرحموا حاملين في أنفسهم تأثراً عميقاً بالاسلام وتعليمه .

هذه خطوط بارزة للنظام الذي هو عندنا بمثابة المقدمة اللازمة لاجتثاث الثورة الاسلامية . ويتوقف نجاح هذا النظام تماماً على أن يأتي أكثر ما يكون ممثلاً في روحه وجوهره لذلك النظام الاغوجي الذي أقامه النبي ﷺ في المدينة الطيبة .

ولا يفهم أحد من هذا الامتثال لحياة المدينة الطيبة أيام النبي أننا نقصد المماثلة في المظاهر واللون الخارجي ، ونريد أن نرجع القهقري من مرحلة التمدن هذه التي قد وصلت إليها الدنيا إلى مرحلة التمدن التي كانت عليها العرب قبل نيف وثلاثة عشر قرناً . إن هذا المفهوم لا تباع الرسول وأصحابه بين الخطأ وأكثر رجالنا الدينيين يستمدون منه خطأ

هذا المفهوم لا غير . فاتباع السلف الصالح عندهم عبارة عن أن نلبس مثل ما كانوا يلبسون ، ونأكل ما كانوا يأكلون ، ونتبع الطراز الحياتي الذي كان يتبع في بيوتهم، وأن نحاول الابقاء على الحالة المدنية والحضارية التي كانت تسود عصرهم . بصورة متحجرة (Fossilized) إلى يوم القيامة . وأن نفهم أعياننا عن كل ما يحدث من تطور فيما خارج بيئتنا من العالم ، ونضرب حول عقولنا وحياتنا سياجاً لا تدخل فيه حركة الزمان ولا تطورات العصر . ان تصور الاتباع هذا الذي لم يزل غالباً على أذهان رجالنا الدينين منذ قرون من التقهر والانحطاط يناقض في الحقيقة روح الاسلام . وليس من التعليم الاسلامي في شيء أن نعيش في هذه الدنيا كماديات أثرية تحيا وتنفس، ونمرض حياتنا على أهل الدنيا كمسرحية تاريخية للتمدن البائد. إن الاسلام لا يعلمنا الرهبانية ولا التعبد للقديم ، ولا من غايته أن يخرج في الدنيا أمة لا تنفك تحاول منع التطور والارتقاء . بل هو يريد - بخلاف هذا - أن يخرج أمة تعمل على عدل التطور والارتقاء عن الطرق الخاطئة وتسيره على الطريق القاصد الصحيح فهو لا يعطينا قالباً بعينه لا يتبدل ، بل هو يزودنا بالروح ويريد منا أن نصب هذا الروح في كل ما يتجدد من قالب للحياة تبعاً لتغير الزمان والمكان إلى يوم القيامة . ولما كنا جعلنا في هذه الدنيا خير أمة فمن رسالتنا في هذه الدنيا - من حيث أننا مسلمون - أن نتولى القيادة والزعامة، لا أن ننجر كساقة الجيش (Rear - Guard) وراء السائرين في طريق الارتقاء إلى الامام وقد خلقنا حقاً لان نكون مقدمة الجيش، ويمكن سر كوننا خير أمة في كلمة « أخرجت للناس » .

إن الاسوة الحقيقية لرسول الله ﷺ وأصحابه ، التي يجب علينا أن نتبعها الآن هي أنهم استخدموا القوانين الطبيعية تبعاً للقوانين الشرعية . فقاموا بخلافة الله في الأرض أحسن ما يكون من القيام بالتمدن الذي كان يسود عصرهم حينئذ بث هؤلاء في قلبه روح الحضارة الإسلامية . وكل ما كان قد وقع تحت يد الإنسان من القوى الطبيعية اتخذ هؤلاء خادماً لتلك الحضارة . وكل ما جاء به التمدن من وسائل الغلبة والرقى استعمله هؤلاء قبل أن يستعمله الكفار والمشركون لكيما تكون حضارة القائمين بخلافة الله غالبة على حضارة الباغين على الله . وهذا هو الذي كان عليهم الله تعالى في كتابه ، حيث قال : (وأعدوا لهم ما استطعتم) . فكانوا أرشيدوا إلى أن المسلم هو أحق وأجدر من الكافر باستخدام تلك القوى التي خلقها الله ، بل المسلم هو وحده الحقيق بذلك .

وبناء على ذلك كله فإن الصورة الصحيحة لاتباع النبي وأصحابه اليوم هي أن نأخذ الوسائل التي قد تجددت بفضل ارتقاء التمدن واكتشافات القوانين الطبيعية فنعمل على تسخيرها للحضارة الإسلامية كما فعلوا في المصور الأولى . إن ما هنالك من النجس والدنس ليس في هذه الوسائل بذاتها ، بل هو في تلك الحضارة المادية الإلحادية التي تروج وتنتشر بقوة هذه الوسائل . فالإذاعة ليست بشيء نجس في نفسها ، وإنما النجس هو الحضارة التي تجعل مدير الإذاعة ناشراً للخلاعة والمجون ومنادياً للكاذب والاضاليل . وليست الطائرة بشيء نجس ، وإنما النجس هو الحضارة التي تستخدم ملكك الهواء هذا تبعاً لمغريات الشيطان بدلاً من مرضاة الرحمن . وليست السينما كذلك شيئاً نجساً ، وإنما النجس في الحقيقة هو الحضارة التي تستعمل هذه القوة الفعالة من تخليق الله لإشاعة الوقاحة

والفحشاء في الناس . وليس من السبب في رواج هذه الحضارة النجسة وانتشارها في الأرض سوى أن أصحابها لا يزالون يستخدمون لنشرها وترويجها كل ما خلق الله من القوى الطبيعية التي اكتشفها الانسان إلى الآن . فإن كنا نريد الآن أن نقوم بهذا الواجب الذي يقع علينا لنشر الحضارة الالهية في الارض، فلا بد أن نستخدم نحن أيضاً تلك القوى الطبيعية . إن تلك القوى مثلها كمثل السيف كل من استعمالها انتصر ، سواء أكان استعماله لفرض خبيث أو مقصد شريف . وإن اقتنع ذو المقصد الشريف بشرافة مقصده ونبله، ولم يستعمل السيف ، فهذا خطأ . ولا بد أن يلقي عاقبته في مضمار الحياة . لان سنة الله في عالم الاسباب والمسببات هذا لم تكن لتبدل من أجل فرد من الافراد أو امة من الامم . ويتضح جلياً من هذا البيان أن هذه الحركة التي أقدم فكرتها ليست بحركة رجعية (Reactionary) ولا هي حركة تقدمية تستهدف الرقي المادي فحسب . وأن المركز التربوي الذي أطمح اليه يبصرى لا انموذج له في (جروكل كانبجري)^(١) ولا في (صومعة ستياجرا)^(٢) ولا في مدرسة (شانتى نكيتن)^(٣) ولا في معهد (ديال باغ)^(٤) ، وكذلك إن الحزب الثوري الذي أتخيله في ذهني لا انموذج له في (الحزب الفاشي الايطالي) ولا في (الحزب الاشتراكي الالماني) . وإن كان لذلك المركز وهذا الحزب انموذج في شيء فها هو الا مدينة (الرسول) و (حزب الله) . الذي تم تشكيله على يد النبي العربي ﷺ .

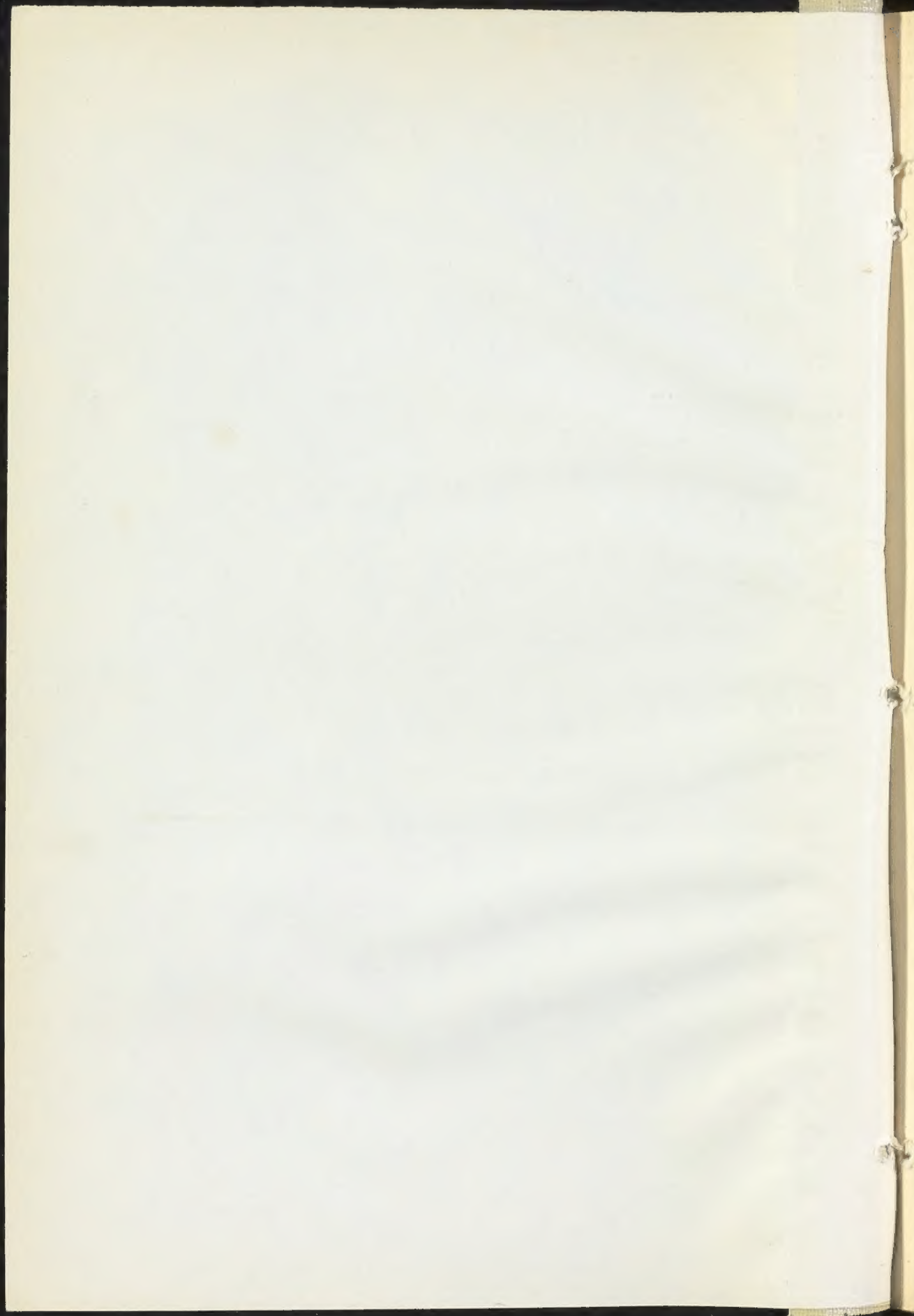
(١) كل هذه مؤسسات تعليمية أقامها الهنادك القوميون في الهند لترية الجيل الناشئ منهم على الحماس القومي والحضارة الوطنية الهندكية في تلك العصور . وكان من الثمرات الملموسة لهذه المعاهد في الشباب الهندكي ما جعل بعض رجال المسلمين ينظرون اليها بين الإعجاب وهدون لو يقيمون أمثالها عندم .

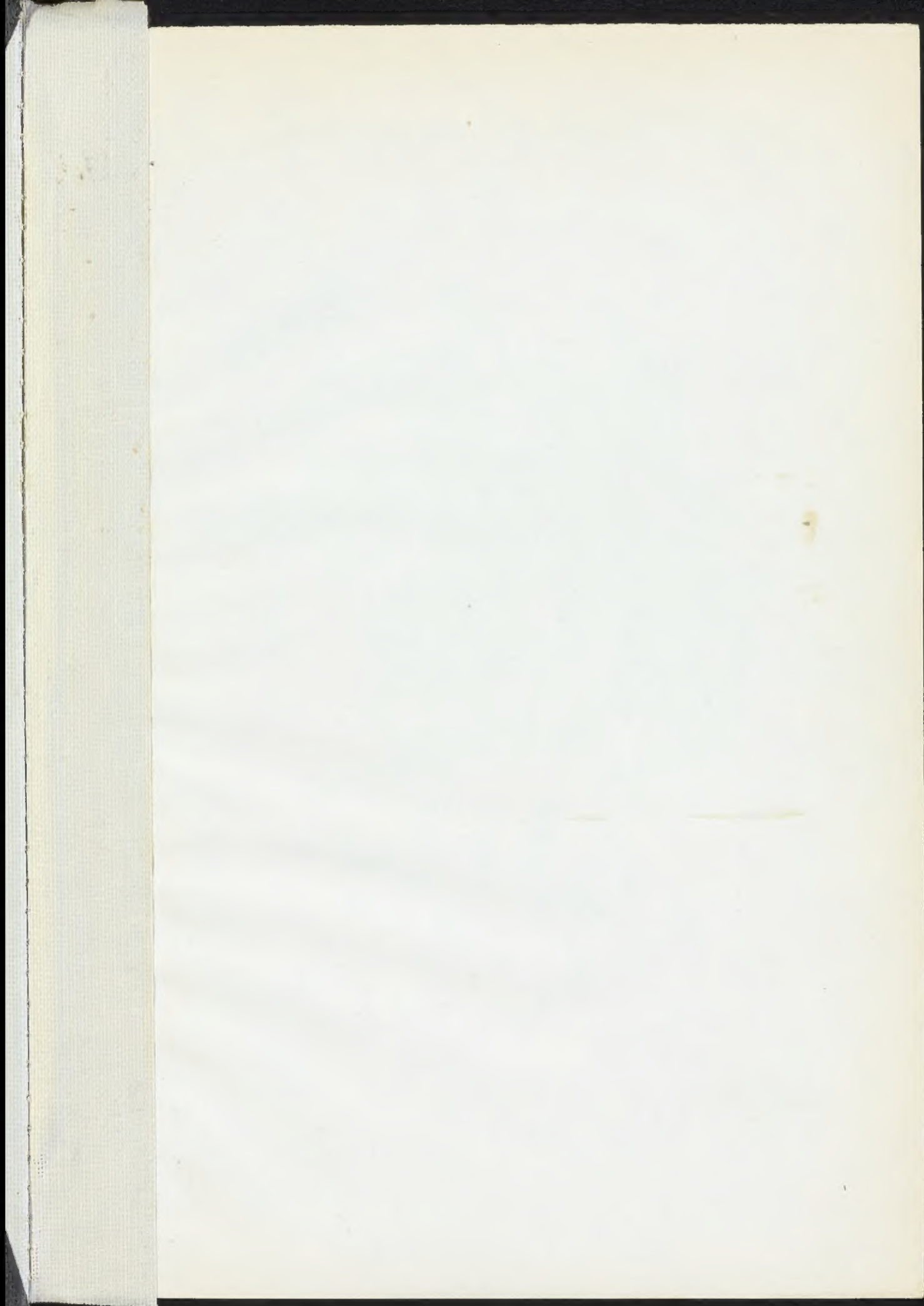
الفهرس

ص	
	مقدمة
١	عبوديتنا الفكرية وأسبابها
١٩	انحطاط حضارة الاسلام في الهند
٣٠	الأمم المريضة في العصر الحديث
٤٣	بين الشريعة الربانية والقانون الوضعي
٦٠	انتحار الحضارة الغربية
٧٢	خطبة اللورد لوثين
٩٢	التزاع بين الشرق والغرب في تركيا
١٠٨	خداع المذهب العقلي
١٢٥	خداع المذهب العقلي - أيضاً
١٣٩	تهافت مذهب التجدد
١٥٨	النقص الاساسي لخططنا التعليمية
١٧٣	المنهج السديد لتعمير كيان الامة
١٨٥	طلائع الثورة على الدين
١٩٨	الفساد الاجتماعي

الايمان والاطاعة	٢٠٩
المفهوم الحقيقي لكلمة « المسلم »	٢١٧
المصدر الحقيقي لقوة المسلم	٢٢٩
شرعة الابطال ، لا شرعة الضعاف الانكال	٢٤٢
الخطة التعليمية الجديدة لمسلمى الهند - ومنهاج العمل بها	٢٥٦
الداء ودواؤه	٢٨٢







LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

